الجامعة الأردنيّة
كليّة الدّراسات العليا

فنّ الخطابة في العصر الأمويّ

(دراسة نقديّة)

إعداد
فريال عبد الرّحمن سعيد العلي

عميد كلية الدراسات العليا

إشراف
الدّكتور جاسر أبو صفيّة

قُدّمت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير في
اللغة العربيّة وأدبها
بكليّة الدّراسات العليا في الجامعة الأردنيّة

كانون الأول
١٩٩٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرّسالة بتاريخ ١٩٩٥/١٣/٣١ وأجيزت من قبل :

أعضاء اللجنة	التوقيع
١. الدّكتور جاسر أبو صفيّة/ مشرفاً	
٢. الأستاذ الدّكتور عبد الكريم خليفة/ عضواً	
٣. الأستاذ الدّكتور فوّاز طوقان /عضواً	

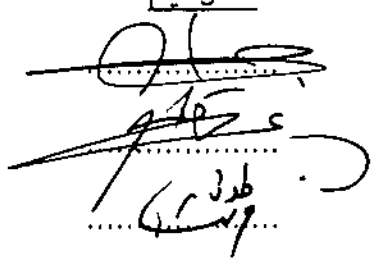

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

****

إليك .....

وإلى من رحل لنبقى

أهدي مخاض التّجربة

فريال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أشكر أستاذي الفاضل الباحث المحقّق في الدّراسات الأمويّة الدكتور جاسر أبو صفيّة، الّذي أخذ بيدي، وعلّمني منهج البحث العلميّ، وجنّبني مزالقه الشّائكة، متوّجة تقديري له بكلمة شكر أهديها للسّيدة إكرام الكالوتي الّتي أخذ زوجها من وقتها ليعطيني، ولا سيّما في المراحل الأخيرة لإنجاز هذه الدّراسة.

وأتقدّم للأساتذين الفاضلين : الأستاذ الدّكتور عبد الكريم خليفة، والأستاذ الدّكتور فوّاز طوقان - اللذين شرّفاني بقبول مناقشتي- بالشّكر الجزيل، إذ أتاحا لي فرصة معرفتهما عن قرب، والاستفادة من آرائهما ووجهات نظرهما.

وأشكر السيدة سحر العقرباوي مديرة مدرسة الجبل الثّانوية للبنات في محافظة مادبا، والتي كانت خير عون لي في التّوفيق بين واجبي وطموحي.

وأسجّل شكري لكلّ الزّميلات والزّملاء اللواتي والّذين قدّموا لي يد المساعدة ولو بكلمة تشجيع.

وأخيراً ...

كلّ الشّكر والتّقدير لعائلتي الّتي آزرتني حتّى آخر لحظة، ولا سيّما والدتي الّتي أرجو أن يكون حلمها قد تحقّق في أحد أبنائها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفهرس

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
كلمة شكر	د
الفهرست	هـ
الملخّص باللغة العربيّة	ز
التّمهيد : ما بين أيدينا من نصوص الخطابة الأمويّة	١
الفصل الأول :	
الأمويّون والخلافة	٧
مدخل	٨
١- خلافة معاوية	٩
٢- البيعة ليزيد	٢٠
٣- خلافة معاوية الثّاني	٢٧
٤- انتقال الخلافة إلى الفرع المروانيّ	٢٩
٥- خلافة عمر بن عبد العزيز	٣٥
٦- ثورة يزيد بن الوليد	٣٧
الفصل الثّاني :	
المعارضة والخلافة	٤٣
١- الشّيعة والخلافة	٤٤
٢- الخوارج والخلافة	٦٥
٣- الزّبيريّون والخلافة	٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثّالث :

سياسة الحكم الدّاخليّة والخارجيّة ٧٨

١- الخطب الإداريّة والماليّة ٧٩

٢- خطب الجهاد ١٠٣

٣- خطب الفتن والثّورات ١٠٨

الفصل الرابع :

سائر الخطابة الأمويّة ١١٧

- الخطب العقديّة ١١٨

- الخطب الوعظيّة ١٢٦

- الخطب الفقهيّة ١٣٢

- خطب الوفود ١٣٣

- خطب النّساء ١٣٩

- خطب التّائبين ١٤٥

- خطب النّكاح ١٤٨

الفصل الخامس :

السّمات الفنيّة للخطابة في العصر الأمويّ ١٥٣

المصادر والمراجع ١٦٧

ملخص باللغة الإنجليزية ١٨٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المُلخّص

فنّ الخطابة في العصر الأمويّ

فريال عبد الرّحمن العلي إشراف : د. جاسر أبو صفيّة

هذه الدّراسة محاولة لتعرّف خطابة العصر الأمويّ، بدراسة نصوصها دراسة نقديّة سنداً ومتناً -مستأنسة بمنهج الجرح والتّعديل عند علماء الحديث- لنفي الزّائف منها وإثبات الصّحيح، وتحديد سماتها الفنيّة في ضوء ما يطمئنّ لصحته منها.

واقتضت الدّراسة أن تكون في تمهيد وخمسة فصول :

عرض التّمهيد لأسباب الوضع في الخطابة الأمويّة وموقف القدماء والمحدثين منه.

وتناول الفصل الأوّل النّصوص الخطابيّة المنسوبة للخلفاء الأمويّين عند تسلّمهم مقاليد الخلافة في محاولة تبيّن كيفية وصولهم إليها وموقفهم منها.

وتناول الفصل الثّاني النّصوص الخطابيّة المنسوبة للفئات التي قيل إنّها معارضة للخلافة الأمويّة، وبيان حقيقة مواقفها، ومدى تمثّل آرائها في تلك النّصوص.

أمّا الفصل الثّالث فقد تناول النّصوص الخطابيّة المنسوبة للخلفاء الأمويّين والولاة والقادة العسكريّين في إدارة شؤون الدّولة الدّاخليّة والخارجيّة.

وأمّا الفصل الرّابع فقد تناول سائر موضوعات الخطابة وهي : الخطب العقديّة والوعظيّة والفقهيّة وخطب الوفود والنّساء والتّائبين والنّكاح.

وعرض الفصل الخامس للسّمات الفنيّة للخطابة في العصر الأمويّ في ضوء ما يمكن الاطمئنان إلى صحّته من نصوص.

الجامعة الإسلامية بغزة
مكتبة (ج)

وخلصت الدّراسة إلى جملة نتائج، أهمّها :

١- أنّ أكثر النّصوص الخطابيّة موضوعة، أو أصابها التّحريف والتّزوير، وأنّه لا يمكن الاطمئنان إلّا للقليل منها.

٢- أنّ النّصوص الخطابيّة الّتي تصوّر الخلاف بين الأمويّين ومعارضيهم حول مسألة الخلافة -ولا سيّما الشّيعة- قائمة على أساس واهٍ، وأنّ النّصوص الّتي يمكن الاطمئنان إلى صحّتها في إدارة شؤون الدّولة قليلة.

٣- أنّ خطب الجهاد وخطب الخوارج تعرّضت لتغييب متعمّد.

٤- أنّ قلّة النّصوص الخطابيّة الّتي يمكن الاطمئنان لصحّتها لا تمكّن باحثاً من القول إنّ تطوراً ما طرأ على موضوعات الخطابة في العصر الأمويّ عند مقابلتها بالنّصوص الخطابيّة في عصر صدر الإسلام.

٥- أنّ تهافت المصادر على جمع كل ما هو غثّ وسمين في آن فوّت فرصة الاطلاع علي نصوص خطابيّة قد تساعد على وضوح خصائص الخطابة وملاحظة فيما إذا أصابها تطوّر أو لا.

Center of Thesis

التّمهيد

ما بين أيدينا من خطابة العصر الأمويّ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشير ابن قتيبة في "عيون الأخبار" إلى أنّ خالد بن عبد الله القسريّ (ت ١٢٦ هـ) قام بجمع الخطب في العصر الأمويّ؛ ففي رواية عن محمّد بن داود قال : "حدّثنا أبو غسّان مالك بن عبد الواحد عن معتمر عن خالد القسريّ، قال -وكان قد جمع الخطب- فكان يستحسن هذه ويذكرها إلخ..." [١].

وهذه الرّواية -لوصحّت- فإنها تدلّ على عظم شأن الخطابة آنذاك، وإلّا لما اعتنى أهل عصرها بتدوينها، ولكنها فقدت كما فقد السّواد الأعظم من تراثنا[٢].

ولعلّ المشكلة في دراسة الخطابة الأمويّة تكمن في عدم الرّكون إلى ما بين أيدينا من نصوص، ولاسيّما أنّ هذه النّصوص لا تتناسب والأحداث الجسام الّتي واكبت العصر الأمويّ، بل إننا نلمس عظم التّزوير والتّحريف والوضع الّذي منيت به الخطابة الأمويّة شأن سائر الفنون الأدبيّة، وهو ما أشار إليه عدد من الباحثين المعاصرين[٣].

وتأتي الشّعوبية في مقدّمة أسباب الوضع، وفي ذلك يقول محمود الملاّح : "لمّا رأى الشّعبيّون الأوّلون قوّة التّاريخ الإسلاميّ، ووثاقة أركانه من ناحية الإيجاب حاربوه من ناحية السّلب! ووجدوا لتحقيق مآربهم فسحة من الزّمان

---

(١) ابن قتيبة : أبو محمّد الدّينوريّ، عيون الأخبار، شرح وتعليق : مفيد قميحة، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦، حـ٤، ص٧١.

(٢) تضم مكتبتنا التّراثية مؤلّفيْن منسوبيْن للعصر الأمويّ، مما يدلّ على أنّ التّدوين كان مألوفاً في زمانهم.
انظر:
Raif Georges khoury, Wahb B.Munabbih, Der Heidelberger Papyrus PSR Heid Arab 23, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, Germany, 1972.

والزّهريّ : محمّد بن مسلم، المغازي النّبويّة، تحقيق : سهيل زكّار، الطّبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠. كما أشار بروكلمان إلى العديد من الكتب المنسوبة لمؤلّفين من العصر الأمويّ.
بروكلمان : كارل، تاريخ الأدب العربيّ، ترجمة : عبد الحليم النّجار، الطّبعة الثّانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩، حـ٣.

(٣) انظر مثلاً:
إحسان النّص، الخطابة في عصرها الذّهبي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣. والخطابة السّياسيّة في عصر بني أميّة، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٥، وإيليا حاوي، فنّ الخطابة وتطوّره عند العرب، دار الثّقافة، بيروت، د.ت. وحسين نصّار، نشأة الكتابة الفنيّة، الطّبعة الثّانية، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٦٦. ومحمّد أبو اليسر عابدين، أغاليط المؤرّخين، دار العروبة للطّباعة والنّشر، دمشق، ١٩٧٢، ومحمّد ماهر حمادة، الوثائق السّياسيّة والإداريّة العائدة للعصر الأمويّ، الطّبعة الثّانية، مؤسّسة الرّسالة ودار النّفائس، بيروت، ١٩٨١، المقدّمة. وعبد المتعال الجبريّ، حوار مع الشّيعة، الطّبعة الأولى، دار الصّحوة للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ١٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمكان، فوسّعوا ما أمدّتهم به بعض الحوادث من عناصر السّلب ومدّوه وفرشوه وتفنّنوا في مدّه وفرشه، وعندي أنّهم قضوا على عناصر الإيجاب النّبيلة إلّا أنّ ضرورة الواقع تضطرّ أخلاقهم إلى البوح بها أحياناً على طريقة (إلّا من أكره) ولكن بصورة إجماليّة، لأنّ التّفصيل يزعجهم ! فهم يحومون ولا يردّون، ولولا قوّة الواقع ومشاهدة آثاره لألغوا كلّ ما يتعلّق بالإيجاب وحرّموا التّحدث به على الصّغار والكبار" [1].

ويذهب عبد العزيز الدّوري إلى أنّ نشاط الشّعوبيّة بان في أيام المهدي، ولكنّ المعلومات عن الجيل الأوّل تشير إلى وجودهم منذ زمن المنصور، وإلى أنّ بعضهم من المخضرمين الّذين عاشوا في أواخر العصر الأمويّ وأوائل العصر العباسيّ، وكانوا يتقرّبون من العرب في أوّل الأمر ثمّ ما تلبث شعوبيّتهم أن تنكشف حين كانوا يفاخرون بالأمجاد الفارسيّة[2].

فلم يسلم معاوية -مثلاً- من هجماتهم، والنّيل منه خطيباً مفوّهاً، إذ يورد البلاذري في أنسابه حديثاً يرفعه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاء فيه: "إذا رأيتم معاوية على المنبر فاضربوا عنقه" [3].

وقد ناقش السّيوطي هذا الحديث، وأثبت بالأدلّة القاطعة أنّه موضوع جملة وتفصيلاً، فكفانا مؤونة ذلك [4].

ولم يكتف الشّعوبيون بالانتقاص من شأن الأمويّين، بل تآمروا جنباً إلى جنب مع الزّندقة على آل البيت "باختلاق الرّوايات الكاذبة ودسّها على آل البيت، وأصبحت بمرور الزّمن وكأنّها حقائق مسلّم بها، مستهدفة من وراء ذلك تمرير

---

(١) محمود الملّاح، تاريخنا القوميّ: بين السّلب والإيجاب، الطّبعة الثّانية، د.ت أو مكان نشر، ص١٤.

(٢) عبد العزيز الدّوري، الجذور التّاريخيّة للشّعوبيّة، الطّبعة الثّالثة، دار الطّليعة، بيروت، ١٩٨١، ص٢٣-٢٩.

(٣) البلاذري : أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، تحقيق : إحسان عبّاس، دار النّشر فرانتس شتايز بفيسبادن، بيروت، ١٩٧٩، ق٤، حـ١، ص١٣٠.

(٤) السّيوطي : جلال الدّين، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، المطبعة الأدبيّة، القاهرة، ١٣١٧هـ، حـ١، ص٦٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك الرّوايات المدسوسة الكاذبة على التّاريخ العربيّ ورجاله" [١].

كما شاركت الرّوايات الشّيعيّة في التّآمر على آل البيت، وقد صرّح شيخ الإسلام ابن تيمية بذلك في قوله عن مبدأ (التّقية) : "والرّافضة تجعل هذا من أصوله دينها وتسمّيه التّقية، وتحكي هذا عن أئمّة أهل البيت الّذين برّأهم الله عن ذلك. بل كانوا من أعظم النّاس صدقاً وتحقيقاً للإيمان وكان دينهم التّقوى لا التّقية" [٢].

ولمّا كانت الرّوايات تؤدّى مشافهة فإنّ الأخباريّين حين انطلقوا لجمع الرّوايات المتفرّقة ووضعها في إطار زمنيّ لم يتجرّدوا من ميولهم ونزعاتهم الخاصّة "لكنّهم أحجموا غالباً عن صهر هذه الرّوايات وإدماجها بعضاً في بعض، وبذلك فقد يسّروا للعلم الحديث إمكانيّة مراجعتها وتدقيق النّظر فيها خبراً خبراً في معظم الأحيان، لاستقصاء تلك الاتّجاهات الرّئيسيّة والثّانويّة، أو كشف ميول المؤرّخ نفسه، والّتي ينمّ عنها اختياره لمصادره التّاريخيّة قبل كلّ شيء" [٣].

ومن أجل تقديم صور عن الخبر أو الحدث التّاريخيّ غضّ الأخباريّون النّظر -ولا سيّما المتأخّرون منهم- عن القيمة التّوثيقيّة لتلك الرّوايات، وهو أمر نبّه عليه ابن خلدون في مقدّمته، إذ قال فيهم :

"ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتّحقيق قليل، وطرف التّنقيح في الغالب قليل" [٤].

ولذوق الأخباريّ الخاص أثره في انتقاء أخباره ورواياته، فابن الطّقطقي -مثلاً- أثبت خطبة منسوبة ليزيد الناقص لأنّه استحسنها ... "ولمّا بويع

---

(١) محمد جاسم المشهداني، وقائع النّدوة القوميّة لمواجهة الدّس الشّعوبيّ، الجذور التّاريخيّة للرّواية الشعوبيّة والموقف النّقدي منها، بغداد، ١٩٨٩، رقم ٢، ص١٥٢.

(٢) ابن تيمية : تقيّ الدّين أحمد بن عبد الحليم، منهاج السّنّة النّبويّة، تحقيق : محمد رشيد سالم، الطّبعة الثّانية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.، حـ١، ص١٠٥.

(٣) رودلف زلهايم، مجلّة مجمع اللغة العربيّة في دمشق، فتنة عبد الله بن الزّبير، تعريب : حسام الصّغير، نيسان، ١٩٧٤، مج ٤٩، حـ٢، ص٨٣٠.

(٤) ابن خلدون : عبد الرحمن، المقدّمة، طبعة ارنولد توينبي، مؤسسة الطّباعة لدار التّحرير للطّباعة والنّشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالخلافة خطب النّاس، وقال لهم كلاماً حسناً، أنا مثبته هاهنا لحسنه..." (١).

ومن أسباب الوضع : السّهو والنّسيان اللذان قد يعرضان للمؤلّف أو النّاسخ، أو تدخّل النّاسخ بحذف أو زيادة لما ينسخ، وهذه من الأسباب الّتي أشار إليها ابن خلدون في قوله : "والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، وتقليد عريق في الآدميّين وسليل، والتّطفّل على الفنون عريض وطويل" (٢).

ويتجلى لنا ذلك عند المقابلة بين النّصوص المتعدّدة، أمّا الرّواية المفردة فتشكّل -أحياناً- عقبة كأداء أمام الباحث للتّثبّت من صحّتها.

وقد تنبّه القدماء إلى ما لحق الخطابة في العصر الأمويّ من وضع، إذ يورد الجاحظ -مثلاً- الخطبة الوداعيّة المنسوبة لمعاوية بن أبي سفيان، ثمّ يشكّك في صحّة نسبتها له بقوله :

"إنّ هٰذا المذهب في الخطابة وتصنيف النّاس مذهب عليّ لا مذهب معاوية، وإنّ المناسبة تتطلّب خطبة غير هذه الخطبة" (٣).

كما ناقش ابن العربي في كتابه "العواصم من القواصم" جملة من النّصوص الخطابيّة المنسوبة للصّحابة -رضوان الله عليهم- المتّصلة بأحداث تاريخيّة كبرى كتنازل الحسن عن الخلافة، وعقد البيعة ليزيد، ودلّل على بطلانها(٤).

وعند الاطّلاع على الدّراسات المعاصرة، نقرأ في كثير منها عدم اطمئنان الباحثين إلى صحّة كثير من نصوص الخطابة الأمويّة، ومع ذلك يعودون للاستشهاد بها في بناء تصوّرات فنّيّة أو إطلاق أحكام نقديّة على أساسها(٥).

---

(١) ابن الطّقطقي، محمّد، الفخري في الآداب السّلطانيّة، مراجعة : محمّد عوض وعلي الجارم، دار المعارف، مصر، د.ت، ص١١٩.

(٢) ابن خلدون، المقدّمة، ص٩.

(٣) الجاحظ: أبو عثمان، البيان والتّبين، تحقيق : عبد السّلام هارون، الطّبعة الثّالثة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مكتبة الهلال، بيروت، المكتب العربيّ، الكويت، ١٩٦٨، ج٢، ص٥٩-٦٠.

(٤) ابن العربيّ: أبو بكر، العواصم من القواصم، تحقيق : محبّ الدّين الخطيب، الطّبعة الثّالثة، المطبعة السّلفيّة، القاهرة، ١٣٨٧هـ، ص١٩٧-٢١١.

(٥) من ذلك :
إبراهيم أبو الخشب، الأدب الأمويّ، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧. وإحسان النّصّ، الخطابة السّياسيّة. وأحمد الحوفي، أدب السّياسة في العصر الأمويّ، دار القلم، بيروت، د.ت. وفنّ الخطابة، الطّبعة الرّابعة، دون تاريخ أو مكان نشر. ومحمّد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبيّة في عصر بني أميّة، مكتبة القاهرة، مصر، د.ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففي حين يشكّك إحسان النّصّ بصحّة "كثير من هذه المناظرات الّتي حفظتها لنا المصادر الأدبيّة والتّاريخيّة ولا سيّما أنّ جلّها ينتهي بتغلّب بني هاشم وظهور حجّتهم على بني أميّة" [١]، ويغلّب الظّنّ "أنّ كثيراً منها قد افتعل منذ تمّت الغلبة لبني هاشم بقيام الدّولة العبّاسيّة" [٢]، ويدعو إلى "التزام الحذر والاحتراس في حديثنا عنها، وتتبّعنا للأفكار الواردة فيها، وعلى استبعاد ما يرجّح افتعاله منها" [٣]، فإنّه يمثّل للمناظرات بمناظرة مشكوك في صحّتها بين معاوية وابن عبّاس، يقول فيها معاوية: "يا بني هاشم، واللّه إنّ خيري لكم لممنوح، .... " [٤].

إنّ إطلاق الأحكام النّقديّة، واستخلاص السّمات الفنّيّة للخطابة في العصر الأمويّ فيهما مجازفة كبيرة، وبعد عن الدّقّة والموضوعيّة، لذا ينبغي على الباحثين التّثبّت أوّلاً من صحّتها.

وبعد...

فإنّ هذه الدّراسة محاولة لتعرّف خطابة العصر الأمويّ، بدراسة نصوصها دراسة نقديّة لنفي الزّائف منها وإثبات الصّحيح، وتحديد سماتها الفنّيّة في ضوء الصّحيح منها.

واللّه الموفّق

---

(١) إحسان النّصّ، الخطابة السّياسيّة، ص ١١٦.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) المرجع نفسه، ص١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الأمويّون والخلافة

- مدخل .
١ - خلافة معاوية.
٢ - البيعة ليزيد .
٣ - خلافة معاوية الثّاني .
٤ - انتقال الخلافة إلى الفرع المروانيّ .
٥ - خلافة عمر بن عبد العزيز .
٦ - ثورة يزيد بن الوليد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدخل :

ترسم المصادر لوصول الأمويّين للحكم -فيما نسبت لهم من خطب ومناظرات ووصايا- أنّهم أقاموا دولتهم بحدّ السّيف، وأنّ معاوية اغتصب الخلافة ممّن هو أحقّ بها منه، ودون رضى من أحد، وأنّه بأخذه البيعة ليزيد محايلة جعل الخلافة ملكاً عضوداً، وحرص من جاء بعده من الخلفاء - عدا معاوية الثّاني- على عدم خروج الأمر من أيديهم، وأشهروا السّيف في وجه كلّ من سوّلت له نفسه معارضتهم، أو تقويض أركان ملكهم، وراوحوا في سياستهم بين التّرغيب والتّرهيب عن طريق ولاتهم المتنفّذين سياستهم في قمع كلّ الأصوات المعارضة، حتى ثبّتوا دعائم الدّولة الأمويّة، ضاربين بأحكام الشّرع عرض الحائط.

ثمّ ترسم للتّحوّل الثّوريّ على جور الأمويّين على يد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) وكيف أنّه ردّ المظالم إلى أهلها، ووعد بحكم قائم على قواعد الشّرع وأصوله وأحكامه.

ولانكاد نعثر على نصّ خطابيّ منسوب لمن جاء بعده من الخلفاء حتّى عهد يزيد النّاقص (١٢٦-١٢٧هـ) الّذي قام بالثّورة على الوليد بن يزيد، وأعلن في الخطبة المنسوبة له أسباب ثورته، وهي أسباب شكّكت المصادر في صدقها، وإمكانيّة تحقيقها في الواقع السّياسيّ، بل ساهمت في تفتيت عضد الدّولة، وهي آخر خطبة وصلت إلينا لخليفة أمويّ حتّى سقوط الدّولة الأمويّة في عام ١٣٢ هـ.

إنّ هذه الصّورة المرسومة للخلفاء الأمويّين -من خلال النّصوص الخطابيّة المنسوبة لهم- تحمل في طيّاتها قضايا جدليّة ذات أبعاد خطرة فيما يتصل بطريقة وصولهم للحكم، وجعل الخلافة نظاماً وراثيّاً حكراً عليهم دون غيرهم، ولا بدّ من الوقوف عليها ومناقشتها للتّثبّت من صحّتها قبل إطلاق الأحكام وبناء التّصورات على ضوئها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- خلافة معاوية :

نقل ابن عبد ربّه (ت ٣٢٨هـ) عن القحذميّ أوّل خطبة منسوبة لمعاوية، بعد أن خلص له الأمر بالمدينة في عام الجماعة (٤١هـ) جاء فيها :

"أمّا بعد، فإنّي واللّه ماوليتها بمحبّة علمتها منكم ولا مسرّة بولايتي، ولكنّي جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها مثل ثنيّات عثمان، فأبت عليّ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإنّي خير لكم ولاية. واللّه لا أحمل السّيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كلّه فاقبلوا منّي بعضه، فإن أتاكم منّي خير فاقبلوه، فإنّ السّيل إذا زاد عنّى وإذا قلّ أغنى، وإيّاكم والفتنة فإنّها تفسد المعيشة، وتكدّر النّعمة" [١].

والقحذميّ هذا هو الوليد بن هشام، وثّقه الذّهبيّ في ميزان الاعتدال[٢].

وأمّا مناسبة الخطبة فإنّ ابن كثير يخالف ما ذهب إليه صاحب "العقد" من أنّها كانت في عام الجماعة، بل رجّح أن يكون قد قالها في حجّه عام أربعة وأربعين أو خمسين للهجرة[٣].

ولو تأمّلنا النّصّ مليّاً لوجدنا معاوية يذكر أمراً لا بدّ من الوقوف عليه وهو قوله :

"واللّه ماوليتها بمحبّة علمتها منكم ولا مسرّة بولايتي، ولكنّي جالدتكم بسيفي هذا مجالدة".

---

(١) ابن عبد ربّه : أحمد بن محمّد، العقد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، د.ت، حـ ٤، ص١٤٧

قابل بـ :

ابن كثير : أبو الفداء، البداية والنّهاية، تحقيق: أحمد عبد الوهّاب، الطّبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢، حـ٨، ص١٣٢.

(٢) الذّهبيّ: شمس الدين، ميزان الاعتدال، تحقيق : علي البجّاوي، دار المعرفة، بيروت، د.ت، حـ ٤، ص ٣٤٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه ليست الإشارة الوحيدة إلى تولّيه الخلافة قتالاً وقهراً، إذ ينسب ابن أبي الحديد خطبة لمعاوية في الكوفة في العام نفسه قال فيها:

"ولكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم له كارهون" (١).

إنّ هذا الإعلان -على لسان معاوية- يثير الاستغراب من وجوه :

أوّلها : أنّه يتناقض والأحداث المصاحبة له الّتي ذكرتها تلك المصادر نفسها والّتي روت هذه الخطبة. ٤٥٩٦٠٨

ثانيها : أنّنا لا نعثر على رواية لخطبة المدينة قبل القرن الرّابع الهجريّ، وهو القرن الّذي نشطت فيه حركة الشّعوبيّة نشاطاً ملحوظاً، ولا حتّى عند الطّبريّ (ت ٣١٠هـ) المعاصر لابن عبد ربّه مع ما عرف عنه من شديد اعتنائه بذكر ما يتّصل بالأحداث من خطب ورسائل وأشعار.

ثالثها : أنّ خطبته بالكوفة وردت عند أخباريّ سابق هو اليعقوبيّ (ت ٢٨٤ هـ) بنصّ مغاير تماماً جاء فيها قول معاوية :

"أمّا بعد ذلكم، فإنّه لم تختلف أمّة في نبيّها إلا غلب باطلها حقّها، إلّا ما كان من هذه الأمّة فإنّ حقّها غلب باطلها" (٢).

إنّ اضطراب الرّوايات على هذا النّحو، وتأخّرها زمانيّاً وروايتها من مصادر شيعيّة أمور تجعلنا نشكّ فيها.

ولعلّ ما يعزّز الشّكّ فيها أنّ هذه المصادر أجمعت على أنّ الحسن تنازل لمعاوية عن الخلافة طواعية، حقناً للدّماء ودفعاً للفتنة(٣)، ولم يرغمه أحد على ذلك، وردّ على احتجاج أصحابه معلّلاً تنازله : "ألا إنّ ما تكرهون في الجماعة خير

---

(١) ابن أبي الحديد: عزّ الدّين أبو حامد، شرح نهج البلاغة، تحقيق : محمّد أبو الفضل، الطّبعة الأولى، عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٩، حـ ٤، ص٦٨٦.

قابل بـ :

ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص١٢٥.

(٢) اليعقوبيّ : أحمد بن يعقوب، تاريخ اليعقوبيّ، دار صادر، بيروت، د.ت، حـ٢، ص٢١٦.

(٣) البسويّ : أبو يوسف، المعرفة والتّاريخ، تحقيق: أكرم العمريّ، الطّبعة الثّانية، بيروت، ١٩٨١، حـ٣، ص٣١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكم مما تحبّون في الفرقة، ألا وإنّي ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري ولا تردّوا عليّ رأيي" (١).

أمّا ما ذكره اليعقوبيّ من أمر معاوية مع قيس بن سعد بن عبادة وسعد بن مالك بعد ذكره لنصّ الخطبة تعاقباً والإشارة إلى رأييهما في خلافة معاوية ففيه نزعة قبليّة واضحة(٢)، لأنّه ثبت عن رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- أنّ الخلافة في قريش ما أقاموا الدّين(٣).

كما ناقش ابن العربيّ حقيقة الخلاف بين الحسن ومعاوية -رضي اللّه عنهما- وأثبت صحة البيعة للأخير، وطعن في الرّوايات الّتي حاولت تصوير معاوية على أنّه غصب الحسن حقّه في الخلافة(٤).

كما أنّ هذا التّصريح المستفزّ لمعاوية يناقض ما أورده ابن أبي شيبة في مصنّفه، إذ يروي عن هذيل بن شرحبيل(٥) قول معاوية: "أيّها النّاس إنّكم فيما بايعتموني طائعين، ولوبايعتم عبداً حبشيّاً مجدّعاً لجنت حتّى أبايعه معكم" (٦).

ولهذا يجد الباحث نفسه متوقّفاً في قبول مثل هذه الخطبة.

كما ترسم لنا المصادر من خلال الخطبة السّالفة الّتي أوردها صاحب "العقد"، وغيرها من الخطب، سياسة معاوية في ترسيخ حكمه، وكسب تأييد العامّة والخاصّة، وخنق الأصوات المعارضة، إذ يؤكّد معاوية -فيما نقرأ- أنّ الخلافة هبة من اللّه تعالى، وقضاء لا يمكن ردّه حين قال: "ولكن قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني اللّه ذلك وأنتم له كارهون" (٧).

وعلى النّاس الاستسلام له وعدم محاربته "فإن لم تجدوني أقوم بحقكم كلّه

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١٦، ص٢١١.

(٢) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢١٦-٢١٧.

(٣) البخاريّ، أبو عبد الله، صحيح البخاريّ، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، حـ٤، ص٥١٢، حديث رقم ٣٥٠٠.

(٤) ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص١٩٨-٢١١.

(٥) هذيل بن شرحبيل : يعد من الثّقات.
الذّهبيّ، الكاشف في من له رواية في الكتب السّتّة، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٣، حـ٣، ص١٩٤.

(٦) ابن أبي شيبة : أبو بكر، المصنّف في الأحاديث والآثار، إشراف : سمير طه المجذوب، الطّبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩، حـ ١١، ص٩٣.

(٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٤، ص٦٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاقبلوا منّي بعضه.. فإن أتاكم منّي خير فاقبلوه فإنّ السّيل إذا زاد عنّى، وإذا قلّ أغنى" (١).

كما استند إلى فضل الأسبقيّة، ففي الأنساب عن سعيد بن عامر الخزرجيّ عن عبادة نسي، قال معاوية :

"... وإنّه لايأتيكم بعدي إلا من هو شرّ منّي، كما لم يأتكم قبلي إلّا من كان خيراً منّي" (٢).

ويردّ المعنى نفسه عند ابن عبد ربّه في خطبة أخرى منسوبة لمعاوية في المدينة :

"فاقبلونا بما فينا، فإنّ ما وراءنا شرّ لكم، وإنّ معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت، ولو قد أتى فالرّتق خير من الفتق، وفي كلّ بلاغ، ولامقام على الرّزيّة" (٣).

إنّ هذا النّمط من الخطب الّتي نسبت لمعاوية تظهره قدريّاً -بالمعنى العقائديّ للقضاء والقدر- حتّى قال صاحب المغني : "معاوية أوّل من قال بالجبر" (٤).

وقد غالى رضوان السّيّد حين جعل معاوية قدريّاً -بالمعنى العقديّ للقضاء والقدر-(٥) لأنّه كان يكرّر في كلامه وخطبه على المنابر بالشّام والمدينة أثراً يرفعه إلى رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- في صيغة دعاء نصّه: "اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ" (٦). فهذا الحديث

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص٦٨٦.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف، ق٤، حـ١، ص٤٥.
انظر أيضاً : القالي: أبو عليّ، الأمالي، الطّبعة الثّالثة، مطبعة السّعادة، مصر، ١٩٥٣، حـ٢، ص١٣٥.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٤٨.

(٤) القاضي الهمذاني : أبو الحسين عبد الجبّار، المغني في أبواب التّوحيد والعدل، تحقيق : محمّد مصطفى حلمي وآخرون، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، القاهرة، ١٩٥٩، حـ٨، ص٤.

(٥) رضوان السّيّد، المؤتمر الدّوليّ الرّابع لتاريخ بلاد الشّام (بلاد الشّام في العهد الأمويّ)، الخلافة والملك : دراسة في الرّؤية الأمويّة للسّلطة، النّدوة الثّالثة، الجامعة الأردنيّة، عمّان، ١٩٨٨، القسم العربيّ، المجلد ١، ص١٠٥.

(٦) ابن حنبل : أحمد، المسند، تحقيق : عبد اللّه محمّد الدّرويش، الطّبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩١، حـ٦، ص١٥، حديث رقم ١٦٨٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعبّر بوضوح عن ركن من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر خيره وشرّه، ولا يحتمل التّأويل العقديّ للقضاء والقدر.

كما أنّ اتّهام معاوية بالجبريّة -لتعزيز ملكه- يخالف ما هو معروف عن نشأة الفرق الإسلاميّة، فالجبريّة طائفة لم تعرف إلّا في العصر العباسيّ، أمّا الفكر الإسلاميّ في مراحله المبكّرة فلم يكن يخرج عن المعنى العامّ للقضاء والقدر[١].

وتذكر المصادر أنّ معاوية سعى لتوطيد حكمه بإضفاء القدسيّة على الخلافة الإسلاميّة؛ إذ يورد البلاذري في أنسابه عن محمّد بن سعد عن الواقديّ عن يزيد بن عيّاض قال: قال معاوية : "الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما أخذته فلي، وما تركته للنّاس فبالفضل منّي" [٢].

وجعل رواة الأخبار ولاة معاوية يترسّمون نهجه في إضفاء صفة التّقديس والتّعظيم على الخلافة، ففي الخطبة البتراء المنسوبة لزياد بن أبي سفيان، يعلن والي معاوية على البصرة البيان التّالي :

"أيّها النّاس، إنّا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الّذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الّذي خوّلنا، فلنا عليكم السّمع والطّاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم ... فادعوا بالصّلاح لأئمّتكم، فإنّهم ساستكم المؤدّبون لكم، وكهفكم الّذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم" [٣].

---

(١) للمزيد عن نشأة الجبريّة انظر :
ابن قيّم الجوزيّة : أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكم والتّعليل، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧.
وعبد الرّزّاق محمّد أسود، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، الطّبعة الأولى، دار المسيرة والدّار العربيّة للموسوعات، بيروت، ١٩٨٠، مج ٢، ص١٦٩-١٨٣.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤، حـ١، ص٢٠.

(٣) الطّبريّ: محمّد بن جرير، تاريخ الرّسل والملوك،تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطّبعة الرّابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، حـ٥، ص٢١٧-٢٢١ والجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٦١-٦٥ وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١٦، ص٢٠٠-٢٠٣ والقلقشنديّ : أحمد بن عليّ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمّد حسين شمس الدّين، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧، جـ ١، ص ٢٦٠-٢٦١.
وأورد القالي في النّوادر نصّاً مغايراً مغايرة تامّة لهذا النّصّ.
القالي : النّوادر، الطّبعة الثّانية، دار الحديث للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ١٩٨٤، ص١٨٥-١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى لسان الضّحّاك يأتي وصف الأمويّين بأئمّة الهدى : " بلغني أنّ رجالاً منكم ضلالاً يشتمون أئمّة الهدى ويعيبون أسلافنا الصّالحين" (١).

إنّ ما جاء في هذه الخطب -وغيرها- من مصطلحات مثل : سلطان اللّه، وكهف الأمّة وأئمّة الهدى، لم يكن لها وجود في العصر الأمويّ، أما لقب (خليفة اللّه) الّذي ورد على لسان معاوية، فإنّ جدلاً كبيراً ثار حول بدايته ومدلوله، فقد ورد في المصادر أنّه بعد وفاة الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- خاطب أحد المسلمين أبا بكر بلقب خليفة اللّه، فردّ أبو بكر قائلاً : "لست خليفة اللّه، ولكنّي خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم" (٢).

ووقف عمر بن عبد العزيز موقفاً مشابهاً للخليفة الأوّل فردّ على من ناداه بخليفة اللّه: "ويلك لقد تناولت متناولاً بعيداً. إنّ أمّي سمّتني عمر فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت، ثم كبرت فكنيت أبا حفص فلو دعوتني به قبلت، ثمّ ولّيتموني أموركم فسمّيتموني أمير المؤمنين فلو دعوتني به كفاك" (٣).

إنّ هذين الموقفين الواضحين ما كانا ليشجّعا النّاس على تداول هذا اللقب لا في العصر الراشديّ ولا في العصر الأمويّ، وكأنّهم شعروا بما يتضمّن هذا اللقب من معنى الاتّصال بين الخليفة وبين اللّه دون وساطة أحد، وأنّ الخليفة يستمدّ قوّته الدّينيّة من القوّة الإلهيّة، وهو تفكير غريب علي العصر الأمويّ في فهم الخلافة الإسلاميّة.

وقد ذهب الباحث رضوان السّيّد إلى أنّ هذا اللقب عرف في زمن عبد الملك ابن مروان ومعناه المستخلف من اللّه أو المعين من اللّه. وفرّق بينه وبين لقب أمير المؤمنين، إذ يري أنّ الأوّل يتّصل بالدّعوة العالميّة للإسلام، أمّا الثّاني فيتعلّق بمخاطبة المسلمين للخليفة في شؤونهم الداخليّة، وبيّن تصوّره هذا على

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٢، ص١٢١.

(٢) ابن خلدون، المقدّمة، ص١٦٥. والقلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ٥، ص٤١٨.

(٣) القلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ٥، ص٤١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نقد سكّ في عهد عبد الملك يصوّر وجهه الأوّل الخليفة واضعاً يده على مقبض سيفه، وكتب أسفله (خليفة اللّه)، وعلى الوجه الآخر لقب (أمير المؤمنين) [١].

وهذا النّقد مزيّف لأسباب هي :

١- أنّ فلسفة الفنّ الإسلاميّ حتى مرحلة متأخّرة من العصر العباسيّ قامت على رفض فكرة التّجسيم، فلا يعقل أن توضع صورة الخليفة على النّقد.

٢- أنّ معظم المصادر جزمت بأنّ عبد الملك كتب القرآن على السّكّة الإسلاميّة[٢]، يؤيّدها في ذلك ما عثر عليه من نقد أمويّ حديثاً مكتوب عليه ﴿قل هو اللّه أحد﴾ [٣].

٣- أنّ هذا النّقد لم يعرف مكان ضربه ولا تاريخه ممّا يرجّح الشّكّ في تزويره[٤].

ويبدو لنا من هذا أنّ الشّعوبيّين لم يوفّروا حتّى النّقود وسيلة للهجوم على الخلافة الأمويّة وحتّى العبّاسيّة في محاولة النّيل من قدسيّتها [٥].

ويذكر ابن خلدون حكم الشّرع في تسمية خليفة اللّه إذ "أجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامّة الّتي للآدميّين في قوله تعالى ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾[٦] وقوله ﴿وجعلكم خلائف الأرض﴾[٧] ومنع الجمهور منه، لأنّ معنى الآية ليس عليه"[٨].

---

(١) رضوان السّيّد، وقائع المؤتمر الدّوليّ الرّابع لتاريخ بلاد الشّام (بلاد الشّام في العهد الأمويّ)، الخلافة والملك : دراسة في الرّؤية الأمويّة للسّلطة، ص٩٦-١٤٢.

(٢) من ذلك :
ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٦٨، مج٣، ق١، ص١٠٠-١٠١.

(٣) قمت بالاطّلاع على نموذج لهذا النّقد في متحف الآثار بمحافظة مادبا.

(٤) ناصر النّقشبنديّ، الدّرهم الإسلاميّ، مطبوعات المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد، ١٩٦٩، جـ١، ص٥٨.

(٥) أشار الباحث محمّد باقر الحسينيّ إلى محاولة الشّعوبيّين النّيل من قدسيّة الخلافة العبّاسيّة عن طريق سكّ نقود تظهر بعض الخلفاء -كالمقتدر باللّه والطّائع للّه في حال طرب ولهو وسكر، كما أسقط من عمله نقديّة ضربت سنة (٢٠٠ هـ) اسم الخليفة الشرعيّ المأمون، لإضعاف شخصيّة الخليفة والنّيل من شرعيّة الخلافة.
انظر :
محمّد باقر الحسينيّ، وقائع النّدوة القوميّة لمواجهة الدّسّ الشّعوبيّ، النّقود كوسيلة إعلاميّة للهجمات الشّعوبيّة على الخلافة العبّاسيّة، جـ٢، ص ٢٧٠- ٢٧٥.

(٦) البقرة/٣٠.

(٧) الأنعام/١٦٥.

(٨) ابن خلدون، المقدّمة، ص١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رسالة على التنقد المزور لكتاب عليه لقب « خليفة الله »

عن :

الدرهم الإسلامي - ناصر النقشبندي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا ابن تيمية فقد غلّط القائلين -كابن عربيّ- أنّ "الخليفة" هو الخليفة عن اللّه، مثل نائب اللّه[١]، ورد قائلاً :

"واللّه لا يجوز له خليفة، ولهذا لمّا قالوا لأبي بكر: يا خليفة اللّه! قال:لست خليفة اللّه، ولكنّي خليفة رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، حسبي ذلك. بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره. قال النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- : "اللّهم أنت الصّاحب في السّفر، والخليفة في الأهل، اللّهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا" [٢]، وذلك لأنّ اللّه حيّ، شهيد، مهيمن، قيّوم، رقيب، حفيظ، غنيّ عن العالمين، ليس له شريك، ولا ظهير، ولا يشفع عنده إلا بإذنه، والخليفة إنّما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة، ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف"[٣].

وأمّا لقب (الإمام) فيذكر القلقشنديّ أنّه أطلق لأوّل مرّة على الخليفة العباسيّ "إبراهيم بن المهديّ"[٤].

وتذكر لنا المصادر المتعصّبة على الأمويّين أنّهم اتّخذوا مقتل عثمان ذريعة لشتم عليّ بن أبي طالب، انتقاصاً من شأنه، ودعماً لأحقّيتهم في الخلافة؛ إذ يروي ابن أبي الحديد أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة، وطلب من عمّاله أن يقولوا ذلك :

"اللّهم إنّ أبا تراب ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذّبه عذاباً أليماً"[٥].

وفي الطّبريّ أنّ معاوية لمّا ولي المغيرة بن شعبة الكوفة في عام ٤١هـ دعاه وأوصاه :

"ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تتحتّم عن شتم عليّ وذمّه، والتّرحّم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب عليّ، والإقصاء لهم، وترك الاستماع

---

(١) ابن تيمية، الخلافة والملك، تحقيق : حمّاد سلامة، الطّبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردنّ، ١٩٨٨، ص٥٢.

(٢) ابن حنبل، المسند، حـ٧، ص٣٩٧، حديث رقم ٢٠٨٠٧.

(٣) ابن تيمية، الخلافة والملك، ص٥٣.

(٤) القلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ٨، ص٦.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١، ص٧٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منهم، وبإطراء شيعة عثمان -رضوان الله عليهم- والإدناء لهم، والاستماع منهم" [١].

ويذكر الطّبريّ أنّ المغيرة طوال إقامته بالكوفة لم يترك لعن قتلة عثمان والنّيل من عليّ بن أبي طالب[٢].

ولا يكاد يخلو نصّ خطابيّ أمويّ، ولا سيّما في عهد معاوية، من القذف والشّتم والتّشهير بعليّ وسائر بني هاشم، حتّى غالى بعض الأخباريّين بتعميق جذور الخلاف بين الأمويّين والهاشميّين وإرجاعها إلى العصر الجاهليّ[٣].

وفي مقابل هذه الرّوايات السّلبيّة فإنّ بعض المصادر ترسم صورة مشرقة لعلاقة بني هاشم ببني أميّة ورضاهم عن إمرة معاوية، من ذلك قول عليّ بن أبي طالب :

"لا تكرهوا إمرة معاوية، فإنّكم لو فقدتموه لرأيتم الرّؤوس تندر عن كواهلها كأنّها الحنظل"[٤]. وقوله عن الأمويّين إنّهم نجزة[٥].

وقيل لابن عبّاس :

هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنّه ما أوتر إلّا بواحدة؟ قال: إنّه فقيه[٦].

ولعلّ ما يضعف الرّوايات الّتي تصوّر حدّة البغض والعداوة بين الجانبين ما أوردته كتب الأنساب عن المصاهرات بين بني أميّة وبني هاشم[٧]، فهي تعود

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٢٥٣-٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه، حـ٥، ص٢٥٤.

(٣) انظر مثلاً :
المقريزي : تقيّ الدّين أبو محمّد، النّزاع والتّخاصم بين بني أميّة وبني هاشم، تصحيح : محمود عرنوس، مكتبة الأهرام، القاهرة، ١٩٣٧.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١٦، ص٢٦.

(٥) الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث، تحقيق:علي محمّد البجّاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، الطّبعة الثّانية، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، مصر، د.ت، حـ٥ ، ص٧.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، حـ٤، ص٥٩١، حديث رقم ٣٧٦٥.
والعسقلانيّ : ابن حجر، أسد الغابة في معرفة الصّحابة، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٢٨٦هـ، حـ٥، ص٣٨٧.

(٧) انظر مثلاً :
ابن سعد : محمّد، الطّبقات الكبرى، دار صادر ، بيروت، د.ت.، حـ١، ص٦١-٧٥، وابن قتيبة، المعارف، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧، ص٨٦، وابن حزم: أبو محمّد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق : عبد السّلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٥-١١٥، وإحسان ظهير، الشّيعة وآل البيت، ص١٤٠-١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى ما قبل الإسلام، ثم تعزّزت بزواج النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- بأمّ المؤمنين رملة بنت أبي سفيان -أخت معاوية- واستمرّت تلك المصاهرات في العصر الأمويّ[١]، وقد كتب علي المرتضى إلى معاوية يقول : "لم يمنعنا قديم عزّنا، ولا عادى طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء" [٢].

وذكر ابن العربي أنّه كان مكتوباً على باب بغداد -في العصر العباسيّ المتشيّع- معاوية خال المؤمنين[٣].

فهل يعقل أن تقوم مصاهرة متكرّرة بين فئتين متناحرتين ؟

ثمّ إنّ ما ترويه لنا المصادر من خطب ومناظرات سجال لم تعرض أصلاً لمسألة الخلافة بصورة واضحة، ولم تكن تتجاوز تأليب المثالب والطّعن في كل من الأمويّين والهاشميّين معاً، ولم تكن -كما يتوهّم البعض- تنصر فئة على فئة[٤].

إنّ ما تضمّنته تلك الخطب والوصايا والمناظرات من قذف وسبّ أزرى من أن يصدر عن صحابة رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- وهو ما يغفل عنه بعض الباحثين حين يتصدّون للكتابة في تلك الحقبة من التّاريخ الإسلاميّ، وفي ذلك يقول ابن حجر :

"ومّما يوجب أيضاً الإمساك عمّا شجر أي وقع بينهم من الاختلاف والاضطراب صفحاً عن أخبار المؤرّخين سيّما جهلة الرّافضة وضلال الشّيعة والمبتدعين القادحين في أحد منهم، فقد قال -صلّى اللّه عليه وسلّم- : "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا" [٥]والواجب أيضاً على كلّ من سمع شيئاً من ذلك أن يتثبّت فيه

---

(١) من ذلك :
زواج زيد بن عمرو بن عثمان من سكينة بنت الحسين (ابن قتيبة، المعارف، ص٩٤)، وفاطمة بنت الحسين كانت زوجة لحفيد عثمان الآخر محمّد بن عبد الله بن عمرو (ابن قتيبة، المعارف، ص٩٤) وكانت أم القاسم بنت الحسن المثنّى عند مروان بن أبان بن عثمان (ابن حزم، الجمهرة، ص٤٢).

(٢) الموسويّ : أبو الحسن، نهج البلاغة للإمام عليّ بن أبي طالب، تحقيق : صبحي الصّالح، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ١٩٦٧، ص٣٨٦-٣٨٧.

(٣) ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص٢١٣.

(٤) يعرض الفصل الثاني من هذه الدّراسة لهذه القضيّة بشيء من التّفصيل.

(٥) الطّبرانيّ : أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق : حمدي عبد المجيد، الطّبعة الثّانية، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ت.، جـ٢، ص٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا ينسبه إلى أحد منهم بمجرّد رؤيته في كتاب أو سماعه من شخص، بل لا بدّ أن يبحث عنه حتّى يصحّ عنده نسبته إلى أحدهم، فحينئذ الواجب أن يلتمس لهم أحسن التّأويلات وأصوب المخارج إذ هم أهل لذلك كما هو مشهور في مناقبهم ومعدود في آثارهم" (١).

إنّ معاوية أجلّ من أن يطعن بعليّ أو بصحابيّ آخر، وهو الّذي دعا له الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- بقوله :

"اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهد به" (٢). وتشهد خطبه على فقهه، فقد روي أنّه قام خطيباً بالمدينة في قدمة قدمها، فخطبهم يوم عاشوراء، فقال :

"أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- يقول : لهذا اليوم؛ يوم عاشوراء، ولم يكتب عليكم صيامه، وأنا صائم، فمن أحب منكم أن يصوم فليصم، ومن أحب منكم أن يفطر فليفطر" (٣).

وقد شهد له أبو الدّرداء بقوله : " ما رأيت أحداً بعد رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- أشبه صلاة برسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- من أميركم هذا -يعني معاوية-" (٤).

ويشهد على تقدير معاوية لعليّ -رضي اللّه عنهما- ما ذكره صاحب "الرّياض النّضرة" أنّ رجلاً سأل معاوية عن مسألة، فأحاله إلى علي، فقال الرّجل لمعاوية : جوابك أحبّ إليّ من جواب عليّ. فقال معاوية : بئس ما قلت. لقد كرهت رجلاً كان رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- يغزره بالعلم غزراً. وكان عمر إذا أشكل عليه شيء أخذه منه(٥). وهل يعقل أن يأمر معاوية بشتم عليّ، ثمّ يمسك بيد الحسن

---

(١) ابن حجر: أحمد بن حجر الهيتميّ المكيّ، الصّواعق المحرقة في الرّدّ على أهل البدع والزّندقة، تقديم : عبد الوهّاب عبد اللطيف، الطّبعة الثّانية، مكتبة القاهرة، ج.م.ع، ١٩٦٥، ص٢١٦.

(٢) ابن حنبل، المسند، حـ٦، ص٢٦٦، حديث رقم ١٧٩١٥.

(٣) ابن أنس : مالك، الموطّأ (برواية محمّد بن الحسن الشّيبانيّ)، تحقيق : تقيّ الدّين النّدويّ، الطّبعة الأولى، دار السّنّة والسّيرة، بومباي، ودار القلم، دمشق، ١٩٩٢م، حـ٢، ص٢٢٠-٢٢١، حديث رقم ٣٧٣. والبخاري، صحيح البخاري، حـ٢، ص٦١٦، حديث رقم ٣٠٠٢، وابن أبي شيبة، المصنّف، حـ٣، ص٥٧.

(٤) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٣٣٥.

(٥) المحبّ الطّبريّ: أبو جعفر أحمد، الرّياض النّضرة في مناقب العشرة، تحقيق : محمّد مصطفى، مكتبة الجنديّ، القاهرة، ١٩٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسأل جلساءه: "من أكرم النّاس أباً وأمّاً وجدّاً وجدّة؟ فقالوا: أمير المؤمنين أعلم. فأخذ بيد الحسن وقال: هذا أبوه عليّ بن أبي طالب، وأمّه فاطمة بنت محمّد، وجدّه رسول اللّه، وجدّته خديجة" [١]، ثمّ إنّ "الّذي يحمل الضّغينة عادة هو المغلوب على أمره فإنّه يتحيّن الفرص لينفّس عن نفسه، أو يثير الخواطر ضدّ الغالبين الّذين اغتصبوا الأمر من أصحابه، أمّا أن يتولّى الغالب سبّ المغلوب على المنابرفلا نظنّه -أبداً- إلّا موضوعاً على بني أميّة في عهد العبّاسيّين، لغرض التّشهير ببني أميّة في معاملة عليّ وأبنائه، حتّى يعلم العلويّون أن العباسيّين لا يزالون يكرمونهم، ويحفظون له حقّ القرابة، لأنّهم لم يصنعوا بهم ما صنع الأمويّون بأسلافهم" [٢].

وأخيراً فإنّ بيعة معاوية بيعة شرعيّة صحيحة، استوفت شروطها[٣]، ولا يجوز الخروج عليه، وأمّا القول إنّ هناك من هو أحق بها منه، فقد جوّز جمهور العلماء إمامة المفضول بوجود الأفضل[٤]، وإن كنّا لا نعلم حقيقة ما عيار الأفضليّة في نظر الفقهاء ؟

٢- البيعة ليزيد *:

تفنّن الرّواة في اختراع القصص حول بيعة يزيد، ولفّقوا الخطب والأشعار والأقوال على لسان معاوية وأعوانه من الّذين كرّسهم للدّعاية ليزيد، وأخذ البيعة له، وعلى لسان المعارضين من أبناء الصّحابة مثل: ابن عمر والحسين وابن

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٥، ص١٠٧.

(٢) إبراهيم شعوط، أباطيل يجب أن تمحى من التّاريخ، الطّبعة السّادسة، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٨، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٣) انظر في الشّروط وتفصيلاتها :
الماورديّ : أبو الحسن عليّ بن محمّد، الأحكام السّلطانيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٨، ص٦. وابن خلدون، المقدّمة، ص١٦٥-١٧٠. والنّويريّ : أحمد بن عبد الوهّاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٦٣، حـ٦، ص١.

(٤) انظر تفصيل ذلك في :
الماورديّ، الأحكام السلطانيّة، ص٧-١٠.

*. اطّلعت عند الكتابة في هذا الموضوع على :
جاسر أبو صفيّة، بيعة يزيد بن معاوية، مقال غير منشور.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزّبير وابن عبّاس وغيرهم، حتّى إنّ أحمد زكي صفوت جمع تسعة وعشرين نصّاً خطابيّاً لمؤيّدي يزيد في البيعة ومخالفيه[١]، كما روى صاحب كتاب "الإمامة والسّياسة" نصوصاً خطابيّة كثيرة كلّها مزوّرة حول بيعة يزيد[٢].

وأورد القاضي أبو بكر بن العربيّ في كتابه "العواصم من القواصم" [٣] ثلاث روايات ملفّقة مرويّة عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه وعن غيره أوردها بنصوصها ثمّ فنّدها، وردّ عليها، وأثبت كذبها، وتناقضها، بروايات من الكتب الصّحيحة.

وهذه الأخبار عن وهب وغيره تدور كلّها حول اعتراض أبناء كبار الصّحابة على بيعة يزيد، ومحاولة معاوية أخذ البيعة له باللين أوّلاً، ثمّ بالقوّة حيث لم ينفع اللين.

تقول الرّواية الأولى عن وهب :

لمّا أجمع معاوية أن يبايع لابنه يزيد حجّ، فقدم مكّة في نحو ألف رجل. فلمّا دنا من المدينة خرج ابن عمر وابن الزّبير وعبد الرّحمن بن أبي بكر، فلمّا قدم معاوية المدينة،صعد المنبر،فحمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ ذكر ابنه يزيد فقال : من أحقّ بهذا الأمر منه. ثمّ ارتحل فقدم مكّة فقضى طوافه، ودخل منزله، فبعث إلى ابن عمر، فتشهّد وقال: "أمّا بعد، يا ابن عمر، فقد كنت تحدّثني أنّك لا تحبّ أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك أمير، وإنّي أحذّرك أن تشقّ عصا المسلمين، وأن تسعى في فساد ذات بينهم". فلمّا سكت، تكلّم ابن عمر فحمد اللّه، وأثنى عليه، ثمّ قال :

"أمّا بعد، فإنّه قد كانت قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك بخير منهم، فلم يروا في أبنائهم ما رأيت في ابنك، ولكنّهم اختاروا للمسلمين حيث علموا

---

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزّاهرة، الطّبعة الثّانية، مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، القاهرة، ١٩٦٢، حـ٢، ص٢٣٧-٢٦٢.

(٢) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، تحقيق:سعيد صالح خليل، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنيّة، عمّان، الأردن، ١٩٧٨، ص١٧٣-١٨١.

(٣) ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص٢١٥-٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخيار، وإنّك تحذّرني أن أشقّ عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل، وإنّما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فإنّما أنا واحد منهم". فخرج ابن عمر.

وأرسل إلى عبد الرّحمن بن أبي بكر فتشهّد، ثمّ أخذ في الكلام، فقطع عليه كلامه، فقال : "إنّك والله لوددت أنّا وكّلناك في أمر ابنك إلى الله، وإنّا والله لا نفعل. والله لتردّنّ هذا الأمر شورى في المسلمين أو لنقرّنّها عليك جذعة". ثمّ وثب فقام، فقال معاوية: اللهم اكففه بما شئت، ثمّ قال : على رسلك أيّها الرجل، لا تشرفن لأهل الشّام، فإنّي أخاف أن يسبقوني بنفسك حتّى أخبر العشيّة أنّك قد بايعت، ثمّ كن بعد ذلك على ما بدا لك من أمرك".

ثمّ أرسل إلى ابن الزّبير، فقال : يا ابن الزّبير، إنّما أنت ثعلب روّاغ كلّما خرج من جحر دخل في آخر، وإنّك عمدت إلى هذين الرّجلين فنفخت في مناخرهما. فقال ابن الزّبير: إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها، وهلمّ ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعت ابنك معك، لأيّكما نسمع؟ لأيّكما نطيع؟ لا تجتمع البيعة لكما أبداً. ثمّ قام.

فخرج معاوية، فصعد المنبر، فقال: إنّا وجدنا أحاديث النّاس ذات عوار، زعموا أنّ ابن عمر وابن الزّبير وابن أبي بكر لم يبايعوا ليزيد، قد سمعوا وأطاعوا وبايعوا له .

فقال أهل الشّام : لا والله لا نرضى حتّى يبايعوا على رؤوس الأشهاد، وإلّا ضربنا أعناقهم[1].

وهذه الرّواية تتعارض مع الرّوايتين الأخرتين وهما عن راوٍ واحد، ممّا يدلّ على أنّ هذه الرّوايات مصنوعة من قبل أناس لم يروا وهب بن جرير ولا أخذوا عنه. وممّا لا يقبل في هذا النّصّ إظهار معاوية على أنّه كاذب، إذ يخبر أهل الشّام ببيعة الثّلاثة، وهم لم يبايعوا، فهو أجلّ من أن يكذب.

وهذه الرّوايات تتعارض مع الرّوايات الأخرى حول بيعة يزيد، فالطّبريّ

(١) ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص٢١٥-٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-مثلاً- يذكر أنّ المغيرة بن شعبة هو صاحب فكرة أخذ البيعة ليزيد[١].

ثم يورد الطّبريّ رواية عن رجل (بنخلة) حول معارضة الحسين وابن الزّبير وابن أبي بكر وابن عمر لبيعة يزيد[٢]، ولا ندري من هو هذا الّذي هو (بنخلة) حتّى نثق بأقواله.

هذا إلى جانب تلك الأخبار المختلفة في البيعة الّتي رواها الدّينوريّ في "الأخبار الطّوال" [٣]، واليعقوبيّ في تاريخه[٤]، والمسعوديّ في "مروج الذّهب" [٥]، وهي كلّها تكذّب بعضها بعضاً.

وممّا يلفت الانتباه في الرّوايات المشار إليها التّركيز على معارضة أبناء الصّحابة المعروفين كابن عمر وابن الزّبير وابن أبي بكر، وأحياناً نجد إشارة إلى الحسين بن عليّ، ولا سيّما بعد موت معاوية.

ولم كلّ هذا التّركيز على هؤلاء مع أنّهم -إن لم يبايعوا- فلا ضرر في ذلك، ولا يجعل بيعة يزيد غير شرعيّة، فأبو بكر لم يبايعه سعد بن عبادة، ومع هذا انعقدت البيعة له، وكذلك انعقدت بيعة يزيد شرعاً، لأنّ البيعة تنعقد بواحد وقيل باثنين على رأي الفقهاء[٦].

ومع ذلك فقد ثبت أنّ عبد الله بن عمر قد بايع يزيد في عهد أبيه دون إكراه، بل عن طواعية منه، ولو رأى في يزيد ما لا يؤهله للخلافة لما بايعه، وهو المعروف بمواقفه الجريئة، ولكنّه أراد أن يكون الأمر شورى -وفق اجتهاده- ولم يقدح في يزيد وأهليّته للخلافة بدليل تلك النّصوص، حتّى مع تحريفها وتزييفها- ولو بايع مكرهاً لنقض البيعة بعد معاوية، ولما وقف موقف الحازم ممّن نقض

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه، جـ٥، ص٣٠٣ وما بعدها.

(٣) الدّينوريّ : أبو حنيفة، الأخبار الطّوال، تحقيق : عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٦٠، ص٢٢٥-٢٢٦.

(٤) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢١٩-٢٢٤.

(٥) المسعوديّ : عليّ بن الحسين، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تحقيق : محمد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٧٨، حـ٣، ص٣٦-٣٨.

(٦) انظر :
ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البيعة كما سنرى.

ويؤيد ذلك ما أورده البخاري عن ابن عمر قال : "دخلت على حفصة ونوساتها تنطف. قلت : قد كان من أمر النّاس ما ترين، فلم يجعل لي من الأمر شيء، قالت: الحق، فإنّهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة" [١].

فهذه حفصة بنت عمر بن الخطّاب -زوج الرّسول عليه الصّلاة والسّلام- تأمر أخاها بإعطاء البيعة ليزيد خوفاً من تفرّق الكلمة، ولو كانت تعلم عدم أهليّة يزيد للخلافة لما شجّعته على بيعته.

وبعد أن مات معاوية وخلف بعده يزيد، تطالعنا روايات متناقضة ومرويّة بلا سند، أو بسند ضعيف من طريق أبي مخنف وغيره من الرّواة الكذّابين.

من ذلك أن يزيد أرسل رسالة إلى عامله على المدينة ليأخذ له البيعة بالقوة من الأربعة : عبد اللّه بن عمر، وعبد اللّه بن الزبير، وعبد الرّحمن بن أبي بكر، والحسين بن عليّ[٢]، والمعروف أنّ ابن أبي بكر توفّي سنة (٥٨ هـ) أي قبل أن يتولى يزيد سنة (٦٠ هـ) [٣]. أمّا الطّبريّ فذكر الثّلاثة فقط في الرّسالة [٤].

ومّما ينقض ما جاء في هذه الرّسالة أنّ ابن عمر بايع ورفض أن ينقض البيعة، فلا ضرورة لأن يرسل يزيد كتاباً إلى عامله ليأخذ البيعة من رجل بايع له. يؤكد هذا أنّ ابن عمر وقف موقفاً حازماً من الّذين نقضوا بيعة يزيد، روى البخاري عن نافع قال :

"لمّا خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده، فقال : إنّي سمعت النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- يقول : "ينصب لكلّ غادر لواء يوم القيامة"، وإنّا قد بايعنا هذا الرّجل على بيع اللّه ورسوله، ثمّ ينصب له القتال، وإنّي لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر إلّا كانت الفيصل بيني وبينه" [٥].

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، حـ٥، ص٥٨، حديث رقم ٤١٠٨.

(٢) انظر : الدّينوريّ، الأخبار الطّوال، ص٢٢٧. وابن الأثير: ضياء الدّين، الكامل في التّاريخ، تحقيق : أبو الفداء عبد اللّه القاضي، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٧، حـ٣، ص٣٧٧.

(٣) ابن سعد، الطّبقات الكبرى، حـ٣، ص٢١٠.

(٤) الطّبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٣٣٨.

(٥) البخاري، صحيح البخاري، حـ٨، ص٤٣٧، حديث رقم ٧١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فابن عمر يعتبر ناقض بيعة يزيد غادراً، ويتهدّد أهله وحشمه إذا لم يتابعوا يزيد ويتمسّكوا ببيعته، وإلّا كانت الفيصل بينه وبينهم، فهل بعد هذا التّهديد ما يبقي للمغرضين من المؤرّخين الّذين يحاولون طمس معالم تاريخنا وتحريفه لهوى في أنفسهم ؟

وهكذا نرى أنّ ابن عمر "كان مسلّماً في أمر يزيد، وأنّه بايع وعقد له، والتزم ما التزم النّاس، ودخل فيما دخل فيه المسلمون، وحرّم على نفسه ومن إليه بعد ذلك أن يخرج على هذا أو ينقضه" (١).

وأمّا ابن الزّبير فلم يرد في مرويّات الأخبار على أنّه طعن في يزيد في حياة معاوية، ولا عندما تولّى الخلافة، وإنّما أراد -كما أراد غيره- أن يكون الأمر شورى.

ولم يرد في الأخبار الصّحاح أنّ ابن الزّبير لم يبايع، بل يستدلّ على بيعته أيضاً من النّصّ الّذي أورده ابن خلدون في مقدّمته، إذ قال :

"وأمّا ابن الزّبير فإنّه رأى في قيامه ما رآه الحسين وظنّ كما ظنّ، وغلطه في أمر الشّوكة أعظم، لأنّ بني أسد لا يقاومون بني أميّة في جاهليّة ولا إسلام" (٢).

فكيف يتّهم ابن الزّبير بالخروج عن البيعة إذا لم يكن قد بايع أصلاً ؟

يؤيّد هذا ما رواه صاحب "العقد"، فبعد أن استمرّت مشاورات معاوية مدّة سبع سنوات حول بيعة يزيد، وبعد أن استوثق معاوية من النّاس للبيعة، قال لعبد اللّه ابن الزّبير : "ما ترى في بيعة يزيد؟ قال : يا أمير المؤمنين، إنّي أناديك ولا أناجيك، إنّ أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدّم، وتفكّر قبل أن تندم، فإنّ النّظر قبل التّقدم، والتّفكّر قبل التّندّم. فضحك معاوية وقال: ثعلب روّاغ، تعلّمت السّجع عند الكبر، في دون ما سجعت به على ابن أخيك ما يكفيك" (٣).

فهذا النّصّ لا يدل على أنّ ابن الزّبير لم يبايع يزيد، وليس فيه ذاك العنف

---

(١) ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص٢٢٦.

(٢) ابن خلدون، المقدّمة، ص١٨٨.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، جـ٥، ص١١٠-١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الّذي واجه به معاوية في الرّوايات الأخرى عندما عرض عليه بيعة يزيد، بل يفهم من هذا النّصّ أنّ ابن الزّبير لا يعترض على بيعة يزيد، بل يريد أن يكون معاوية قد فكّر قبل الإقدام على هذا العمل.

وأمّا الحسين فلم يرد ذكره ضمن الأخبار الّتي رويت عن وهب بن جرير، وإنّما ورد ذكره ضمن الخبر الّذي رواه الطّبري عن (رجل بنخلة)، وهو خبر واهٍ لا يعتمد عليه.

ومع ذلك فقد برز اسم الحسين مجدّداً في رسالة يزيد إلى عامله على المدينة ليأخذ له البيعة من الثّلاثة، فما هو الموقف الصّحيح للحسين من هذا الأمر؟

يذكر ابن كثير في "البداية والنّهاية" أنّ الحسن والحسين كانا يفدان على معاوية لمّا استقرّت الخلافة له، وكان يكرمهما إكراماً زائداً ويقول لهما : مرحباً وأهلاً، ويعطيهما عطاء جزيلاً[١].

ولمّا توفي الحسن، كان الحسين يفد إلى معاوية في كلّ عام فيعطيه ويكرمه، وقد كان في الجيش الّذي غزا القسطنطينيّة مع يزيد في سنة إحدى وخمسين[٢].

يفهم من هذا الخبر، ومن الأخبار الّتي رويت عن موقف ابن عمر، ومن أقوال الّذين نصحوا الحسين بعدم الخروج، ومن رسالة يزيد إلى ابن عبّاس[٣]، أنّ الحسين بايع يزيد في حياة معاوية، ولكنّه نقض البيعة بعد موته، وخرج إلى الكوفة.

وأمّا ابن عبّاس فقد شهد ليزيد بالعلم لمّا جاءه يزيد يعزّيه في وفاة الحسن[٤]، ورجل يشهد ليزيد بالعلم لا يعقل أن يبايع مكرهاً، وقد وفد على معاوية طائعاً مختاراً، وبايع طائعاً مختاراً، ولم يثبت عنه أنّه نقض بيعته أو شارك في أيّة فتنة ضد يزيد، بل نصح الحسين بعدم الخروج على يزيد في رسالة بعثها إليه[٥].

---

(١) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص١٥٠.

(٢) المصدر نفسه، حـ٨، ص١٥٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الشّريف المرتضى : عليّ بن الحسين، الأمالي(غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطّبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٥٤، حـ١، ص٢٧٧.

(٥) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ذكر ابن كثير أن ابن عباس وابن عمر بايعا[١].

وهكذا يتضح من المقابلة بين النصوص الخطابية المتناقضة أن يزيد بويع له بيعة شرعية، وبهذا فإن معاوية لم يحول الخلافة كسروية ولا هرقلية كما يزعم الزاعمون[٢].

٣- خلافة معاوية الثّاني :

جاء في تاريخ اليعقوبي أن معاوية بن يزيد لما تنازل عن الخلافة بعد أربعين يوماً -أو أربعة أشهر- خطب الناس، فقال :

"أما بعد حمد الله والثناء عليه أيها الناس، فإنا بلينا بكم وبليتم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا، وطعنكم علينا، ألا وإن جدي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله، وأحق في الإسلام، سابق المسلمين، وأول المؤمنين، وابن عم رسول رب العالمين، وأبا بقية خاتم المرسلين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتى أتته منيته، وصار رهناً بعمله، ثم قلد أبي، وكان غير خليق للخير، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقلت منعته، وانقطعت مدته، وصار في حفرته رهناً بذنبه، وأسيراً بجرمه، ثم بكى وقال : إن أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمة، وحرق الكعبة، وما أنا المتقلد أموركم، ولا المتحمل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا منها حظاً، وإن تكن شراً فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها" [٣].

هذه هي أقدم رواية وصلت إلينا لخطبة معاوية الثاني، وهي غير مسندة كما نرى، وقيل بل خطب خطبتين الأولى عند توليه الخلافة، والثانية عند تنازله

---

(١) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص١٥١.

(٢) للمزيد عن أهليّة يزيد للخلافة انظر :
فريال هديب، صورة يزيد بن معاوية في الرّوايات الأدبيّة -دراسة نقديّة، الطّبعة الأولى، دار أميّة للنّشر والتّوزيع، الرّياض، ١٩٩٥.

(٣) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنها.

ولو تأمّلنا مضمون هذه الخطبة، نجد أنّه لا يعقل أن تصدر عن معاوية، لأسباب هي :

١- أنّها تعرض لرأي الشّيعة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، فالقول بأنّ معاوية اغتصب الخلافة ممن هو أحق بها منه هو ما زايد عليه الشّيعة طويلاً، ويدعم هذا التّوجّه الشّيعيّ الظّاهر في هذه الخطبة ما وضع على لسان ابن يزيد من أنّ عليّاً "أبو بتيّة خاتم المرسلين" إذ أنّه الإمام المعصوم الأوّل عند أصحاب نظريّة (الأئمة الاثنا عشريّة)، وأبو الحسن والحسين وباقي الأئمة، فعنه تفرّعوا، وإليه انتسبوا، وهذه النّظريّة لم يكن لها وجود في هذه الحقبة المبكّرة من التّاريخ الأمويّ[١].

٢- موقف معاوية من أبيه، وهو يثير العجب، فكيف يتّهم ابن أباه بأنّه "غير خليق للخير"، وأنّه "قتل عترة رسول اللّه" و "أباح الحرمة" و "حرّق الكعبة" إلخ...

إنّ هذا الموقف -في حقيقته- موقف الشّيعة من خلافة يزيد، وهذه الصّورة الّتي حاولوا إظهار يزيد فيها قد روّجوا لها قروناً طويلة، حتّى أقنعت الكثيرين، فانطلقوا يردّدونها ويروونها دون تدقيق ولا تمحيص، وقد أثبتت فريال هديب في بحثها عن يزيد كذب هذه الرّوايات وتلفيقها وتزويرها، ووضعت يزيد في المكانة اللائقة به خليفة للمسلمين، ممّا كفانا مؤونة ذلك[٢].

---

(١) للمزيد عن نشأة الإماميّة وفروعها انظر :
الشّهرستاني : محمّد بن عبد الكريم، الملل والنّحل، تخريج : محمد بن فتح اللّه، الطّبعة الثّانية، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د.ت، ق١، ص١٤٤-١٥٤. والبغداديّ : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق : عبّاس أحمد البان، الطّبعة الأولى، دار البان للنّشر والتّوزيع، مكّة المكرّمة، ودار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٥، ص٣٦-٤٩. وعلي أحمد، عقيدة الإماميّة عند الشّيعة الإثني عشريّة، الطّبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٧. وإحسان ظهير، بين الشّيعة وأهل السّنة، الطّبعة الأولى، إدارة ترجمان السّنّة، لاهور، ١٩٨٥. وموسى الموسويّ، الشّيعة والتّصحيح، د.م.، ١٩٨٨، ص٨-٥٠.

(٢) فريال هديب، صورة يزيد بن معاوية في الرّوايات الأدبيّة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- إجماع الرّوايات الأخرى الّتي بين أيدينا على أنّ معاوية تنازل عن الخلافة شعوراً بثقلها، وخوفاً من تبعاتها[١]، بل إنّ صاحب "الإمامة والسّياسة" المتعصّب على الأمويّين ذكر أنّ معاوية لمّا تنازل عن الخلافة قال : "لا يسعني فيما بيني وبين ربّي أن أتقدّم على قوم وفيهم من هو خير مني، وأحقهم بذلك، وأقوى على ما قلّدته ... ثمّ يخيرهم : إمّا أن أخرج منها، وأستخلف عليكم من أراه لكم رضاً ومقنعاً، ولكم اللّه عليّ ألا ألوكم نصحاً في الدّين والدّنيا، وإمّا أن تختاروا لأنفسكم وتخرجوني منها" [٢].

ولم تخرج سائر الرّوايات عن مضمون هذه الخطبة -مع اختلاف اللفظ- وهو ما يتّفق والجزء الأخير من رواية اليعقوبيّ حسب، بل إنّ رواية صاحب "الإمامة والسّياسة" تبيّن أنّ معاوية لم ينفض يديه تماماً من الخلافة، بل أبقى شعرة النّصيحة بينه وبين النّاس، ولم يخرج على قواعد البيعة الّتي جاء بها الإسلام، فهو يخيّرهم بين تعيين خليفة بعده، أو ترك الأمر شورى بين المسلمين، وكلا الأمرين جائز عند جمهور الفقهاء[٣].

٤- انتقال الخلافة إلى الفرع المروانيّ :

بعد تنازل معاوية الثّاني عن الخلافة، كثر الطّامحون لها، وتعدّدت وجهات النّظر، إلى أن استقرّ الرّأي في الجابية على عقد البيعة لمروان بن الحكم.

---

(١) انظر :
الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٥٠٣.
والبلاذريّ، أنساب الأشراف، حـ٤، ق١، ص٣٥٦-٣٥٩.
والمسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص٨٢.
وابن الطقطقيّ، الفخري في الآداب السّلطانيّة، ص١٠٦.
وأبو الفدا عماد الدّين، المختصر في تاريخ البشر، الطّبعة الأولى، المطبعة الحسينيّة، مصر، د.ت.، حـ١، ص١٩٣.

(٢) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٤٣.

(٣) انظر :
الفرّاء: أبو يعلى محمّد بن الحسين، الأحكام السّلطانيّة، تصحيح: محمّد حامد الفقي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع أنّ المصادر أحاطت بالكثير من تفاصيل هذا الحدث التّاريخيّ المهمّ، فإنّ النّصوص الخطابيّة الّتي وصلت إلينا لا تتناسب وأهمّيته، حتى إنّ صورة الخطيب المفوّه الّتي رسمت لمروان في عهديّ معاوية ويزيد تلاشت في عهده، وهذا أمر يثير الدّهشة والاستغراب، فهل يعقل أن تجود قريحة مروان في الدّعوة لغيره، فيما لا نجد له نصّاً خطابيّاً واحداً يعلن فيه سياسته القادمة في الحكم على الأقل؟

إنّ ما بين أيدينا من مصادر صمتت عن ذكر أيّ خطبة لمروان منذ تولّيه الخلافة وحتّى وفاته (٦٤-٦٥ هـ)، ولم يقع بين يدي سوى وصيّتين منسوبتين له في خلافته، الأولى وجّهها لابنه عبد الملك لمّا ولّاه فلسطين[١]، والثّانية خاطب فيها ابنه عبد العزيز لمّا ولّاه مصر[٢].

وتتمثل وجهة النّظر الأمويّة -باختيار مروان خليفة للمسلمين- في ثلاثة نصوص لا غير: الأولى لروح بن زنباع، والثّانية لعبد العزيز بن مروان، والثّالثة لحسّان بن مالك في المؤتمر الّذي عقد بالجابية.

وقد وردت خطبة روح بن زنباع -دون إسناد- في تاريخ اليعقوبيّ على النّحو التّالي :

"يا أهل الشّام، هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، والطّالب بدم عثمان، والمقاتل عليّ بن أبي طالب يوم الجمل، ويوم صفّين، فبايعوا الكبير، واستنيبوا للصّغير، ثمّ لعمرو بن سعيد" [٣].

ولم يقف دوره عند هذا ؛ فقد أورد صاحب "الإمامة والسّياسة" أنّ "روح بن زنباع قال لمروان بن الحكم: إنّ معي أربع مائة رجل من جذام، وسآمرهم أن يبتدروا في المسجد غداً، فمر ابنك عبد العزيز أن يخطب النّاس، ويدعوهم إليك، وسآمرهم أن يقولوا : صدقت، صدقت، فإذا كان أربع مائة من جذام يقولون صدقت، ظن النّاس أنّ أمرهم واحد قال: فلمّا أصبح عبد العزيز خرج على النّاس

---

(١) البلاذريّ، أنساب الأشراف، حـ٥، ص١٢٧.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ١، ص٣١.

(٣) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهم مجتمعون، فقام فحمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال :

ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان، إنّه لكبير قريش وشيخها وسيّدها، وأفضلها عقلاً وكمالاً وديناً وفضلاً، والّذي نفسي بيده، لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر. فقال الجذاميّون : صدقت، صدقت" [١].

وأمّا حسّان بن مالك، فقد قام خطيباً في المجتمعين، واحتجّ لمروان بأنّه كبير قريش، وابن عمّ الخليفة المطالب بدمه قبل النّاس أجمعين، والأولى بميراث عثمان[٢].

ويلاحظ في هذه الخطبة التّركيز على مسألة السّنّ بوضوح، مع أنّ أحداً لم يشر لأهمّيتها عند البيعة ليزيد، بل إنّ المصادر تذكر لنا أنّ حسّان بن مالك حين دعا أهل الأردنّ لمساندة الأمويّين ودعمهم، وافقوا على أن يقاتلوا من خالفه من النّاس، على أن يجنّبهم البيعة لأحد الغلامين: عبد اللّه وخالد ابني يزيد، وعلّلوا ذلك بقولهم :

"فإنّهما حديثة أسنانهما، ونحن نكره أن يأتينا النّاس بشيخ، ونأتيهم بصبيّ"[٣].

إنّ هذه الأخبار تجعل من صغر سنّ خالد عائقاً رئيساً في اختياره مرشّحاً لهذا المنصب، ومع وجود فارق كبير بين الاثنين في السّنّ، إلّا أنّ ذلك لا يعني -بالضّرورة- حداثة سنّ خالد، ومع افتقارنا لمعلومات دقيقة عن عمر خالد في ذلك الوقت، فإنّ إبراهيم بيضون- من خلال مقابلته بين الرّوايات التّاريخيّة- يرى أن خالداً تجاوز مرحلة الحداثة إلى مرحلة الشباب، حيث تمتّع بحضور بارز في مختلف أطوار الجدل ما بين دمشق والجابية، بالإضافة إلى مؤشّرات أخرى خلص الباحث في نهاية مناقشتها إلى "أنّ خالداً كان قد تجاوز الثّامنة عشرة من

---

(١) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٤٧.
قابل بـ :
الطّبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٥٣٦-٥٣٧.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، حـ٥، ص١٢٩.

(٣) الطّبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٥٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمره على الأرجح، إبّان انعقاد مؤتمر الجابية أي أنّ عمره حينذاك لم يكن عائقاً أمام ترشيحه للخلافة"[١]، وهذا ما يتعارض ومضمون الخطب الثّلاثة، سالفة الذّكر، ويقلّل من أهميّة عامل السّنّ في أخذ البيعة لمروان.

وما تطرحه خطبة روح بن زنباع من حقّ مروان في ميراث عثمان كونه أوّل المطالبين بدمه يتنافى مع ما تذكره المصادر، فابن سعد -مثلاً- يذكر أنّ طلحة والزّبير وعائشة كانوا أوّل الخارجين في طلب دم عثمان ثمّ لحق بهم مروان بحسب ما تذكره روايته[٢].

أمّا قوله "ميراث عثمان" فلو كانت الخلافة وراثة، كما يزعم، ومروان أحق بها فلماذا لم تذكر المصادر مطالبة مروان بالخلافة بعد موت عثمان ؟ ولو كان مروان طامحاً لها فكيف سعى لأخذ البيعة لمعاوية ؟

إنّ ما أوصل مروان إلى الخلافة : دينه وعقله، فهو في الطّبقة الأولى من التّابعين، ومن فقهاء المدينة، وقد رويت عنه العديد من أحاديث الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- حملها عنه أئمّة ثقات،[٣] ويؤيّد ذلك أنّ الأمويّين حين حاروا بينه وبين عمرو بن سعيد وخالد بن يزيد، اختاروه، فيما يروي صاحب "الإمامة والسّياسة" المتعصّب على الأمويّين، لأنّهم دخلوا عليه "فإذا عنده مصباح، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن، فاستأذنوا ودخلوا عليه، فقالوا له : يا أبا عبد الملك، ارفع رأسك لهذا الأمر، فقال: أستخير الله وأسأله أن يختار لأمّة محمّد -صلّى اللّه عليه وسلّم- خيرها وأعدلها، ماشاء اللّه ولا قوة إلا باللّه"[٤].

ثمّ إنّ ما ذكرته الخطبة من تأييد أربعمائة رجل لمروان يبدو أمراً مفتعلاً، فما حاجته إلى تأييد كلّ هؤلاء، والبيعة تنعقد بأقلّ من ذلك بكثير؟

إنّ وصول مروان، دون غيره من المرشّحين، إلى الخلافة -مع موافقته

---

(١) إبراهيم بيضون، المؤتمر الدّوليّ الرّابع لبلاد الشّام، مؤتمر الجابية : دراسة في نشوء خلافة بني مروان، ص١٦٦-١٦٩.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، حـ٥، ص٣٨.

(٣) انظر :

ابن حنبل، المسند، حـ٦، ص١٨-١٩. وغيرهما. ومالك بن أنس، الموطّأ، حـ٢، ص ١٧٧-١٨٢. والبخاري، صحيح البخاري، حـ٣، ص٨٨ و ١٨٥ و ١٨٦ وغيرها.

(٤) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لشروطها- تفسّره قوّة العصبيّة الّتي تمتّع بها في تلك الحقبة الحرجة، وأعني بها العصبيّة السّياسيّة -الّتي ذكرها ابن خلدون في مقدّمته[١]- والّتي تؤدّي إلى الملك، لأنّ "الآدميّين بالطّبيعة الإنسانيّة يحتاجون في كلّ اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بدّ أن يكون متغلّباً عليهم بتلك العصبيّة" [٢].

والقضيّة الجوهريّة في العصبيّة السّياسيّة أنّ ابن خلدون ربطها بالدّعوة الدّينيّة، إذ قال:

"إنّ الدّعوة الدّينيّة من غير عصبيّة لا تتمّ" [٣] فلكي يحمي المسلمون الخلافة، كان لا بدّ لهم -مع تعدّد وجهات النّظر- من اختيار العصبيّة الأقوى حتّى تستقرّ الأمور.

ولمّا كان ابن الزّبير دون عصبيّة حقيقيّة تحميه، ولم تظهر عصبيّات توازي بني أمية -في قوّتها- فإنّ الأمر ظلّ يدور في فلكهم، ولمّا كانت كفّة مروان هي الأرجح، فقد انهزمت أقسامه العصبيّة السفيانيّة الضّعيفة. ويرى ابن خلدون أنّ تضييق دائرة اختيار الخليفة من عصبيّة واحدة يحافظ على كيان الدّولة ويحميها من الانهيار [٤]، وهكذا فقد توالى أبناء مروان على الخلافة : عبد الملك فالوليد فسليمان، ثمّ خرجت إلى ابن عمهم عمر، المنتمي أيضاً إلى العصبيّة العاصيّة، وعادت بعد ذلك إلى هشام. هؤلاء الخلفاء هم الّذين مثّلوا العصبيّة في أوج قوّتها ومنعتها، لذلك استمرّت الخلافة فيهم دون غيرهم، ورضي النّاس بحكمهم، بدليل هدوء الأحداث -فيما ترويه المصادر- ما بين عامي (٧٣-١٢٥هـ)، وعدم ظهور منافسين حقيقيين لهم.

ولمّا مات هشام، بدأ الأمويّون يصابون بالضّعف بانتشار التّرف فيهم[٥]،

---

(١) انظر :
محمّد الدّقس، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب (٢)، العصبيّة الخلدونيّة ووظيفتها الاجتماعيّة والسّياسيّة، الرّياض، ١٩٩٠، مج (٢)، ص٧١٣-٧٤٥.

(٢) ابن خلدون، المقدّمة، ص١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٥.

(٥) انظر :
المصدر نفسه، ص١٤٦-١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبدأت عصبيّتهم تتخلى عن شرط قوّتها- أيّ التّلازم بين أهل العصبيّة الواحدة، فكثر التّناحر بينهم، ممّا عجّل بانقضاء ملكهم. وبظهور عصبيّة مناهضة أقوى منهم، هي دولة بني العبّاس، دالت بالأمويّين الأيّام، وزال ملكهم.

وممّا يلفت الانتباه أنّ المصادر لم تذكر لنا خطبة عبد الملك بن مروان عند تولّيه الخلافة، وكذلك يزيد وهشام. أمّا الوليد فتنسب المصادر له خطبة جاء فيها :

"أيّها النّاس، عليكم بالطّاعة ولزوم الجماعة، فإنّه من أبدى ذات نفسه ضربت الّذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه" (١).

ولكنّ صاحب "العقد" يروي لنا نصّاً أطول من النّصّ السّابق، تظهر فيه أفكار القدريّة بصورة واضحة، ولا يستبعد أن تكون من زيادات المتأخّرين(٢).

وتنسب المصادر لسليمان خطبة خطبها حين تولى الخلافة، جاء فيها :

"الحمد للّه. ألا إنّ الدّنيا دار غرور ومنزل باطل، تضحك باكياً، وتبكي ضاحكاً، وتخيف آمناً، وتؤمّن خائفاً، وتفقر مثرياً، وتثري مقتراً، ميّالة غرّارة، لعّابة بأهلها. عباد الله، فاتّخذوا كتاب اللّه إماماً، وارتضوا به حكماً، واجعلوه لكم قائداً، فإنّه ناسخ لما كان قبله، ولم ينسخه كتاب (بعده)، واعلموا عباد اللّه أنّ هذا القرآن يجلو كيد الشّيطان، كما يجلو ضوء الصّبح إذا تنفّس ظلام الليل إذا عسعس" (٣).

وتبدو هذه الخطبة للوهلة الأولى لا صلة لها بالمناسبة، فمن المفروض أن يعلن الخليفة تولّيه لمنصب الخلافة، ويستعين باللّه عليها، ويدعو النّاس إلى الدّخول في الطّاعة، ولزوم الجماعة.

---

(١) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، مج ٢، ص٢٨٣.
قابل (ب)
ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٤-١٥٥.
والجاحظ، البيان والتّبين، حـ١، ص١٦٦.
والمسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٧٠.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٤-١٥٥.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٥ وابن قتيبة، عيون الأخبار، شرح وتعليق : يوسف الطّويل، حـ٢، ص٢٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ هذه الخطبة الوعظيّة يشكّ في صدورها عن رجل يتولّى شؤون الرّعيّة في يومه الأوّل، كما أنّ الصّنعة اللفظيّة الواضحة فيها والغريبة عن العصر الأمويّ، تعزّز الشّكّ في نسبة هذه الخطبة لسليمان.

وبعد وفاة سليمان لم تذكر المصادر خطباً لخلفاء في يوم تولّيهم أمر المسلمين إلّا لاثنين : عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد، وخطبة هذا الأخير هي آخر ما وصل إلينا من خطب منسوبة لخلفاء بني أميّة، وسيُعرض لهما تباعاً.

٥- خلافة عمر بن عبد العزيز :

وردت نصوص كثيرة لخطبة عمر بن عبد العزيز لمّا بويع بالخلافة، يناقض بعضها بعضاً، وقد وردت -لأوّل مرّة- عند ابن سعد في طبقاته، جاء فيها :

"أمّا بعد، فإنّه ليس بعد نبيّكم نبيّ، ولا بعد الكتاب الّذي أنزل عليه كتاب، ألا إنّ ما أحلّ اللّه حلال إلى يوم القيامة، وما حرّم اللّه حرام إلى يوم القيامة، ألا وإنّي لست بقاضٍ، ولكنّي منفّذ، ألا وإنّي لست بمبتدع ولكنّي متّبع، ألا إنّه ليس لأحد أن يطاع في معصية اللّه، ألا وإنّي لست بخيركم، ولكنّي رجل منكم، غير أنّ اللّه جعلني أثقلكم حملاً "[1].

تبدو هذه الخطبة الأنموذج الأكثر قرباً لما يجب أن يقال في يوم تقلّد الخلافة، إذ يبدو الالتزام بشرع اللّه تعالى، وبسنّة رسوله -صلّى اللّه عليه وسلّم- في أبهج لفظ، وأرقى مضمون، دون مدح ولا قذف، ولا خروج عن مقتضى الحال.

ولا يبدو في هذه الخطبة أنّ عمر كان يحاول إلقاء عبء الخلافة عن كاهله -كما تروي لنا بعض المصادر- إذ يذكر ابن أبي الحكم أنّ عمر لمّا تولّى الخلافة قال :

"أيّها النّاس، إنّي قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان منّي فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإنّي قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم".

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٢٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحين أصر النّاس على مبايعته قال :

"أيّها الناس، إنّه قد كان قبلي ولاة تجترّون مودّتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت اللّه فيكم، فإذا عصيت اللّه فلا طاعة لي عليكم" (١).

كما ينسب المسعوديّ له خطبة لا صلة لها بالموقف الّذي قيلت فيه(٢)، تماماً كالخطبة المنسوبة لسليمان كلّها وعظ وزهد وتذكير بالآخرة، وعرضت فيها الأفكار بأسلوب أهل الزهد في العصر العباسيّ، ردّاً على انتشار التّرف والبذخ والإسراف في زمانهم، ولم تكن حال المسلمين قد انحدرت إلى هذا الحدّ قبل عمر ابن عبد العزيز، وإلّا لما استمرّت الفتوحات الإسلاميّة شرقاً وغرباً قبله، ووصلت أوجها في عهد سليمان، لأنّ انتشار التّرف -في رأي ابن خلدون(٣)- يضعف العصبيّة ويعجّل في زوالها، والعصبيّة الضّعيفة غير قادرة على حماية نفسها، فكيف بمتابعة الفتوحات، وتوسيع رقعة الدّولة؟

لقد قدّمت لنا المصادر عمر بن عبد العزيز بصورة إيجابيّة دون سائر خلفاء بني أميّة، والسّؤال الّذي ينشأ هو :

لماذا حافظت صورة عمر على إيجابيّتها مع أنّه وصل إلى الخلافة ببيعة سليمان له؟

إنّ عمر -على جلال قدره- وهو التّابعيّ، لم يكن بأفضل من معاوية الصّحابيّ وكاتب الوحي، ومع ذلك نجد جلّ المصادر تشنّ حملة شرسة على معاوية، وتقوّله ما لم يقل حتّى وجد هشام أكثر كلامه مصنوعاً (٤)، ولكنّ "الهدّامين الأوائل لمّا لم يجدوا سبيلاً إلى الإسلام نفسه، جاؤوه من طريق رجاله، فشطروهم شطرين،

---

(١) ابن عبد الحكم: أبو محمّد، سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح : أحمد عبيد، الطّبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧، ص٣٩.

(٢) المسعوديّ، مروج الذّهب، ج٣، ص١٩٤.

(٣) ابن خلدون، المقدّمة، ص١٤٦-١٤٨.

(٤) البلاذريّ، أنساب الأشراف، م٤، ١، ص٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ في هذا التّحميد صنعة لفظيّة متكلّفة ممّا يرجّح أن تكون من زيادات المتأخّرين.

ويرجّح الشّكّ في صحّة نسبة الخطبة ليزيد للأسباب التّالية :

١- أنّها وصلت إلينا دون إسناد.

٢- ظهور أثر المذهب الكلاميّ، ومن ذلك قوله :

"كان حبلاً من حبال اللّه، مدّه ما شاء أن يمدّه، ثمّ قطعه حين أراد أن يقطعه"، فكون معاوية حبلاً من حبال اللّه مقدّمة كانت نتيجتها مدّه وقطعه بمشيئة اللّه.

٣- قوله "كان حبلا من حبال اللّه" متعلّق بمصطلح "خليفة اللّه" ولم تظهر مثل هذه الأفكار عن الخلفاء قبل العصر العباسيّ.

٤- لا تظهر الخطبة شعور ابن ينعى أباه، بل بدا وكأنّ يزيد ينعى رجلاً لا صلة له به، وفي رواية المسعوديّ: "إنّ أمير المؤمنين" [١].

٥- قوله "ولا أشتغل بطلب علم" في رواية ابن قتيبة والمسعوديّ تناقض ما جاء في العقد "ولا أني على طلب علم" [٢]، كما تناقض الكثير من الرّوايات الّتي تبرز اهتمام يزيد بالعلم منذ صغره إلى تولّيه الخلافة[٣].

٢- خطبة امرأة بعد دفن الأحنف بن قيس :

تنسب المصادر خطبة لامرأة بعد دفن الأحنف بن قيس، تقول فيها:

"إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، رحمك اللّه أبا بحر من مجنّ في جنن، ومدرج في كفن، فوالّذي ابتلانا بفقدك، وأبلغنا يوم موتك، لقد عشت حميداً، ومتّ فقيراً، ولقد كنت عظيم الحلم، فاضل السّلم، رفيع العماد، واري الزّناد منيع الحريم، سليم الأديم، وإن كنت في المحافل لشريفاً، وعلى الأرامل لعطوفاً، ومن النّاس لقريباً، وإن كنت لمسوّدا، وإلى الخلفاء لموفدا، وإن كانوا لقولك لمستمعين،

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٣، ص١٥٣.

(٣) فريال هديب، صورة يزيد، ص٢٩-٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جعلوا نصيب أحدهما الطّعن والقدح، وجعلوا نصيب الآخر التّنويه والمدح، ثمّ غلوا في كلا الشّقّين حتّى خرجوا عن الذّوق السّليم، ثمّ ربطوا عملهم بالمعيشة والمصلحة والنّفوذ، وتتابعت القرون، وألفوا ذلك، ومردوا عليه، ومهروا فيه، وكان من مهارتهم أن استطاعوا ترويج نحلتهم بين أنسال حملة الرّسالة، وهم العرب" [1].

إنّ سكوت النّاس عن عقد البيعة لعمر، تؤكّد جواز ولاية العهد من الخليفة السّابق، ولو كان هناك احتجاج حقيقيّ -كما تزعم المصادر- حين عهد معاوية لابنه، ومروان لأولاده من بعده، لثاروا -كذلك- على عمر، وطالبوا بعقد مجلس أهل الحلّ والعقد حتى تتحقّق شرعيّة خلافته، ولكنّ المصادر لم تشر إلى احتجاج النّاس على خلافة عمر -بل رفضوا- في رواية ابن أبي الحكم- تنازله عن الخلافة.

إنّ نصّ الخطبة -كما ورد عند ابن سعد- هو النّصّ الحقيقيّ على الأرجح، فهو الأقدم زماناً، ورواه ثقة، وأقرب ما يكون إلى خطابة الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- والخلفاء من بعده، ويبعد مضمونها عن كلّ قضايا الجدل والفلسفة، وخلت من التّزويق اللفظيّ، وهي أمور نلحظها فيما تنسبه جلّ المصادر من خطب لعمر بن عبد العزيز، ولكنّ الدّراسة المتأنّية لتلك الخطب -ضمن سياقها التّاريخيّ- تُبيّن عدم صدورها عن أيّ إنسان عاش في العصر الأمويّ، وإنّما وضعها، أناس تشرّبوا المذهب الكلاميّ ومارسوه في كتاباتهم، وذلك لم يكن قبل القرن الثّالث الهجريّ.

٦- خلافة يزيد بن الوليد :

تروي المصادر أنّ يزيد بن الوليد لمّا خرج على ابن عمّه الوليد خطب خطبة حمد الله فيها، وأثنى عليه، ثمّ قال :

"أيّها النّاس، والله ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدّنيا، ولا رغبة

---

(١) محمود الملاح، تاريخنا القومي بين السلب والإيجاب، ص١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الملك، وما بي إطراء نفسي، وإنّي لظلوم لها إن لم يرحمني اللّه، ولكن خرجت غضباً للّه ونبيّه، داعياً إلى اللّه، وإلى سنّة نبيّه، لمّا هدمت معالم الهدى، وأطفىء نور أهل التّقوى، وظهر الجبّار العنيد، المستحلّ لكلّ حرمة، والرّاكب لكلّ بدعة، الكافر بيوم الحساب، وإنّه لابن عمّي في النّسب، وكفيني في الحسب، فلمّا رأيت ذلك استخرت اللّه في أمره، وسألته ألّا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، حتّى أراح اللّه منه العباد، وطهّر منه البلاد بحوله وقوّته، لا بحولي وقوّتي" [1].

فهو يقابل أوّلاً بين صورتين : صورة ابن عمّه الجبّار العنيد المستحل لكلّ حرمة، والرّاكب لكلّ بدعة، والمتّهم بالكفر، والمنكر ليوم الحساب، وصورته هو الثّائر على الإلحاد، والخارج غضباً للّه ودينه، والدّاعي إلى الكتاب والسّنّة.

وقد رُسمت هاتان الصّورتان بأسلوب غريب على العقليّة العربيّة الإسلاميّة في تلك الحقبة، فهو يعرض للأمر بأسلوب منطقيّ جدليّ، إذ يحتجّ لثورته بأنّها غضب للّه ونبيّه، ودعوة إلى الكتاب والسّنّة، وأنّ الوليد إنّما استحقّ القتل لأنّه كافر مبتدع، وعرض الشّيء ونقيضه على هٰذا النّحو الّذي نلمسه في هذه الخطبة من خصائص (المذهب الكلاميّ) الّذي ساد في العصر العباسيّ، ممّا يعزّز الشّكّ في نسبة الخطبة إلى يزيد وإلى عصره.

ثمّ إنّ الصّورة المرسومة للوليد فيها مبالغة وتهويل[2]، فالوليد، وإن كان محبّاً للهو والطّرب، إلا أنّه لم يصل حدّ الإسراف في العبث والمجون والفسق، بل إنّ صاحب "الأغاني" - مع تعصّبه على الأمويّين- أشار إلى محاولة تشويه صورة الوليد عن طريق نحل شعر يدلّ على الخبث والكفر وإلصاقه به [3].

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٧٠

قابل بـ :

ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٩. والطّبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٢٦٩. وابن الطّقطقي، الفخريّ، ص١١٩-١٢٠.

(٢) انظر :

حسين عطوان، الوليد بن يزيد : عرض ونقد، بيروت، دار الجيل، ١٩٨١.

(٣) الأصفهانيّ : أبو الفرج، الأغاني، شرح : سمير جابر، الطّبعة الثّانية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٢، حـ٧، ص٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يعدم أن يكون الخروج على الوليد لأسباب أكثر أهميّة، إذ أوصى لولديه الحكم وعثمان من بعده، ولمّا كانت العقليّة العربيّة الإسلاميّة لم تتخلّ بعد عن الاعتبارات الاجتماعيّة في شرط الولادة الحرّة لمن يحكمهم، فقد أنف النّاس خلافة أبناء الجواري، وهذا الأمر، وإن كان البعض يتّخذه ذريعة للطّعن في الخلافة الإسلاميّة، فإنّ (لامانس) يرى أنّ الأمويّين كانوا موفّقين في تمسّكهم به، وعلّق عليه بقوله :

"ويجب تهنئة الأمويّين لأنّهم اعتمدوا موقفاً أكثر كرامة، وهذا الموقف سوف يؤخّر -لبعض الوقت- انحطاط الأخلاق، وتقهقر الجنس في المجتمع الإسلاميّ"[١].

كما ساهم القدريّون بتأليب النّاس على الوليد لموقفه المتشدّد منهم، وعدم السّماح لهم بمغادرة جزيرة دهلك الّتي نفاهم إليها هشام من قبل[٢].

ومع أنّ يزيد كان هو الآخر ابن جارية إلّا أنّه سعى لتجاوز هذه العقبة الّتي تعيق طموحه الشّديد بظهوره بمظهر التّقي الورع حتّى يكسب تأييد العامّة، ويرى (لامانس) أنّ هذا الاستثناء لمصلحة يزيد كان مدمّراً[٣].

ويطرح يزيد -في هذه الخطبة المنسوبة له- مبدأ الشّورى في انتخاب الخليفة إذ يقول :

"وإن لم أف لكم [فلكم] أن تخلعوني، إلا أن تستتيبوني، فإن أناتبت قبلتم منّي، وإن عرفتم أحداً [يقوم مقامي ممّن] يعرف بالصّلاح يعطيكم من نفسه مثل الّذي أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه، فأنا أوّل من يبايعه، ودخل في طاعته"[٤].

إنّ المدرك لأبعاد المرحلة الحرجة الّتي كانت تمر بها الخلافة في ذلك الوقت، يستغرب أن يدعو يزيد إلى الشّورى المطلقة.. "وإن رأيتم أحداً ..." فمثل هذه الخطوة يصعب اتّخاذها في مرحلة الاستقرار، فكيف يدعو إليها يزيد في جوّ القلق والاضطراب، وفي مرحلة انتقاليّة حاسمة ؟

---

(١) Henri lammens,Melanges, S.I, LE Califat de Yazid, , Vol, IV, 1910,PP.289-290.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٢٣٢.

(٣) Lammens,Melanges, LE Califat deyazid I,P. 293.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ ما يعزّز الشّكّ في نسبة هذه الخطبة ليزيد ما جاء فيها في شأن سياسة الإصلاح الإداريّ والماليّ، إذ جاء فيها :

"أيّها النّاس، إنّ لكم عليّ ألّا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهراً ولا أكنز مالاً، ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً، ولا أنقله من بلد إلى بلد حتّى أسدّ فقر ذلك البلد وخصاصة أهله، فإن فضل فضل نقلته إلى البلد الّذي يليه" [١].

إنّ أيّ إصلاح يأتي به الحاكم المتغلّب غالباً ما يكون نقيضاً لسياسة الحاكم المخلوع، وأوّل القضايا المطروحة للإصلاح "ألّا أضع حجراً على حجر، ولالبنة على لبنة، ولا أكري نهراً" . ومن المعروف أنّ العمران قد بلغ شأناً عظيماً في عهد الوليد بن عبد الملك وكذا من جاء بعده، إذ يذكر الطّبريّ :

"وكان الوليد صاحب بناء واتّخاذ للمصانع والضّياع، وكان النّاس يلتقون في زمانه، فإنّما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع" [٢]. ولكنْ من غير المعقول أن يوقف حاكم حركة العمران من أجل الإصلاح، بل جرى العرف بأن يعد الحاكم بتطوير البلاد في عهده حتّى يكسب تأييد العامة.

وتحمل السّياسة الماليّة المعلنة اتّهاماً للوليد -أو من كان قبله- بأنّه كان يكنز الأموال، وينفقها على نسائه وأولاده، وهذا أمر فيه مبالغة شديدة، فالطّفرة الماديّة الّتي أصابت الدّولة الإسلاميّة جرّاء الفتوحات تناقصت كثيراً بعد توقّفها، بالإضافة إلى الإرباك الماليّ الّذي جرى في عهده لأسباب كثيرة، ولو كان الوليد ثريّاً ويملك أموالاً طائلة لما "اضطر نساءه أن ينفضن الطّيب من شعورهنّ فبيع في الأسواق ودفع ثمنه أعطيات الجند" [٣].

أمّا عن إصلاحاته العسكريّة فقد وعد ألا يجمّر الجند في بعوثهم فيفتنوا ويفتن أهليهم، وأن يجري العطاء في كلّ سنة والرّزق في كلّ شهر[٤].

وأمّا عن مسألة تجمير البعوث، فهو أمر لم يكن وارداً أصلاً قبل يزيد حتى

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ١، ص٢٧٠.
(٢) الطّبريّ ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٤٩٥.
(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص١٠٦.
(٤) المصدر نفسه، حـ، ص٢٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلغيه، إذ لم يكن الجنديّ يغيب عن أهله أكثر من ستّين يوماً، وهي مدّة لا تتجاوز أحكام الشّريعة الإسلاميّة، ولا تؤدّي إلى الفتنة، أمّا المرابطون في الثّغور فقد كانوا يعيشون مع نسائهم وأولادهم[١].

وأمّا مسألة العطاء فإنّ "واردات الخراج والجزية هما المورد الرّئيسيّ للعطاء، لذلك فليس من السّهل دفع العطاء في وقته المحدود (المحرّم) لاعتماد الخراج والجزية على نضوج الأثمار والغلاّت، وفي هذه الحالة كان العطاء يؤخّر عن موعده المقرّر ولا شكّ أنّ لهذا تأثيراً كبيراً في الأحوال العامّة الاقتصاديّة الّتي تعتمد إلى حدّ كبير على العطاء" [٢].

ولم تذكر المصادر أنّ الوليد كان يبخس الجنود عطاءهم حتى يؤدّيه يزيد، بل إنّ الطبري يقول في سبب تسمية يزيد بالنّاقص :

"وإنّما لقّب يزيد النّاقص لنقصه النّاس الزّيادة الّتي زادهموها الوليد بن يزيد في أعطياتهم، وذلك عشرة عشرة، فلمّا قتل الوليد، نقصهم تلك الزّيادة، ورد أعطياتهم إلى ما كانت عليه أيّام هشام بن عبد الملك" [٣].

إنّ الأوضاع الاقتصاديّة الّتي سادت في أواخر أيّام الوليد، وقلّة الأموال الّتي انتقلت إلى يزيد ما كانت لتشجّع على وعود صريحة من النّوع المطروح في هذه الخطبة، ولا أظنّ أنّ يزيد يعد الجند بتحسين أوضاعهم، ثمّ لا يلبث أن ينقص عطاءهم، فهو حاكم متغلّب ولا يمكن أن يخاطر بإثارة جنده وإلاّ سارعوا بالانقلاب عليه.

وأمّا تعريضه بالوليد في قوله :

"ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم عن بلادهم وأقطع به نسلهم" [٤]، فإنّ ما

---

(١) وفيق الدّقدوقي، الجنديّة في عهد الدّولة الأمويّة، الطّبعة الأولى، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٠٧.

(٢) خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربيّ الإسلاميّ في العصر الأمويّ، الطّبعة الثّانية، دار الحريّة، بغداد، ١٩٨٦، ص٩٣.

(٣) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٢٦١-٢٦٢.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ١، ص٦٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذكره الطّبريّ من أنّ الوليد أمر بإخراج أهل قبرص منها للإقامة في الشّام أو الذّهاب إلى بلاد الرّوم[1]، فلم يكن موجّهاً إلى أهل الذّمة من النّصارى، وإلّا لما عرض الشّام عليهم، بل على العكس من ذلك فإنّ علاقته بالنّصارى كانت حسنة، وما فعله الوليد كان بدافع سياسيّ لا دينيّ، ويبدو أنّ المتحاملين على الخلفاء الأمويّين لم يوفّروا الوليد ولا يزيد، إذ شوّهت صورة الاثنين معاً من خلال الخطبة المنسوبة لأحدهما.

(١) الطّبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٢٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثّاني

المعارضة والخلافة

أوّلاً - الشّيعة والخلافة.
ثانيـاً - الخوارج والخلافة.
ثالثـاً - الزّبيريّون والخلافة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوّلاً - الشّيعة والخلافة :

قبل مناقشة ما بين أيدينا من نصوص خطابيّة منسوبة للشّيعة في العصر الأمويّ حول وصول الأمويّين للخلافة دون وجه حقّ، لا بدّ من وقفة على مصطلحين مشكلين عند التّعرّض للفكر الشّيعي هما : "الشّيعة" و "آل البيت".

أمّا مصطلح الشّيعة فإنّ عدداً من الباحثين المعاصرين يستخدمونه دون حذر أو مراعاة للنّشأةالتّاريخيّة له.

فالتّشيّع -بالمعنى الّذي نجده عند أصحاب الفرق الإسلاميّة- لم يعرف قبل نهاية القرن الثّالث الهجريّ[1]، لذا فإنّ أيّ إشارة أو عرض لأفكارهم الدّينيّة في النّصوص الخطابيّة في العصر الأمويّ يجعل الباحث أميل إلى الشّكّ فيه، ويفضّل الباحث نبيه عاقل عند الحديث عنهم في العصر الأمويّ أن يستخدم مصطلح (الشّيعة الأوائل) [2]، وحتّى وجود مثل هؤلاء في تلك الحقبة بحاجة إلى دليل موثوق من كلام الأوائل، إذ لا نراهم يستخدمون هذا المصطلح علماً على أنصار عليّ بن أبي طالب قبل نهاية القرن الثّالث الهجريّ.

وأمّا مصطلح (آل البيت) فإنّ إحسان إلهي ظهير عرض له عرضاً تفصيليّاً يغنينا عن متابعته، وخلص في نهاية الأمر إلى أنّ "المراد من أهل بيت النّبيّ أصلاً وحقيقة أزواجه، عليه الصّلاة والسّلام، ويدخل في الأهل أولاده وأعمامه وأبناؤهم أيضاً تجاوزاً، كما ورد أنّ الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- أدخل في كسائه فاطمة والحسنين وعليّاً، وقال : "اللهم هؤلاء أهل بيتي" [3]. ليجعلهم شاملاً في قوله عزّ وجل : (إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً) [4] كما أدخل عمّه العبّاس وأولاده في عبائه لتشملهم أيضاً هذه الآية.

---

(١) الرّازي : أبو حاتم أحمد بن حمدان، الزّينة في الكلمات الإسلامية، تحقيق : عبد اللّه السّامرّائي، دار واسط للنّشر، بغداد، د.ت.، ق٣، ص٢٥٩-٢٦٢.

(٢) نبيه عاقل، المؤتمر الدّوليّ الرّابع لتاريخ بلاد الشّام، مولد الحزبيّة السّياسيّة وقضية الحكم، ص٩٤.

(٣) الهيثمي: نور الدين عليّ بن أبي بكر، بغية الرّائد في تحقيق مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: عبد اللّه محمّد الدّرويش، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤، حـ٩، ص٢٦٣، حديث رقم ١٤٩٧٢.

(٤) الأحزاب/ ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد وردت بعض الرّوايات الّتي تنصّ على أنّ بني هاشم كلّهم داخلون في أهل بيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم"[١].

ولكنّ القارئ للفكر الشّيعيّ يجد أنّهم قد ربطوا أنفسهم ربطاً وثيقاً بآل البيت، وإنّما "حصروا أهل بيت النّبوّة في هؤلاء الأربعة : عليّ وفاطمة ثمّ الحسن والحسين، وأخرجوا منهم كلّ من سواهم، ثمّ اخترعوا طريقة أخرى، فأخرجوا أولاد عليّ، غير الحسنين، رضي الله عنهم، من أهل البيت، ولا يعدّون بقيّة أولاده من أهل البيت" [٢]، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فأخرجوا الحسن واتّهموه بالكفر لتنازله عن الخلافة لمعاوية، وبقوا على ولائهم للحسين وأبنائه.

وكما سبقت الإشارة إليه في التّمهيد، فإنّ أهل البيت النّبويّ تعرّضوا لهجمة شعوبيّة شرسة شارك فيها الشّيعة "حيث تظاهروا من خلال إيمانهم بمبدأ (التّقية) بحبّهم لآل البيت في الوقت الّذي كانوا قد عملوا كلّ ما من شأنه الإساءة إليهم، والقضاء عليهم" [٣]. وهذا ما سنلمسه حين نعرض لما بين أيدينا من نصوص خطابيّة منسوبة لأصحاب الحقّ الشّرعيّ في الخلافة كما تزعم الشّيعة.

والملاحظة الأولى الّتي يمكن أن تسجّل على المادّة الخطابيّة المنسوبة لهم -إذا تجاوزنا الخطب الّتي نسبت للحسن قبل تنازله عن الخلافة- أنّنا لا نجد سوى خطبة للحسن في معرض جدله مع معاوية وأصحابه، وخطبتين لابن عبّاس إحداهما في الرّدّ على ابن الزّبير، وخطبة للحسين عند البيعة ليزيد، وخطبة لمحمّد بن الحنفيّة في الرّدّ على ابن الزّبير، كما تنسب المصادر لهم وصيّتين: واحدة لأبي هشام عبد الله بن محمّد بن الحنفيّة يوصي محمّد بن عليّ بن عبد الله

---

(١) إحسان إلهي ظهير، الشّيعة وأهل البيت، ص١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠.

(٣) محمّد جاسم المشهداني، وقائع النّدوة القوميّة لمواجهة الدّسّ الشّعوبيّ، الجذور التّاريخيّة للرّواية الشّعوبيّة والموقف النّقدي منها، ص١٥٢. وله كتاب بعنوان "حقيقة التّآمر الأعجميّ للدّسّ على آل البيت" عرض فيه بالتّفصيل لهذه القضية، لكنّني لم أتمكّن من الاطّلاع عليه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن عبّاس في عهد سليمان، وأخرى لمحمّد بن عليّ يوصي رجال دعوته في عهد هشام.

أما الخطب المنسوبة لمؤيّدي استمرار الخلافة في عليّ وأبنائه فلا تعرض لأمر الخلافة بقدر ما تعرض لأطماع الزّعماء أمثال : سليمان بن صرد، والمختار الثّقفيّ، وابن الأشعث، وغيرهم ممن لا ينتسبون للبيت الهاشميّ.

وهكذا فإنّ حصيلة بني هاشم في الدّفاع عن حقهم في الخلافة- كما تصوّره الرّوايات- ستّ خطب ووصيّتان حسب، وسأعرض بعضاً منها للدّراسة النّقديّة ليتبيّن لنا حقيقة الصّراع بين الأمويّين والهاشميّين على الخلافة.

١- خطبة الحسن بن عليّ في الرّدّ على معاوية وأصحابه :

روى ابن أبي الحديد عن الزّبير بن بكّار[١] أنّ رجالاً من أصحاب معاوية اجتمعوا يوماً في مجلسه، وطلبوا أن يبعث للحسن بن عليّ ليسبّوه ويسبّوا أباه، فتردّد معاوية قبل أن يجيبهم، فلمّا حضر الحسن، قام عمرو بن العاص والوليد ابن عقبة وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، فشتموا عليّاً وبني هاشم، واتّهموه بقتل عثمان، فلمّا انتهوا قام الحسن بن عليّ، فحمد اللّه وأثنى عليه، وصلّى على رسوله-صلّى اللّه عليه وآله- ثمّ قال :

"أمّا بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنّك شتمتني، فحشاً ألفته، وسوء رأي عرفت به، وخلقاً سيّئاً ثبتّ عليه، وبغياً علينا، عداوة منك لمحمّد وآله" [٢].

ثمّ قال كلاماً طويلاً عاب فيه معاوية وأباه، وانتقص من شأن أصحابه الجالسين في مجلسه، وأعلى من شأن عليّ وبني هاشم، ثمّ قام فنفض ثوبه وانصرف.

وهذه الخطبة يتوقّف المرء في قبولها للأسباب التّالية :

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٨٥-٢٩٤.

(٢) المصدر نفسه، حـ٦، ص٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ- أنّها لم ترد عند غير ابن أبي الحديد ذي النّزعة الشّيعيّة الاعتزاليّة المتعصّبة على الأمويّين.

ب- أنّ راويها مختلف فيه، ففي حين وثّقه الدّار قطني وأبو بكر الخطيب قال عنه أحمد بن عليّ السّليمانيّ الحافظ : منكر الحديث كذا قال، ولا يدري ما ينطق به، وأقرّ ابن حجر بأخذه عن الضّعفاء[١].

حـ- قول الحسن في بداية الخطبة يتنافى مع ما ذكره ابن أبي الحديد من أنّ معاوية "أعظمه وأكرمه وأجلسه إلى جانبه" [٢]، وكيف يرضى معاوية بشتم سبط الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- في مجلسه بعد أن أكرمه وأعظمه، وقضيّة سبّ الصّحابة كنت قد عرضت لها في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة[٣].

د- تعرض الخطبة لزمن إسلام معاوية وتؤرّخه بفتح مكة "وأنّك وأباك من المؤلّفة قلوبهم"[٤]، في حين اختلفت المصادر في سنة إسلامه، وفي بعض الرّوايات أنّ معاوية أسلم وقت عمرة القضاء ولكنّه كتم إسلامه[٥].

ويؤيّد هذا الرّأي أنّ معاوية عدّ في كتّاب الوحي، ومادام سواد القرآن الكريم قد نزل قبل فتح مكّة فالأرجح أن يكون إسلامه سابق حتّى يستطيع المشاركة في كتابة الوحي.

هـ- أظهرت الخطبة مساوئ معاوية وأبيه قبل الإسلام، ولكنّ كتب التّاريخ لم تسجّل سيّئة واحدة لأبي سفيان أو ابنه قبل إسلامهما، وقد كان زعيم قريش، فكيف سوّده بنو هاشم إذا لم يكن من خيرة الرّجال في الجاهليّة ؟

ويذكر الزّهريّ أنّ أبا سفيان لمّا قدم على هرقل، سأله عن النّبيّ -صلّى

---

(١) العسقلانيّ: ابن حجر، تهذيب التّهذيب، تحقيق : مصطفى عطا، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٤، حـ٣، ص٢٧٧-٢٧٨.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٨٦.

(٣) انظر : الفصل الأول من هذه الدراسة، ص١٦-٢٠.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٨٨-٢٨٩.

(٥) ابن سعد، الطّبقات، حـ٧، ص٤٠٦. وابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، حـ١٦، ص٣٣٩. والذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، حـ٣، ص١٢٠و١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللّه عليه وسلّم- فقال أبو سفيان :

"وأيّم اللّه لولا أن يؤثر عليّ الكذب، لكذبت" [١]. فإذا كان أبو سفيان يرفض الكذب مع كفره، فكيف تنسب له أفعال لا تليق وإسلامه ؟

و- كما جاء في الخطبة قوله :

"أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر وأنت تسوقه، وأخوك عتبة هذا يقوده، فرآكم رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وآله- فقال : "اللّهم العن الرّاكب والقائد والسّائق" [٢] وهذا الحديث باطل لا أصل له، ولم يرد في الأحاديث الضّعيفة ولا الموضوعة.

ولم يقول الرّسول ذلك؟ وهل شاهده الحسن؟

"يذكر ابن أبي الحديد أنّ الحسن ولد في السّنة الثّالثة للهجرة[٣]، وهذا القول -لو صحّ- فإنّه يدلّ على أنّ الحسن كان عمره خمس سنوات عند إسلام أبي سفيان، ولا يمكن له أن يكون شاهد عيان على مثل هذه الحادثة.

ز- تذكر الخطبة أنّ قوله تعالى : ﴿يأيّها الّذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ اللّه لكم﴾[٤] نزل في عليّ حين حرّم الشّهوات على نفسه بين أصحاب الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم-[٥] في حين أنّ سبب نزول هذه الآية مختلف فيه، ولم تتّفق الرّوايات على أسماء الصّحابة.

ففي سنن التّرمذيّ[٦] عن ابن عبّاس أنّ رجلاً أتى النّبي -صلّى اللّه عليه وسلّم- فقال : يا رسول اللّه، إنّي إذا أصبت اللحم انتشرت للنّساء، وأخذتني شهوتي، فحرّمت عليّ اللحم. فأنزل اللّه ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ اللّه لكم..﴾ دون ذكر لاسم الرّجل.

---

(١) الزهري، المغازي النبوية، ص٥٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٨٩.

(٣) المصدر نفسه، حـ١٦، ص٩.

(٤) المائدة / ٨٧.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٨٩.

(٦) الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق : إبراهيم عطوة، دار الحديث، القاهرة، د.ت.، حـ٥، ص٢٥٥-٢٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند القرطبيّ أنّ هذه الآية نزلت في عدد من الصّحابة منهم أبي بكر وعليّ وابن مسعود وابن عمر وأبو ذرّ وسالم مولى أبي حنيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسيّ ومعقل بن مقرّن[١]. أما النّيسابوريّ، فقد ذكر أنّ من زهد في الدّنيا من الصّحابة كانوا عشرة هم : أبو بكر الصّدّيق، وعليّ بن أبي طالب، وعبد اللّه بن مسعود، وعبد اللّه بن عمر وأبو ذرّ الغفاريّ، وسالم مولى أبي حنيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسيّ، ومعقل بن مضر[٢].

ح- وفي الخطبة تعريض بشره معاوية ونهمه، إذ جاء فيها :

"يا معاوية أظنّك لا تعلم أنّي أعلم ما دعا به عليك رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وآله- لمّا أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جذيمة، فبعث إليك ابن عبّاس، فوجدك تأكل، ثمّ بعثه إليك مرّة أخرى، فوجدك تأكل، فدعا عليك رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وآله- بالجوع والنّهم إلى أن تموت" [٣].

أمّا رواية مسلم عن ابن عبّاس، فقدوردت كما يلي :

"عن ابن عبّاس -رضي اللّه عنهما- أنّه كان يلعب مع الصّبيان فجاء له النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- فهرب. وتوارى منه لمّا جاء، فجاء له وضربه ضربة بين كتفيه ثمّ قال : اذهب وادع لي معاوية. قال : فجئت فقلت: هو يأكل. ثمّ قال : اذهب فادع لي معاوية. قال : فجئت، فقلت: هو يأكل. فقال: "لا أشبع اللّه بطنه" [٤].

وقد ذهب ابن حجر الهيتميّ إلى أنّ هذا الحديث لا ينقص من معاوية، وأوّله على وجوه كلّها تنفي شبهة العصيان عنه، وخروج الدّعاء عن معناه الظّاهر[٥].

---

(١) القرطبيّ : محمّد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٩٥٩، حـ٦، ص٢٦٠.

(٢) النّيسابوريّ : أبو الحسن عليّ بن أحمد، أسباب النّزول، عالم الكتب، بيروت، د.ت.ص١٥٣.
انظر أيضاً :
الزّمخشري: جار الله، الكشّاف عن حقائق التّنزيل، دار المعرفة، بيروت، د.ت، حـ١، ص٦٢٩-٦٤٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٠.

(٤) مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، تحقيق : خليل مأمون، الطّبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤، حـ١٦، ص٣٧١، حديث رقم ٦٥٧١.

(٥) الهيتميّ، تطهير الجنان واللسان، تقديم : عبد الوهّاب عبد اللطيف، الطّبعة الثّانية، مكتبة القاهرة، ج.م.ع.، ١٩٦٥، ص٢٨-٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكن معاوية هو الخليفة الأمويّ الوحيد الّذي اتّهم بالشّره، إذ أصاب زياد وسليمان منها حظّ وافر[١].

وجاء في جمهرة النّسب أنّ عبد الله بن الحارث هو من قال لمعاوية: "لا أشبع اللّه بطنك"، حين حجّ معاوية، فدخل ينظر إلى دار عبد شمس بمكّة، وأعقب يقول : "أما تكفيك الخلافة حتّى تجيء فتطلب الدّار، فخرج معاوية وهو يضحك[٢].

ولم يكن معاوية يجهل ما تسبّبه البطنة من علل وأمراض، فقد سأل يوماً رجلاً عن ابن له أكول، فقال له: انحرف مزاجه، فقال معاوية : قد علمت أنّ تلك الأكلة ما كانت تتركه حتّى تهيضه[٣].

ومن يعلم مثل هذا العلم، لا يعقل أن يقع في المحظور.

ط- وتأتي الخطبة على ذكر سبعة مواطن لعن الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- أبا سفيان .

الأوّل : عندما خرج الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- إلى الطّائف يدعو ثقيفاً، فوقع فيه أبو سفيان، وسبّه، وسفّهه، وشتمه، وكذّبه، وتوعّده، وهمّ أن يبطش به، فلعنه اللّه ورسوله، وصرف عنه[٤].

ولكنّ ابن سعد -فيما يروي لنا من أحداث الطّائف- يذكر أنّ من سبّ الرّسول هو ابن الغيطلة لا أبا سفيان، إذ يقول :

"وسبّ ابن الغيطلة النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- فأقبل عليه أبو لهب فنال منه" [٥].

---

(١) انظر :
حبيب زيات، مجلّة المشرق، مزاعم المؤرّخين العبّاسيّين في وصف شره الأمويّين، السّنة الثّانية والأربعون، نيسان - حزيران، ١٩٤٨، ص١٦١-١٦٨.

(٢) الكلبيّ: هشام بن محمّد، جمهرة النّسب، تحقيق : ناجي حسين، الطّبعة الأولى، عالم الكتب ومكتبة النّهضة العربيّة، بيروت، ١٩٨٦، حـ١، ص٥٨-٥٩.

(٣) ابن الطقطقيّ، الفخريّ في الآداب السّلطانيّة، ص١٠٠.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٠.

(٥) ابن سعد، الطّبقات الكبرى، حـ١، ص٢١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علماً بأنّ أبا لهب لعنه اللّه في القرآن فلم لم يلعن أبا سفيان، ومعروف أنّ من يلعنه اللّه لا يمكن أن يدخل في رحمته، وأبو سفيان أسلم وقال فيه الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" (١).

إنّ الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- لم يبعث لعّاناً ولا صخّاباً، وعن عائشة -رضي اللّه عنها- قالت : دخل رهط من اليهود على رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- فقالوا : السّام عليك. قالت عائشة : ففهمتها، فقلت : عليكم السّام واللعنة، قالت : فقال رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- : "مهلاً يا عائشة، إنّ اللّه -عزّ وجلّ- يحب الرّفق في الأمر كله"، قالت : قلت : يا رسول اللّه، ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : "فقد قلت: وعليكم" (٢).

ومثل هذا الدّعاء أذى للرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- وسبّ له، ومع ذلك نهى الرّسول عائشة عن السّبّ، فكيف يقع فيما ينهى عنه ؟

وقد أورد ابن تيمية في كتابه "الصّارم المسلول في الرّدّ على شاتم الرّسول"(٣) مواقف لأناس آذوا الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- وسبّوه، فكان كما قال اللّه تعالى عنه : ﴿وإنّك لعلى خلق عظيم﴾ (٤).

ولم تأت المصادر على ذكر أبي سفيان في أحداث الطّائف.

والثّاني : حين طرد العير وساحل بها، إذ عرض لها الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- قبيل غزوة بدر(٥).

وهذا أمر توقّفت المصادر عن ذكره كذلك.

والثّالث : يوم أحد، حين نادى اعل هبل مراراً، "فلعنه الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- عشر مرّات ولعنه المسلمون" (٦).

---

(١) صحيح مسلم، حـ١٢، ص٣٤٦، حديث رقم ٤٦٠٠.

(٢) المسند، حـ١٠، ص٧، حديث رقم ٢٥٦٩١.

(٣) ابن تيمية، الصّارم المسلول في الرّدّ على شاتم الرّسول، تحقيق : محمّد محي الدّين، بيروت، لبنان، ١٩٧٨، ص٢٢٣-٢٤٠.

(٤) القلم/٤.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٠.

(٦) المصدر نفسه، حـ٦، ص٢٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم تثبت المصادر المتقدّمة هذه الحادثة، وكل ما ذكره الزّهريّ في المغازي أنّ أبا سفيان قال : اعل هبل. فقال عمر بن الخطاب:اللّه أعلى وأجل، فقال : أنعمت عينا، قتلى بقتلى بدر، فقال عمر: لا يستوي القتلى، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: لقد خبنا إذا. ثم انصرفوا راجعين[1]. كما أورد ابن سعد في الطبقات أنّ أبا سفيان جعل يرتجز ويقول : اعل هبل، اعل هبل! فقال رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- : ألا تجيبونه؟ قالوا : يا رسول اللّه، بماذا نجيبه؟ قال : قولوا اللّه أعلى وأجل. قال أبو سفيان: لنا العزّى ولاعزّى لكم! فقال رسول الله -صلّى اللّه عليه وسلّم-:ألا تجيبونه؟ قالوا: وبماذا نجيبه يا رسول اللّه؟ قال: قولوا : اللّه مولانا ولا مولى لكم[2].

كما يورد الطّبريّ هذه الرّوايات مع اختلافات، إلّا أنّه لم يشر إلى لعن أبي سفيان[3].

والرّابع : يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلعنه رسول اللّه وابتهل[4].

ولكنّ ابن سعد -لمّا أورد هذه الحادثة في طبقاته- أثبت ابتهال الرّسول ولم يذكر أنّه لعن أحداً. تقول الرّواية :

"حين دسّ أبو سفيان حييّ بن أخطب إلى بني قريظة يسألهم أن ينقضوا العهد الّذي بينهم وبين رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- ويكونوا معهم عليه، فامتنعوا من ذلك، ثمّ أجابوا إليه، وبلغ ذلك النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- فقال: حسبنا اللّه، ونعم الوكيل" [5].

وفي رواية أخرى عن محمّد بن حميد العبديّ عن معمر عن الزهريّ، عن أبي المسيّب، قال : "لمّا كان يوم الأحزاب حصر النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم-

---

(١) الزّهريّ، المغازي النبويّة، ص٧٨.
(٢) ابن سعد، الطّبقات، حـ٢، ص٤٧-٤٨.
(٣) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٢، ص٥٢١-٥٢٢.
(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٠.
(٥) ابن سعد، الطّبقات، حـ٢، ص٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأصحابه بضع عشرة ليلة حتّى خلص إلى كلّ امرئ منهم الكرب، وحتّى قال النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- : اللهم إنّي أنشدك عهدك ووعدك، اللهمّ إن تشأ لا تعبد" [١].

وفي رواية ثالثة عن عتّاب عن زياد عن عبد اللّه بن المبارك قال: "أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد أنّه سمع عبد اللّه بن أبي أوفى يقول : دعا رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- يوم الأحزاب على المشركين، فقال : اللهمّ منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهمّ اهزمهم وزلزلهم" [٢].

والخامس : "يوم جاء أبو سفيان في قريش، فصدّوا رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وآله- عن المسجد الحرام، والهدى معكوفا أن يبلغ محلّه ذلك يوم الحديبية، فلعن رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وآله- أبا سفيان، ولعن القادة والأتباع، وقال: "ملعونون كلّهم، وليس فيهم من يؤمن" فقيل : يا رسول الله، أفما يرجى الإسلام من أحد منهم، فكيف باللعنة؟ فقال: ولا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع، وأمّا القادة فلا يفلح منهم أحد" [٣]. والحديث الوارد في هذا الموضع لا أصل له.

والسّادس : يوم الجمل الأحمر[٤].

وهذا اليوم لم يأت الطّبريّ فيه على ذكر أبي سفيان، وكان الاسم البارز في هذه الحادثة حكيم بن حزام، إذ يروي الطّبريّ : "فلمّا نزل النّاس، أقبل نفر من قريش، حتّى وردوا حوض رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- فقال : "دعوهم فما شرب منهم رجل إلّا قتل يومئذ" إلّا ما كان من حكيم بن حزام، فإنّه لم يقتل، نجا على فرس له يقال له الوجيه، وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: "لا والّذي نجّاني يوم بدر" [٥].

والسّابع : يوم وقفوا لرسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- في العقبة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٠.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩١.

(٥) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٢، ص٤٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليستنفروا ناقته، وكانوا اثنى عشر رجلاً منهم أبو سفيان[١].

وهذه الحادثة ممّا لم يأت ذكره فيما روته المصادر عن بيعة العقبة.

وممّا يعزّز الشّكّ في لعن الرّسول لأبي سفيان ما رواه مسلم عن أبي هريرة -رضي اللّه عنه- قال: قيل يا رسول اللّه، ادع اللّه على المشركين. قال : إنّي لم أبعث لعّاناً وإنّما بعثت رحمة" [٢].

وقد أجاز الفقهاء لعن الكفّار عامّاً، ولم يجوّز أكثرهم لعن المعيّن لاحتمال إسلامه[٣].

ي- وتعرّض هذه الخطبة بعمرو بن العاص في أمور عدّة [٤]:

١- انتسابه لأبيه.

٢- موقفه من الدّعوة قبل الإسلام.

٣- لحاقه بمهاجري الحبشة، وتعريضه ببني هاشم بأبيات من الشّعر.

٤- انتهاك عمارة بن الوليد لعرضه.

٥- عداوته لبني هاشم في الجاهليّة والإسلام.

٦- هجائه الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- بسبعين بيتاً من الشّعر، فقال رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وآله- : "اللهمّ إنّي لا أقول الشّعر ولا ينبغي لي، اللهمّ العنه بكلّ حرف ألف لعنة".

٧- موقفه من مقتل عثمان.

إنّ عمرو بن العاص من أكثر الصّحابة الّذين شوّهت صورهم، وغبنوا حقّهم في التّاريخ الإسلاميّ، وما جاء في هذه الخطبة غيض من فيض تناقلته المصادر طوال العصور في الطّعن على هذا الصّحابيّ الجليل.

وموقفه من الدّعوة الإسلاميّة ما كان بدعاً فيه، فكثير من الصّحابة آذوا الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- قبل أن يهديهم اللّه إلى الإسلام دون أن يجرح

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ٦، ص٢٩١.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، جـ١٦، ص ٣٦٦، حديث رقم ٦٥٥٦.

(٣) المقدسيّ : شمس الدّين، الآداب الشّرعيّة والمنح المرعيّة، مؤسّسة قرطبة، مصر، د.ت، جـ١، ص٢٦٩.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ٦، ص٢٩١-٢٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك عدالتهم وحسن صحبتهم؛ فلماذا خصّ عمرو بهذا ؟

وأمّا الأبيات الشّعريّة المنسوبة له فلا يعقل أن يقدم عمرو على التّعريض ببني هاشم، وهم على ما هم عليه من شأن بين النّاس، دون أن يناله أذى منهم، ولو حدث ذلك لما توانت هذه الخطبة -الّتي تعرض وتنتحل المثالب- من الإشارة إليه.

وما ورد على لسان الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- لا أصل له، وسبق أن عرضت لمسألة اللعن هذه.

وأمّا قوله "وباللّه ما نصرت عثمان حيّاً ولا غضبت له مقتولاً" [١] فما هو بدع في الطّعن على الصّحابة، إذ "انتدبت المردة والجهلة إلى أن يقولوا : إنّ كلّ فاضل من الصّحابة كان عليه مشاغباً مؤلّباً، وبما جرى عليه راضياً، واخترعوا كتاباً فيه فصاحة وأمثال كتب عثمان به إلى عليّ -وذلك كلّه مصنوع- ليوغروا قلوب المسلمين على السّلف الماضين والخلفاء الرّاشدين... فالّذي ينخل من ذلك أنّ عثمان مظلوم، فمحجوج بغير حجة، وأنّ الصّحابة براء من دمه بأجمعهم، لأنّهم أتوا إرادته، وسلّموا له رأيه في إسلام نفسه" [٢].

وعمرو بن العاص هذا هو الّذي قال فيه الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- : "أسلم النّاس، وآمن عمرو بن العاص" [٣] وقال فيه : "إنّ عمرو بن العاص من صالحي قريش" [٤].

ك. عرّضت هذه الخطبة بالوليد بن عقبة في ثلاثة أمور[٥]:

الأوّل : نسبه.

والثّاني : اتّهامه بالفسق في موضعين من القرآن الكريم.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩١-٢٩٢.

(٢) ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص١٣٩-١٤٠.

(٣) ابن عبد البرّ: أبو عمر يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق : عليّ البجاويّ، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د.ت.، حـ٣، ص١١٨٧. وعبد الخالق أبو رابية، عمرو بن العاص بين يديّ التّاريخ، الطّبعة الأولى، الزّهراء للإعلام العربيّ، القاهرة، ١٩٨٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص٢٥-٢٦.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٢-٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والثّالث : إقامة عليّ حدّ الخمر عليه.

ومن العجيب أن يقال للوليد : "ما أنت وقريش ؟ إنّما أنت علج* من أعلاج صفّوريّة" **.

فاتّهام الوليد في نسبه القرشيّ الصّميم لا يمكن أن يصدر عن الحسن أو غيره، فعلماء الأنساب أجمعوا على أنّه الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو ابن أميّة بن عبد شمس[١]، أي أنّه ينتمي إلى بطن من أكبر بطون قريش، وهو أخو أمير المؤمنين عثمان بن عفّان من أمّه [٢]، فمن أين يأتيه النّسب الأعجميّ ؟

والموضع الأوّل الّذي اتّهم فيه بالفسق، ما ترويه هذه الخطبة من نزاع حدث بينه وبين عليّ بن أبي طالب[٣]، فنزل قوله تعالى: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾[٤]، إلّا أنّ المفسّرين اختلفوا فيمن نزلت الآية، ويذكر السّيوطيّ في رواية رواها عن ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عبّاس -رضي اللّه عنهما- أنّها نزلت في عقبة بن أبي معيط[٥].

وأمّا قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾،[٦] فإنّ الرّوايات لم تتّفق على اسم هذا الفاسق، ومع ورود اسم الوليد بن عقبة في كثير من الرّوايات، فإنّ بعضاً منها اتّجه إلى خالد بن الوليد، ولكنّ أرجح الرّوايات

---

* العلج : الرّجل من كفّار العجم.
انظر :
الجوهريّ : إسماعيل بن حمّاد، الصّحاح، تحقيق : أحمد عبد الغفور ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤، مادّة (ع ل ج). حـ١، ص٣٣٠.

** صفّوريّة: كورة وبلدة من نواحي الأردنّ بالشّام وهي قرب طبريّة.
انظر:
الحمويّ: ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.، جـ٣، ص٤١٤.

(١) الكلبيّ، جمهرة النّسب، حـ١، ص٥١-٥٢. والزّبيريّ : مصعب بن عبد اللّه، نسب قريش، تحقيق : إيفاريست ليفي، برونسال، دار المعارف، القاهرة، د.ت.، ص١٢٨. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١١٤.

(٢) الذّهبيّ : شمس الدّين، سير أعلام النّبلاء، تحقيق : عمر عبد السّلام، الطّبعة الأولى، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٩، حـ٣، ص٤١٣.

(٣) ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٢.

(٤) السّجدة/١٨.

(٥) السّيوطيّ، الدّر المنثور، الطّبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣، حـ٦، ص٥٥٣.

(٦) الحجرات/٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الّتي ابتعدت عن الطّعن على الصّحابة -عند تفسير هذه الآية- ما قاله الحسن البصريّ من أنّ رجلاً أتى النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- فقال : يا نبيّ اللّه، إنّ بني فلان -حيّاً من أحياء العرب- وكان في نفسه عليهم شيء... إلى آخر هذه الرّواية، إذ لم يذكر اسم الرّجل، ويبدو من السّياق -أنّه لم يكن أحد الصّحابة [١].

وقد ناقش ابن العربيّ هذا القول المزعوم، وأثبت صغر سنّ الوليد آنذاك، وأنّه لا يعقل أن يرسله النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- مصدّقاً [٢].

وأمّا حدّه في الخمر، فإنّ المصادر تذكر أنّه كان في عهد عثمان لا عليّ، ولا سيّما أنّ عمرو اعتزل النّاس بعد مقتل عثمان في ضيعة له منقطعة عن صخب المجتمع، وقد ناقش ابن العربيّ هذه التّهمة الباطلة وردّها عن هذا الصّحابيّ الجليل[٣].

د. وعرّضت بعتبة في موضعين[٤] :

الأوّل : سكوته عن اللحيانيّ، وقد وجده في فراشه .

والثّاني : قتل والد الحسن لخال عتبة، وشرك حمزة في قتل حنظلة أخي عتبة وجدّه.

والأمر الأوّل لم أجد له ذكراً في المصادر، أمّا الثّاني فلا مسوّغ لذكره، لأنّ المسلمين وقفوا موقفاً مشرّفاً في جهاد أعداء اللّه، وكلّ مسلم صادق في إسلامه يسقط مثل هذه الاعتبارات والثّارات الجاهليّة.

م. كما عرّضت بالمغيرة في موضعين[٥] :

الأوّل : نسبه.

والثّاني : قذفه بالزّنا

---

(١) محمّد عبد الرّحيم، تفسير الحسن البصريّ، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٢) ابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص٩٠-٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٣.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٣-٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتّعريض بالمغيرة هنا في نسبه لأنّه من قبيلة ثقيف، وهي لم تكن توازي قريشاً منزلة.

وأمّا ما ذكرته الخطبة من سؤال المغيرة للرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- عن نظر الرّجل إلى المرأة طالباً الزّواج بها، وقوله -عليه الصّلاة والسّلام- : "ما لم ينو الزّنا" والاستدلال من ذلك على سوء نية المغيرة، فهو لا أصل له.

وقد أورد الإمام أحمد في مسنده نصّ الحديث عن المغيرة كما يلي :

عن المغيرة بن شعبة، قال: أتيت النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- فذكرت له امرأة أخطبها، فقال: "اذهب فانظر إليها، فإنّه أجدر أن يؤدم بينكما" [1].

ن- يسجّل البلاذريّ للحسن موقفاً لا يمتّ بصلة لهذا الموقف، يقول في الأنساب :

قال سعيد بن عبد العزيز التّنوخيّ، عن الزّهريّ : تفاخرت قريش عند معاوية، وعنده الحسن، وهو ساكت، فقال معاوية : ما يمنعك [يا] أبا محمّد من الكلام؛ فو اللّه ما أنت بكليل اللسان، ولا مأشوب الحسب، فقال : واللّه ما ذكروا مكرمة ولا فضيلة، إلّا ولي محضها ولبابها" [2] ولم يأت على ذكر مساوئ أحد، فكيف تتناقض إجاباته والموقف واحد ؟

ص. وفي نهاية هذه الخطبة -الّتي طالت طولاً غير مألوف في العصر الأمويّ- يقول[3] :

وأمّا فخركم علينا بالإمارة، فإنّ اللّه تعالى يقول : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية

---

(١) ابن حنبل، المسند، حـ٦، ص٣٢٧، حديث رقم ١٨١٦٠.
وفي مقابل ذلك وضع الشّيعة الكثير من الأحاديث على لسان الرّسول -عليه الصّلاة والسلام- تُعلي من شان عليّ بصورة مبالغ فيها.
انظر :
النّسائيّ : أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب، تهذيب خصائص الإمام عليّ، تحقيق أبو إسحاق الجوينيّ، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٤.

(٢) البلاذريّ، أنساب الأشراف، تحقيق : محمّد باقر المحموديّ، الطّبعة الأولى، دار التّعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٧، حـ٣، ص١٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٦، ص٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً [1] فكيف يفخرون بالإمارة وهي ليست جديدة على البيت الأمويّ، فأبو سفيان كان الزّعيم السّياسيّ للعرب والحسن يعرف ذلك، ومادام الحسن يردّ على معاوية في هذا الأمر فلم تنازل له عن الخلافة ؟

والاستشهاد بالآية ليس له موضع هنا، فهي في سياق مختلف، واتّهام معاوية بالفسق يعدّ قذفاً ما لم يأت الحسن بأدلّة عليه، وهو ما لم يثبت، وتنفيه الأحاديث الصّحيحة في فضل معاوية.

ويورد البخاريّ في كتاب "مناقب قريش" خطبة لمعاوية يروي فيها عن الرّسول استمرار الخلافة في قريش ما أقاموا الدّين، ولو لم يكن معاوية مقيماً له لكان حجّة عليه. تقول الرّواية:"إنّ معاوية بلغه أنّ عبد اللّه بن عمرو بن العاص يحدّث أنّه سيكون ملك من قحطان فغضب معاوية، فقام فأثنى على اللّه بما هو أهله، ثمّ قال :

أمّا بعد، فإنّه بلغني أنّ رجالاً منكم يتحدّثون أحاديث ليست في كتاب اللّه، ولا تؤثر عن رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- فأولئك جهالكم، فإيّاكم والأمانيّ الّتي تضلّ أهلها، فإنّي سمعت رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- يقول : إنّ هذا في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبّه اللّه على وجهه ما أقاموا الدّين" [2].

إن هذا العرض التّفصيليّ لهذه الخطبة، وكلّ ما تحمله من تناقض واضطراب، ينفي نسبتها للحسن جملة وتفصيلاً. ونخلص بهذا إلى أنّ الحسن لم يطمح للخلافة بعد أن تنازل عنها، وأنّه لم يدر صراع حول الحكم بينهما، وكلّ ما جاء في هذه الخطبة -على لسان الحسن- إنّما هو تشويه متعمّد لحقيقة مادار من أحداث وخلافات حول الخلافة بعد نشوء فرقة الشّيعة والفرق الأخرى، وطعنت هذه الرّواية- على لسان معاوية والمغيرة وعتبة والوليد- في بني هاشم، كما طعنت في الأمويّين، على لسان الحسن، حيث يجد الباحث نفسه أمام مثالب

---

(١) الإسراء/١٦

(٢) البخاريّ، صحيح البخاريّ، حـ٤، ص٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونعرات جاهليّة أثارها الحاقدون على الإسلام ورجاله، دون أن تتطرّق إلى موضوع الخلاف الّذي لم يكن قائماً أصلاً.

٢- خطبة الحسين عند البيعة ليزيد :

تنسب المصادر للحسين خطبة عند البيعة ليزيد، جاء فيها :

"أمّا بعد يا معاوية، فلن يؤدّي القائل - وإن أطنب- في صفة الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- من جميع جزءاً ، قد فهمت ما ألبست به الخلف بعد رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- من إيجاز الصّفة، والتّنكّب عن استبلاغ البيعة إلخ..." [١].

وهذه الخطبة مشكوك في صحّة نسبتها للحسين لأسباب عدّة أهمّها :

١- أنّها أغرقت في الزّخارف اللفظيّة، والصّنعة البديعيّة في قوله : "فضح الصّبح فحمة الدّجى، وبهرت الشّمس أنوار السّرج، ولقد فضلت حتّى أسرفت، واستأثرت حتّى أجحفت، ومنعت حتّى بخلت، وجرت حتّى جاوزت، ما بذلت لذي حق من أتمّ حقه بنصيب، حتّى أخذ الشّيطان حظّه الأوفر، ونصيبه الأكمل" [٢] وهو أمر لم يعهده العصر الأمويّ.

٢- أنّها تعارض حقيقة موقف الحسين من بيعة يزيد كما سبقت الإشارة إليه في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة [٣].

٣- أنّها تعرّض بيزيد : "وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله، وسياسة لأمّة محمّد -صلّى اللّه عليه وآله- تريد أن توهم النّاس في يزيد، كأنّك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد بما أخذ به من استقرائه الكلاب المتهارشة عند التّحارش، والحمام السّبّق لأترابهن، والقينات ذوات

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢١٠، ومؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص١٩٣-١٩٤.

(٢) المصدران نفساهما.

(٣) انظر :
الفصل الأوّل من هذه الدّراسة، البيعة ليزيد، ص ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦- أنّ ما عرضته الخطبة من حكم الاحتجاج بالمنسوخ من أفعال الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- في قوله :

"فكيف تحتجّ بالمنسوخ من فعل الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- في أوكد الأحكام، وأولاها بالمجتمع عليه من الصّواب" [1].

فهو :

أ- قائم على حديث لا أصل له.

ب- يظهر ثبات قضيّة النّاسخ والمنسوخ في الحديث النبويّ. ومع أنّ الصّحابة عنوا بهذه المسألة [2]، فإنّ الخطبة تبدو وكأنها تعرض لمسألة قد فرغ منها، ولم يكن الأمر كذلك في تلك الحقبة المبكرة.

٣- خطبة عبد الله بن عبّاس :

أورد صاحب "العقد" خطبة مسجوعة منسوبة لابن عبّاس، جاء فيها :

"ليس حيّ يفخرون بأمر إلا وجنبهم من يشركهم إلّا قريشاً، فإنّهم يفخرون بالنّبوّة الّتي لا يشاركون فيها، ولا يساوون بها، ولا يدفعون عنها، وأشهد أنّ الله لم يجعل محمّداً من قريش إلّا وقريش خير البريّة، ولم يجعله في بني عبد المطّلب إلّا وهم خير بني هاشم، يريد أن يفخر عليكم إلّا بما تفخرون به، إن بنا فتح الأمر وبنا يختم، ولك ملك معجّل، ولنا ملك مؤجّل، فإن يكن ملككم قبل ملكنا، فليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة، والعاقبة للمتّقين" [3].

ولعلّ من أسباب الشّكّ في هذه الخطبة ثلاثة أمور :

الأوّل : جعل النّبوّة شأناً خاصاً في بني عبد المطلب من قريش دون غيرهم، والرّسول أرسل للنّاس كافّة.

---

(١) المصدران نفساهما.

(٢) الهمذانيّ : أبو بكر محمّد بن موسى، الاعتبار في النّاسخ والمنسوخ من الآثار، دار الطّباعة المنيريّة، القاهرة، ١٣٤٦ هـ، ص٤.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعازف، وضروب الملاهي، تجده ناصراً" [١].

إنّ هذه العبارات الّتي صيغت بأسلوب المذهب الكلامي لم تنشأ إلّا في العصر العباسي، كما أنّها تقدّم صورة سلبيّة ليزيد، وهي مآخذ ساهم الشّيعة والشّعوبيون في نشرها وترسيخها في الأذهان. وقد عرضت فريال هديب في أطروحتها لهذا الأمر وفنّدته جملة وتفصيلاً [٢].

٤- وهذه الخطبة على خلاف سابقتها، تعرض لحق بني هاشم في الخلافة :

"ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آبائنا تراثاً، ولقد -لعمر اللّه- أورثنا الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- ولادة" [٣].

والسّؤال الّذي ينشأ هنا :

كيف يعيب الهاشميّون على الأمويّين تحويل الخلافة هرقليّة وكسرويّة، وهم أنفسهم لا يطالبون إلّا بذلك؟

إنّ ما تعرضه هذه الخطبة -على لسان الحسين- من أنّ الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- أورث أحفاده الخلافة إنّما هو عينه ما عاب به معاوية، ولم يثبت في الأحاديث الصّحاح أنّ الرّسول -عليه السّلام- قد أوصى بذلك، بل إنّه قال: "لا نورّث، ما تركنا صدقة" [٤]، كما جاء على لسان عليّ حين طلب منه النّاس أن يستخلف بعده الحسن: "لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر" [٥].

٥- وما ورد في هذه الخطبة من أنّ معاوية احتج في البيعة ليزيد بتولية الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- عمرو بن العاص أمراً للمسلمين، ثمّ رجوعه عن ذلك لمّا أنف القوم إمرته، وكرهوا تقديمه وأنفوا أفعاله، فقال الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- : "لا جرم معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري" [٦]، فلا أصل له.

---

(١) المصدران نفساهما.

(٢) فريال هديب، صورة يزيد بن معاوية، ص٨٦ وما بعدها.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢١٠. ومؤلف مجهول، الإمامةوالسياسة، ص١٩٤.

(٤) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق : محبّ الدّين الخطيب، الطّبعة الأولى، دار الرّيّان للتّراث، القاهرة، ١٩٨٧، حـ١٢، ص٧، حديث رقم ٦٧٢٦.

(٥) المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٢، ص٤٢٥.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢١٠. ومؤلّف من القرن الثّالث، الإمامةوالسياسة، ص١٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والثّاني : النّظر إلى هذه الخلافة على أنّها ملك، وكثيراً ما يعرض لنا مخاطبة بعض خلفاء بني أميّة بالملك، مع أنّ هذا اللقب لم يعرف "بصفة رسميّة في صدر الإسلام، ولا في العصر الأمويّ، إذ اقتصر حينئذ على تلقيب الوالي الأعلى بالخليفة وبأمير المؤمنين، والولاة الفرعيّين بالعمّال أو الأمراء أو (الولاة)" [١].

والثّالث : أنّ هذه الخطبة تمثل نبوءة قيام دولة بني العبّاس، واستمرارها طويلاً، وما كان ابن عبّاس ليصدر عنه ذلك، ولكنّ الأرجح أنّ المتأخّرين وضعوها على لسانه كي يعزّزوا شرعيّة وجودهم وحكمهم من جدّهم الأكبر الّذي ينسبون أنفسهم إليه.

وتُنسب له خطبة أخرى يردّ فيها على ابن الزّبير وقد عاب بني هاشم[٢]، تمجّد قريشاً -عامّة- وبني هاشم -خاصّة- ولا تعدو أن تكون أكثر من دعاوى جاهليّة تبيّن تفوّق الهاشميّين على غيرهم، وتطعن في الزّبير وأبيه، والعجيب أن يطعن ابن عبّاس في حواري رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وأحد العشرة المبشّرين بالجنّة !

وفي الخطبة محاولة لكسب تأييد العلويّين، إذ جاء فيها :

"ثمّ إنّ أسبق السّابقين إليه منّا وابن عمّنا، ثمّ تلاه في السّبق أهلنا ولحمتنا واحداً بعد واحد" [٢].

ومن المعروف أنّ العبّاسيّين دأبوا منذ تولّيهم الخلافة على تقريب العلويّين ليأمنوا شرّهم، ولا يستبعد أنّها وضعت في عصرهم، ولا سيّما أنّنا لا نجد لها ذكراً قبل ابن أبي الحديد.

---

(١) حسن الباشا، الألقاب الإسلاميّة في التّاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، ١٩٥٧، ص٤١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٩، ص٣٢٤-٣٢٧.
كما وردت روايات مختلفة عن الخلاف بينهما في :
مؤلّف مجهول، أخبار الدّولة العبّاسيّة، تحقيق : عبد العزيز الدّوريّ وعبد الجبّار المطلبيّ، دار الطّليعة، بيروت، ١٩٧١، ص٩٠-١١٧ .

(٣) المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤- خطبة محمّد بن الحنفيّة :

ينسب اليعقوبيّ لابن الحنفيّة خطبة في الرّدّ على ابن الزّبير، جاء فيها :

"يا معشر قريش، وما ميّزني من بني الفواطم ؟ أليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدّتي وأمّ أبي؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم جدّة أبي وأمّ جدّتي؟ أما واللّه لولا خديجة بنت خويلد لما تركت من بني أسد عظماً الّا هشّمته، فإنّي بتلك الّتي فيها المعاب بصير" (١).

إنّ ما تعرضه هذه الخطبة -ضمن السّياق التّاريخيّ- لم يكن له وجود في العصر الأمويّ، فالاختلاف بين بني الفواطم وبني حنيفة إنّما هو تعبير متأخّر عن وجهات النّظر في أحقيّة الخلافة عند بعض فرق الشّيعة، فالزّيديّة ساقت الإمامة في أولاد فاطمة -رضي اللّه عنها- ولم يجوّزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، والكيسانيّة تقول بإمامة محمّد بن الحنفيّة(٢).

كما أنّ المصادر المتقدّمة لم تذكر أنّ ابن الحنفيّة كان طامحاً للخلافة، فلا مسوّغ لتنقيبه عن مآثر تلصقه بها، وتكسبه تأييد العامّة، ولا سيّما أنّ ابن سعد أورد رسالة من ابن الحنفيّة إلى عبد الملك يبايعه بالخلافة، ولو كان طامحاً إليها ما بايع قط، وقد جاء فيها :

"أمّا بعد، فإنّي لمّا رأيت الأمّة قد اختلفت اعتزلتهم، فلمّا أمضى هذا الأمر إليك، وبايعك النّاس، كنت كرجل منهم، أدخل في صالح مادخلوا فيه، فقد بايعتك، وبايعت الحجّاج لك، وبعثت إليك ببيعتي. ورأيت النّاس قد اجتمعوا عليك، ونحن نحبّ أن تؤمّننا وتعطينا ميثاقاً على الوفاء، فإنّ الغدر لا خير فيه، فإن أبيت

---

(١) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢٦١-٢٦٢

قابل بـ :

المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص٨٩.

(٢) انظر :

الشهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص١٣١-١٤٣.

والقلهاتيّ؛ محمّد بن سعيد، الفرق الإسلاميّة من خلال الكشف والبيان، تحقيق : محمّد عبد الجليل، الجامعة التّونسيّة، تونس، ١٩٨٤، ص٢٧٤ و ص٢٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأرض اللّه واسعة" [١].

ولعلّ قــوله (ورأيت النّاس ... إلى آخــرها) زيادة من الرّاوي أو النّاسخ لاختلاف النّفس والصّياغة.

فإذا لم يثبت أنّ الحسن والحسين ومحمّد أبناء عليّ وابن عمّهم عبد اللّه قد طالبوا أصلاً بالخلافة فكيف ينادي رجل كالمختار -في الخطبة المنسوبة له في الكوفة- بدم الحسين قائلاً : "فإنّ المهديّ ابن الوصيّ محمّد بن عليّ بعثني إليكم وزيراً ومنتخباً وأميراً، وأمرني بقتال الملحدين، والطّلب بدماء أهل بيته، والدّفع عن الضّعفاء" [٢] ؟ هذا وإنّ منصب الوزارة لم يعرف قبل العصر العباسيّ[٣]، وقوله (الدّفع عن الضّعفاء) مفهوم شيعيّ متأخر.

وكيف ينادي خندق الأسديّ في النّاس في موسم الحجّ :

"أيّها النّاس، إنّكم على غير حقّ، قد تركتم أهل بيت نبيّكم، والحقّ لهم، وهم الأئمّة" [٤] ؟

ثانياً - الخوارج والخلافة :

عند استعراضنا لما خلّفته الحركة الخارجيّة من خطب نجده ضئيلاً جداً بالقياس إلى الدّور المميز الّذي قامت به هذه الحركة في العصر الأمويّ، ويرى نايف معروف "أنّ القسم الأكبر من ثروة الخوارج النّثريّة قد فقد"[٥]، ودلّل على رأيه بعدد من القرائن هي [٦]:

١- وقوعه على أسماء عدد من خطبائهم لم يصل إلينا أيّ خطبة لأيّ واحد منهم.

٢- أنّ ما وصل إلينا لا يتناسب -كمّاً- وشهرة خطبائهم، كما لا يتناسب وحجم مسؤوليّاتهم القياديّة الّتي تتطلّب الكثير من المواقف الخطابيّة.

---

(١) ابن سعد، الطّبقات، جـ٥، ص١١١.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، جـ٥، ص٥٨.

(٣) ابن خلّكان: أبو العبّاس، وفيات الأعيان، تحقيق:إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠، جـ١، ص٢٢٩.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، جـ١٢، ص٢٠٤.

(٥) نايف محمود معروف، الخوارج في العصر الأمويّ، الطّبعة الأولى، دار الطّليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص٢٩٥.

(٦) المرجع نفسه، ص٢٩٥-٢٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- أنّهم أصحاب دعوة جهروا بها، وتحدّوا الآخرين بحملها، ممّا يفرض عليهم اهتماماً زائداً بالخطابة لنقل آرائهم وحججهم.

٤- لمّا كان أكثرهم من الأعراب، فقد كان أمراً حتماً أن يكثر الفصحاء والبلغاء فيهم.

٥- شهادة خصومهم لهم بعلوّ الكعب في الفصاحة واللسن.

ومن المعروف أنّ موقف الخوارج من الخلافة كان الانطلاقة الأولى لحركتهم، وقد "ظلّ المنصب -لفترة * طويلة- محور اهتمامهم، كما كان سبباً رئيسيّاً لجميع تحرّكاتهم طوال العصر الأمويّ" (١) لذا لا بدّ من الوقوف على النّصوص الخطابيّة المنسوبة لبعض زعمائهم، ومعرفة مدى تمثّلها لآرائهم ومعتقداتهم.

وأولى الملاحظات الّتي أقف عليها -في هذا الشأن- الكمّ الضئيل الّذي وصل إلينا يعرض لرأي الخوارج في الخلافة، مع تباعد الزّمن بينها، حيث نقع على أوّل نصّ خطابيّ خارجيّ في العصر الأمويّ منسوب للمستورد بن علّفة التّميميّ في سنة ٤٣هـ(٢)، وثان لحيّان بن ظبيان، وثالث لمعاذ بن جوين في سنة ٥٨هـ(٣)، ونصّ رابع لصالح بن مسرّح في سنة ٧٦هـ(٤)، ونصّين آخرين لأبي حمزة الشّاري في سنة ١٣٠هـ(٥). وما عدا ذلك من نصوص خطابيّة منسوبة للخوارج خلت من عرض رأيهم في الخلافة.

ويمكن أن تسجّل المآخذ التّالية على النّصوص الثّلاثة الأولى الّتي رواها الطّبريّ في تاريخه وهي :

١- أنّ الّذي رواها جميعاً هو أبو مخنف المعروف بكذبه وتعصّبه للشّيعة مما

---

* الصّواب : مدّة

(١) المرجع نفسه، ص٢١٤.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص١٩٣.

(٣) المصدر نفسه، حـ٥، ص٣٠٩-٣١٠.

(٤) المصدر نفسه، حـ٦، ص٢١٦-٢١٨.

(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٤٩.
وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١١٤-١١٥، وص١١٦-١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتيح له مجالاً للطّعن في الأمويّين من خلال الخوارج.

٢- أنّها خلت خلوّاً تامّاً من أيّة إشارة إلى رأيهم في الخلافة، في حين أنّ الخوارج -إلى زمان الأزارقة- كانوا على رأي المحكّمة الأولى، وكان دينهم إكفار عليّ، وعثمان، وأصحاب الجمل، ومعاوية وأصحابه، والحكمين، ومن رضي بالتّحكيم، وإكفار كلّ ذي ذنب ومعصية" [١].

وقد ظهرت هذه الآراء في رسالة بعثها المستورد إلى سمّاك بن عبيد -برواية أبي مخنف أيضاً- جاء فيها:

"من عبد الله المستورد أمير المؤمنين إلى سمّاك بن عبيد، أمّا بعد، فقد نقمنا على قومنا الجور في الأحكام، وتعطيل الحدود، والاستئثار بالفيء، وإنّا ندعوك إلى كتاب الله -عزّ وجلّ- وسنّة نبيه -صلّى الله عليه وسلّم- وولاية أبي بكر وعمر، والبراءة من عثمان وعليّ، لإحداثهما في الدّين، وتركهما حكم الكتاب، فإن تقبل فقد أدركت رشدك، وإلّا تقبل فقد بالغنا في الإعذار إليك، وقد آذناك بحرب، فنبذنا إليك على سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين" [٢].

٣- لقّب المستورد المسلمين -الّذين لم يروا رأيهم- بـ (أهل الضّلالة) في قوله : "وما خرجت إلا التماس الشّهادة، وأن يهديني الله إلى الكرامة، بهوان بعض أهل الضّلالة"[٣]، والمحكمّة الأولى لقّبتهم بـ (الكفرة) [٤].

٤- دعا معاذ بن جوين في خطبته إلى النّهي عن المنكر :

"وقد جعل لنا القلوب والأسماع حتّى ننكر الظّلم ونغيّر الجور، ونجاهد الظّالمين"[٥]، ومسألة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من المسائل

---

(١) البغداديّ، الفرق بين الفرق، ص٥٤.
انظر أيضاً :
الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ١٠٦-١٠٨.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص١٩٠-١٩١.

(٣) المصدر نفسه، حـ٥، ص١٩٣.

(٤) البغداديّ، الفرق بين الفرق، ص٥٦.

(٥) الطّبريّ، تاريخ الرسل والملوك، حـ٥، ص٣١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفرعيّة الّتي لم تكن موضع عناية الخوارج في ذلك الوقت[١].

وأوّل خطبة حملت آراء الخوارج ومعتقداتهم بوضوح تلك الّتي رواها هشام عن أبي مخنف عن عبد اللّه بن علقمة عن قبيصة الخثعميّ عن صالح بن مسرّح التّميميّ، وجاء فيها:

"ألا إنّ من نعمة اللّه على المؤمنين أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم فعلّمهم الكتاب والحكمة، وزكّاهم، وطهّرهم، ووفّقهم في دينهم، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، حتّى قبضه اللّه، صلوات اللّه عليه، ثمّ ولي الأمر من بعده التّقيّ الصّدّيق على الرّضا من المسلمين، فاقتدى بهديه، واستنّ بسنّته، حتى لحق باللّه -رحمه اللّه- واستخلف عمر، فولّاه اللّه أمر هذه الرّعيّة، فعمل بكتاب اللّه، وأحيا سنّة رسول اللّه، ولم يحنق في الحقّ على جرتة، ولم يخف في اللّه لومة لائم، حتّى لحق به رحمة اللّه عليه، وولي من بعده عثمان، فاستأثر بالفيء، وعطّل الحدود، وجار في الحكم، واستذلّ المؤمن، وعزّز المجرم، فسار إليه المسلمون فقتلوه، فبرئ اللّه منه ورسوله وصالح المؤمنين، وولي أمر النّاس من بعده عليّ بن أبي طالب، فلم يشب أن حكم في أمر اللّه الرّجال، وشكّ في أهل الضّلال، وركن وأدهن، فنحن من عليّ وأشياعه براء، فتيسّروا رحمكم اللّه لجهاد هذه الأحزاب المتحزّبة وأئمّة الضّلال الظّلمة" [٢].

وذكر أبي مخنف ضمن سلسلة الرّواة يضعف السّند، والعجب كلّ العجب من راوٍ متعصّب لآل البيت كيف يروي خبراً يطعن في عليّ إلّا إن كان كاذباً في ولائه لآل البيت، في حين أغفل ابن أبي الحديد رأي الخوارج في عليّ حين أورد خطبة أبي حمزة الشّاري[٣].

---

(١) الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص١٠٦-١٠٨.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٢، ص٢١٧-٢١٨.
قابل بـ
ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٤، ص٢٢٧.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١١٦-١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمّ إنّ هذه الخطبة تخالف الحقائق التّاريخيّة من وجهين :

الأوّل : أنّ تلك التّهم لعثمان وعليّ باطلة لا أساس لها، وقد عمد الباحثون المنصفون -قديماً وحديثاً- إلى هذه التّهم ففنّدوها وردّوها، ممّا يغنينا عن ردّ ما جاء في هذه الخطبة[١].

والثّاني : ورد في هذه الخطبة وصف أهل السّلطان بـ (أئمّة الضّلال)، ولم تكن الصّفريّة تستخدم هذا المصطلح، بل عدّوا مخالفيهم مشركين[٢].

وقد أورد ابن قتيبة خطبة أبي حمزة الشّاري في "عيون الأخبار" [٣]، وأشار إلى أنّه خطبها في مكّة، ثمّ أوردها ابن أبي الحديد في شرحه مع زيادات كثيرة، وزعم أنّه خطبها في المدينة[٤]، كما ينسب له خطبة ثانية في المدينة[٥].

وسأقصر الحديث هنا على رأيهم في الخلافة كما جاء في الخطبة، وعند المقابلة بين نصيّ الخطبة يلاحظ ما يلي :

١- عرضت الخطبة -عند ابن قتيبة- لمسألة الخلافة منذ بداية الخطبة، وفيها يظهر رأي المحكّمة الأولى :

"خطب أبو حمزة الخارجيّ بمكّة، فذكر رسول اللّه، صلّى اللّه عليه [وسلّم]، ثمّ أبا بكر وعمر -رضي اللّه عنهما- بما هم أهله، ثمّ قال : وولي عثمان فسار ستّ سنين بسيرة صاحبيه وكان دونهما، ثمّ سار في السّتّ الأواخر بما أحبط [به] الأوائل، ثمّ مضى لسبيله. وولي عليّ فلم يبلغ من الحقّ قصداً، ولم يرفع [له] مناراً، ثمّ مضى لسبيله" [٦].

فيما لا نجد ذكراً لهذا الرّأي عند ابن أبي الحديد، ولو وضعنا في الاعتبار

---

(١) انظر :
ش. بلاث، مجلّة الموسم، رسالة الجاحظ في الحكمين، العدد ١٩، ١٩٩٤، ص٢٧-٧٢. وابن العربيّ، العواصم من القواصم، ص٥٣-١٣٧ و ١٧٢-١٧٥. وابن حجر، الصّواعق المحرقة، ص١١١-١١٥. وإبراهيم عليّ شعوط، أباطيل يجب أن تمحى من التّاريخ، ص١٣٩ وما بعدها.

(٢) البغداديّ، الفرق بين الفرق، ص٦١.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ٢، ص٢٤٩-٢٥٠.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ٥، ص١١٦-١٢٠.

(٥) المصدر نفسه، جـ٥، ص١١٤-١١٥.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار، جـ٢، ص٢٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النّزعة الشّيعيّة المتطرّفة عنده، لوجدنا أنّ إغفاله لما ينال من عليّ أمراً ليس مستغرباً، وهذا ما يؤكّد ما سبقت الإشارة إليه في التّمهيد من أنّ النّزعة المذهبيّة للمؤلّف تؤثّر في انتقائه أخباره[١].

٢- عرّضت الخطبة -عند ابن قتيبة- بمعاوية :

"ثمّ ولي لعين رسول اللّه وابن لعينه، اتّخذ عباد اللّه خولاً، ومال اللّه دولاً، ودينه دغلاً" [٢]وبيزيد : "يزيد الخمور، ويزيد القرود، ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه، والمأبون في فرجه" [٣]، وقد سبق عرض محاولة تشويه صورتيّ هذين الخليفتين، ورد هذه التّهم الباطلة عنهما، ممّا يغني عن الإعادة.

والخطبة -في هذا الموضع- فيها صنعة لفظيّة واضحة لم تكن مألوفة في العصر الأمويّ.

أما ابن أبي الحديد، فلم يأت على ذكر معاوية ولا يزيد، بل عرّضت الخطبة -كما رواها- ببني مروان في قوله :

"ألا ترون إلى خلافة اللّه، وإمامة المسلمين، كيف أضيعت، حتّى تداولها بنو مروان، أهل بيت اللعنة، وطرداء رسول اللّه، وقوم [من] الطّلقاء، ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار، ولا التّابعين بإحسان، فأكلوا مال اللّه أكلاً، وتلعّبوا بدين اللّه لعباً، واتّخذوا عباد اللّه عبيداً، ويورّث الأكبر منهم ذلك الأصغر، فيالها من أمّة ما أضعفها وأضيعها ! ومضوا على ذلك من سيّيء أعمالهم واستخفافهم بكتاب اللّه قد نبذوه وراء ظهورهم، فالعنوهم لعنهم اللّه لعناً [كما يستحقّونه]" [٤].

ويبدو هذا القول وكأنّه صدر من فم شيعيّ متعصّب، إذ لا نكاد نلمس اختلافاً عمّا عرض في أمر الشّيعة والخلافة، وقد ناقشت هذه التّهم في موضع سابق مما يغني عن الإعادة.

---

(١) انظر التّمهيد، ص٤-٥

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٤٩.

(٣) المصدر نفسه، حـ٢، ص٢٧١.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١١٧-١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أنّ أبا حمزة -جاء على لسانه- مصطلح (خلافة اللّه) الّذي لم يكن له وجود في العصر الأمويّ، ولا يؤمن به الخوارج.

٣- توقّف النّصان عن التّعريض -صراحة- بعمر بن عبد العزيز، ولكنّ ذلك لا يعني إنصافه، إذ جاء في النّص الذي أورده ابن قتيبة :

"فلمّا انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عن ذكره" (١).

فيما يبدو أبو حمزة معرّضاً به عند ابن أبي الحديد -بصورة ضمنيّة- :

"ولقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز، فاجتهد ،ولم، يكد، وعجز عن الّذي أظهر، حتّى مضى لسبيله" (٢).

وهذا الاختلاف لا يعدم أن يكون سببه اختلاف مذاهب المؤلّفين أو الرّواة.

ولعلّ سبب سكوت الخوارج عن عمر بن عبد العزيز أنّه كفّ عن قتالهم مدّة، حتّى أخذوا الأموال، وقطعوا السّبيل، فأخبره عبد الحميد بذلك، فكتب إليه يأمره بقتالهم، دون أن تأخذه بهم شدة :

"أمّا إذا أخذوا الأموال، وأخافوا السّبيل، فقاتلوهم فإنّهم رجس، فإن أظفرك اللّه بهم، وأدالك عليهم، فردّ ما أحببت من متاعهم إلى أهلهم، ومن أخذت من أسراء الخوارج فاحبسه حتّى يحدث خيراً" (٣).

٤- عرّض النّصان بيزيد بن عبد الملك* ، ويبدو هذا التّعريض عند ابن قتيبة أقلّ حدّة، إذ نسب إلى أبي حمزة أنّه قال عن يزيد :

"يأكل الحرام، ويلبس الحلّة بألف دينار، قد ضربت فيها الأبشار، وهتكت الأستار، حبابة عن يمينه، وسلّامة عن يساره تغنّيانه، حتّى إذا أخذ الشّراب منه

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٥٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١١٨.

(٣) ابن سعد، الطّبقات الكبرى، حـ٥، ص٢٦٤.

(*) جاء في شرح ابن أبي الحديد (١١٨/٥) أنّ أبا حمزة عرّض بيزيد بن الوليد بن عبد الملك، ولمّا كان اسم الخليفة مرتبط باسم المغنية (حبابة)، فلا يعقل أن يكون يزيد هذا هو المقصود لأنّه تولّى الخلافة في سنة (١٢٥هـ)، وتوفّيت حبابة في سنة (١٠٥هـ)، كما أنّ صاحب الأغاني، ومن نقل عنه، ربطوا اسم (حبابة) و (سلّامة) الوارد ذكرهما في هذه الخطبة بيزيد بن عبد الملك لا بيزيد بن الوليد، لذا فالأرجح أن يكون قد وقع خطأ في ذكر الاسم من المؤلّف أو النّاسخ أو المحقّق، أو أنّهم يذكرون ما يخطر ببالهم لمجرد الطّعن، واللّه أعلم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلّ مأخذ مدّثوبه، ثمّ التفت إلى إحداهما، فقال : ألا أطير ؟! نعم! طر إلى النّار"[١].

أمّا ابن أبي الحديد فيذكر على لسان أبي حمزة :

" وولي بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك*، غلام سفيه ضعيف، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين، لم يبلغ أشدّه، ولم يؤنس رشده، وقد قال اللّه -عزّ وجلّ- : ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾[٢]، وأمر أمّة محمّد -صلّى اللّه عليه وسلّم- وأحكامها وفروجها ودمائها** أعظم عند اللّه من مال اليتيم، وإن كان عند اللّه عظيماً، غلام مأبون في فرجه وبطنه، يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس بردين قد حيكا من غير حلّهما، وصرفت أثمانهما في غير وجههما، بعد أن ضربت فيهما الأبشار، وحلّقت فيهما الأشعار، استحلّ مالم يحلّه اللّه لعبد صالح، ولا لنبيّ مرسل، فأجلس حبابة عن يمينه، وسلّامة عن يساره، يغنّيانه بمزامير الشّيطان، ويشرب الخمر الصّراح، المحرّمة نصّاً بعينها، حتّى إذا أخذت منه مأخذها، وخالطت روحه ولحمه ودمه، وغلبت سورتها على عقله، مزّق برديه، ثمّ التفت إليهما، فقال : أتأذنان لي بأن أطير! نعم، فطر إلى النّار، طر إلى لعنة اللّه، طر إلى حيث لا يردّك اللّه" [٣].

وكلتا الرّوايتين -كما يلاحظ- اتّهمتا يزيد بالفسق والمجون، وعلاقته بحبابة وسلّامة، وفي ذلك مبالغة شديدة. وقد أشار المبرّد إلى فسق يزيد، واتّهمه بشرب الخمر، ولكنّ المبرّد كان يميل إلى الفكر الخارجيّ[٤].

أمّا الطّبريّ فقد ذكر قصّة يزيد مع حبابة وسلّامة دون أن يأتي على ذكر الخمر، تقول الرّواية :

"حدّثني عمر بن شبّة، قال: حدّثنا عليّ، قال : كان يزيد من فتيانهم، فقال يوماً

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٧٢.

* الصّواب يزيد بن عبد الملك.

(٢) النّساء/٦

** الصّواب : دماؤها.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١١٨.

(٤) المبرّد : أبو العبّاس، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق : محمّد الدّاليّ، الطّبعة الأولى، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٦، حـ٢، ص٨٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد طرب، وعنده حبابة وسلّامة : دعوني أطير، فقالت حبابة : إلى من تدع الأمّة" [١]. كما ورد هذا الخبر في الأغاني بنصّ مقارب لنّصّ الطّبريّ[٢].

ولكنّ المصادر المتأخّرة بالغت في تصوير علاقة يزيد بحبابة، وزادت الكثير[٣]، ممّا ساعد في تشويه صورته واتّهامه في دينه، فيما يذكر ابن كثير أنّه كان "يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة، فلمّا ولي عزم على أن يتأسّى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السّوء، وحسّنوا له الظّلم. قال حرملة عن ابن وهب عن عبد الرّحمن بن زيد بن أسلم، قال: لمّا ولي يزيد بن عبد الملك، قال: سيروا بسيرة عمر. فمكث كذلك أربعين ليلة، فأتى بأربعين شيخاً، فشهدوا له أنّه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب، وقد اتّهمه بعضهم في الدّين، وليس بصحيح" [٤].

وهكذا ردّ ابن كثير بنفسه على هذه الرّواية، فهل هناك تهمة في الدّين أكبر من أن يزعم إنسان أنّه ما عليه من حساب ولا عذاب؟ وقد انفرد ابن أبي الحديد بالإشارة إلى صغر سن يزيد حين تولّى الخلافة، ولكنّ الطّبريّ يذكر أن عمر يزيد ابن عبد الملك كان تسعة وعشرين عاماً [٥]، وهذا ينقض كل ما عرّضت به هذه الخطبة من صغر سنّه وسفهه.

ولعلّ تحامل الخوارج على يزيد مردّه إلى أنّ يزيد بن عبد الملك قاتل بسطام الخارجيّ وأصحابه لمّا تولى الخلافة سنة (١٠١هـ)، فقتل الخوارج عن آخرهم، ولم يبق منهم ثائرة، وهي أكبر هزيمة لحقتهم في العصر الأمويّ[٦]، فما زالوا

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٢٢.
(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، حـ١٣، ص١٤٨.
(٣) انظر :
ابن الأثير، الكامل في التّاريخ، مج٤، ص٣٦٨.
وابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٩، ص٢٣٩.
(٤) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٩، ص٢٣٨.
(٥) الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٥٧٤.
(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حـ٦، ص٥٧٥-٥٧٨.
انظر أيضاً :
ابن كثير، البداية والنهاية، حـ٩، ص٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يدعون على يزيد ثأراً لإخوانهم، حتى شاركهم أعداء الأمويّين، وساهموا في تشويه صورته، كما رأينا في هذه الخطبة الّتي لم تعرض لمبدأ الخلافة عند الخوارج، قدر طعنها في الخلفاء الشّرعيّين، وإنّي لأعجب لأبي حمزة كيف يشبّه أصحابه بصحابة رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- وهو يطعن فيهم ويكفّرهم، وهل كان عثمان وعليّ ومعاوية إلّا من خيار الصّحابة ؟

ولكنّ الخطبة الثّانية له في المدينة الّتي انفرد ابن أبي الحديد بروايتها أقرب ما تكون إلى الفكر الخارجيّ -وإن لم تقدّم التّعريض بالخلفاء الشرعيّين- وفيها يقول :

"تعلمون يا أهل المدينة أنّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا لهواً، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منا، ولكنّا لمّا رأينا مصابيح الحق قد أطفئت، ومعالم العدل قد عطّلت، وعنف القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرّحمن، وحكم القرآن، فأجبنا داعي اللّه ﴿ومن لا يجب داعي اللّه فليس بمعجز في الأرض﴾[1]، فأقبلنا من قبائل شتّى النّفر منّا على البعير الواحد، وعليه زادهم، يتعاورون لحافاً واحداً، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا اللّه، وأيّدنا بنصره، وأصبحنا -واللّه المحمود- من أهل فضله ونعمته إلخ ..." [2].

ولا يخفى الفارق في الأسلوب بين الخطبتين، ممّا يعزّز الشّكّ في صدورهما عن شخص واحد.

ثالثاً - الزّبيريّون والخلافة :

تروى المصادر وقوع أوّل مواجهة بين عبد اللّه بن الزّبير والخليفة الشّرعيّ معاوية حين أراد الأخير كسب تأييد أبناء كبار الصّحابة في أمر البيعة ليزيد.

وينسب صاحب "الإمامة والسّياسة" لابن الزبير خطبتين تناقض إحداهما

---

(١) الأحقاف/ ٣٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١١٤-١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخرى، فتارة يظهر ابن الزبير اجتهاده في المسألة، دون تجريح أو تعريض :

"فإن شئت أن تدع النّاس على ما تركهم رسول اللّه فيختارون لأنفسهم، وإن شئت تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر تختار رهطاً من المسلمين وتزويها عن ابنك فافعل[١]".

وأخرى يلوّح بطمعه في الخلافة :

"فإنّ هذا عبد اللّه بن عبّاس ابن عمّ رسول اللّه، وهذا عبد اللّه بن جعفر ذي الجناحين ابن عمّ رسول اللّه، وأنا عبد اللّه بن الزبير ابن عمّة رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، وعليّ خلّف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما وماهما. فاتق اللّه يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك" [٢].

وقد عرض الفصل الأوّل من هذه الدّراسة حقيقة موقف ابن الزّبير[٣] وأنّه ما كان معارضاً، بل مجتهداً، لكنّه بايع. أمّا ما تنسبه الخطبة الثّانية له من أنّه طلب الخلافة لنفسه فهو قائم على أساس واه، ولا سيّما أنّ ابن الزّبير يدرك أنّه لا يكفي التّمسّك بقرابة أموميّة من رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- في مجتمع تعتبر فيه القرابة الأبويّة.

وفي عهد يزيد صُوّر ابن الزّبير بشكل "سهل فيما بعد إلصاق الشّبهة به، بأنّه كان يطمع بالخلافة منذ البداية، أي قبل مصرع الحسين، وأنّه هو الّذي رغّب حفيد النّبيّ في الخروج إلى العراق لغرض خفيّ في نفسه، وهو التّخلّص منه، ليظفر لنفسه بالخلافة" [٤].

ولكن بين أيدينا نصّ خطابيّ منسوب لابن الزّبير يكشف فيه عن حقيقة نواياه آنذاك، فيقول :

"واللّه ما أريد إلّا الإصلاح وإقامة الحقّ، ولا ألتمس جمع مال ولا ادّخار، وإنّما

---

(١) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص١٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨١.

(٣) انظر الفصل الأوّل تحت عنوان البيعة ليزيد، ص٢٦-٢٧.

(٤) وودلف زلهايم، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، فتنة عبد اللّه بن الزّبير، ص٨٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بطني شبر أو أقلّ، يكفيني ما ملأه" [١].

فمازال ابن الزّبير على اجتهاده السّابق في خلافة معاوية. وما قيل -على لسانه- من أنّه عرّض بيزيد في خطبته لمّا قتل أخوه عمرو : "يزيد الخمور ويزيد الفجور ويزيد القرود إلخ..."[٢] فهو نفس القول المنسوب لأبي حمزة الشّاري في خطبة المدينة، وهو يناقض صورة يزيد بعيداً عن تشويه الرّوايات[٣].

إنّ ابن الزّبير لم يطالب بالخلافة إلّا بعد وفاة يزيد، وليس قبل ذلك، ساعده وجوده في الحجاز على ذلك، ورغبة المدينة في استعادة سيادتها [٤].

ويذكر خليفة بن خيّاط في تاريخه أنّ ابن الزّبير دعا لنفسه بعد ثلاثة أشهر من وفاة يزيد[٥].

وممّا يثير الدّهشة والاستغراب، في هذا المقام، ألّا نعثر على نصّ خطابيّ لابن الزّبير، بعد مبايعة أهل الحجاز له يؤكد أحقّيته في الخلافة أو تولّيه لها ولا سيّما أنّ النّقل السّياسيّ كان مايزال في الشّام باستخلافهم مروان بن الحكم وابنه من بعده.

ولمّا رفض ابن الزّبير الدّخول في طاعة الخليفة الشّرعيّ، عدّوه خارجاً على الجماعة، واستباحوا قتله، وهذا ما أعلنه الحجاج -في الخطبة المنسوبة له- مخاطباً أهل مكّة :

"يا أهل مكّة، بلغني إكباركم قتل ابن الزّبير. ألا وإنّ ابن الزّبير كان من خيار هذه الأمّة حتّى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها، فنزع طاعة اللّه، واستكن بحرم اللّه؛ ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة اللّه. إن اللّه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأباح له كرامته، وأسكنه جنته، فلما

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، حـ٤، ق٢، ص٣٠.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق ماكس شلوزنجر، القدس، ١٩٣٨، ق٤، حـ٢، ص٣٠.

(٣) انظر :
فريال هديب، صورة يزيد بن معاوية، ص ٩٦-١٢٢

(٤) انظر: يوليوس فلهوزن، تاريخ الدّولة العربيّة، ترجمة : محمّد عبد الهادي، لجنة التّأليف والتّرجمة، القاهرة، ١٩٥٨، ص١١٦.

(٥) ابن خيّاط : خليفة العصفريّ، تاريخ خليفة، تحقيق : أكرم العمريّ، الطّبعة الأولى، مطبعة الآداب، النّجف الأشرف، ١٩٦٧، ص٣٢٣-٣٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخطأ أخرجه من جنّته بخطيئته. وآدم أكرم على الله من ابن الزّبير، والجنّة أعظم حرمة من الكعبة، اذكروا الله يذكركم" [١].

ويعلّل رودلف زلهايم فشل محاولة ابن الزّبير في الحفاظ على منصبه للأسباب التّالية [٢]:

١- عدم تمتّعه بالمرونة السّياسيّة.

٢- عدم تزعزعه عن مواقفه الدّينيّة.

٣- عدم تطوّر نظراته السّياسيّة وبقيت على مستوى عشرينات وثلاثينات القرن الأوّل الهجريّ.

٤- إصراره على أن تكون مكّة والمدينة كما كانت في عهد الرّسول والخلفاء الرّاشدين، دون اعتبار لتغيّر موازين القوى السّياسيّة والعسكريّة.

لكلّ هذه الأسباب، ولاعتبارات أخرى، فشل ابن الزّبير في تكوين نواة لحركة كحركة الخوارج، وانتهت أراؤه بمقتله، وفشل مناصروه في السّير على خطاه، ممّا يرجّح أنّ خروج ابن الزّبير لم يكن أكثر من اجتهاد، أخطأ فيه أم أصاب .

---

(١) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص٣١٦.

(٢) رودلف زلهايم، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، فتنة عبد الله بن الزّبير، ص٨٤١-٨٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثّالث

سياسة الحكم
الدّاخليّة والخارجيّة

أولاً - الخطب الإداريّة والماليّة.
ثانياً - خطب الجهاد.
ثالثاً - خطب الفتن والثّورات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوّلاً - الخطب الإداريّة والماليّة:

أ- الخطب الإداريّة :

يلاحظ الباحث في النّصوص الخطابيّة المنسوبة لهذا العصر التّناقض الشّديد الّذي ترسمه المصادر الّتي بين أيدينا بين سياسة الخلفاء وبين سياسة ولاتهم في تسيير أمور الدّولة.

فمعاوية -مثلاً- تنسب المصادر له عدداً من الوصايا الّتي يوصي فيها ولاته بالتّقوى وحسن معاملة الرّعيّة؛ من ذلك ما أوصى به عبيد اللّه بن زياد لمّا ولّاه خراسان :

"إنّي قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمّالي، ثمّ أوصيك وصيّة القرابة لخاصّتك عندي : لا تبيعنّ كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوّك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للنّاس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى النّاس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوّك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبوك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفسك فآسهم" (١) .

كانت هذه هي سياسة معاوية -فيما تذكره المصادر- يقابلها سياسة النّقيض فيما تنسبه المصادر لولاته من خطب؛ من ذلك ما ينسب لعتبة بن أبي سفيان أنّه قال :

"يا أهل مصر، قد طالت معاتبتنا إيّاكم بأطراف الرّماح وظبات السّيوف، حتّى صرنا شجواً في لهواتكم ما تسيغنا حلوقكم، وأقذاء في أعينكم ما تطرف عليها جفونكم" (٢).

وتنسب لزياد قوله :

"إنّما هو زجر بالقول، ثمّ ضرب بالسّوط، ثمّ الثّالثة الّتي لاشوى لها، فلا

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٢٩٦. وابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٣، ق١، ص٣١-٣٢.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكوننّ لسان أحدكم شفرة تجري على أوداجه، وليعلم إذا خلا بنفسه أنّي قد حملت سيفي بيده، فإن شهره لم أغمده، وإن أغمده لم أشهره" (١).

وتنسب لعبد اللّه -الّذي أوصاه معاوية بالتّقوى- قوله :

"ولآخذنّ الأدنى بالأقصى، والبريء بالسّقيم، حتّى تستقيموا، وقد أعذر من أنذر" (٢).

وتظهر المصادر الخلفاء -فيما تنسب لهم من خطب- مسلوبي الإرادة؛ إذ يبدو انشغالهم عن رعيّتهم واضحاً، ماداموا لا يشكّلون خطراً على ملكهم؛ فعبد الملك بن مروان -مثلاً- تنسب المصادر له خطبة يهدّد فيها النّاس بالسّيف إن خرجوا عن أمره، وفيها يقول :

"أيّها النّاس، إنّي واللّه ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفّان)، ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية بن أبي سفيان)، ولا بالخليفة المأفون (يريد يزيد بن معاوية) فمن قال برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا" (٣).

والسّؤال الذي ينشأ هنا :

من الّذي قال إنّ عبد الملك -إن كان قال هذه الخطبة- عني فيها عثمان ومعاوية ويزيد ؟

ويلاحظ أن ما شاع على الألسنة من أنّ دولة بني أميّة قامت بالسّيف استخلص من الخطب المنسوبة للولاة لا الخلفاء، ولمن تزعم المصادر أنّهم كانوا أعداء للأمويّين من خلال ما تنسبه لهم من خطب.

وتعرض هذه الدّراسة نصّين منسوبين لأشهر الخطباء الولاة في العصر الأمويّ؛ زياد بن أبي سفيان والحجّاج بن يوسف، وتقابلهما بنصوص أخرى في محاولة لتبيّن حقيقة السّياسة الّتي انتهجوها في حكم الرّعيّة في ضوء ما يطمئنّ إلى صحّته منها.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٢) الدّينوريّ، الأخبار الطّوال، ص٢٣٢.

(٣) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٨٥. وابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ا - الخطبة البتراء :

تعدّ هذه الخطبة أشهر ما نسب لزياد ولعصره، وقد وصلت إلينا بصورة تبعث على الشّكّ في نسبتها إلى قائلها سنداً ومتناً .

أوّلاً -السّند :

أ- الرّوايات المسندة :

تعدّ رواية القالي عن أبي العبّاس عن عليّ بن عبد الله الهاشميّ، عن العكليّ عن أبي معمر[١]، أقدم نصّ مسند وصل إلينا لهذه الخطبة، وهو يعدّ قصيراً بالقياس إلى جلّ الرّوايات الّتي ذكرها الأخباريّون في مصادرهم.

وأبو معمر هذا -الّذي تقف السّلسلة عنده- هو عبد الله بن شجرة الأزديّ الكوفيّ، وقد توفّي في ولاية عبيد الله بن زياد؛ أي إنّ الرّواية تمتاز بالقرب الزّمانيّ من الحدث، وأبو معمر يعدّ من الثّقات[٢].

ولكن يؤخذ علي سلسلة السّند هذه الانقطاع بين أبي معمر الّذي توفّي ما بين عاميّ (٦٠-٦٤هـ)، وبين العكليّ[٣] الّذي توفّي في عام (٢٠٣هـ)، وهي مدّة زمنيّة طويلة تجعل الباحث متوقّفاً في قبول هذا السّند.

أمّا الرّواية الثّانية فهي عن المدائنيّ وغيره عن مسلمة بن محارب وأبي بكر الهذليّ، وقد أوردها الجاحظ في "البيان والتّبيين" [٤] والطّبريّ في تاريخه[٥]، وابن عبد ربّه في "العقد" [٦].

وأبو بكر الهذليّ يعدّ من الضّعفاء، وقد توفّي في عام (١٦٧هـ) [٧]. أمّا مسلمة

---

(١) القالي، النّوادر، ص١٨٥-١٨٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات، حـ٦، ص١٠٣. والذهبي، سير أعلام النبلاء، حـ٤، ص١٣٣.

(٣) العكليّ : هو زيد بن حباب، ويعدّ من الثّقات.
انظر :
ابن حجر، تهذيب التّهذيب، حـ٣، ص٣٥١-٣٥٢.

(٤) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٢، ص٦١-٦٢.

(٥) الطبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٢١٧-٢٢١.

(٦) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٧٢-١٧٤.

(٧) البخاريّ، التّاريخ الكبير، مراقبة : محمّد عبد المعيد خان، دار الكتب العلميّة، بيروت، د.ت، م٤، ق٢، حـ٢، ص١٩٨. وابن حجر، تهذيب التّهذيب، حـ١٢، ص١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد وثّقه ابن حبّان[١]، ولم أقف على تاريخ وفاته، ولكن يبدو من السّياق أنّه كـ معاصراً لأبي بكر.

وهذه الرّوايات تختلف اختلافاً بيّناً عن رواية القالي، ولعلّ وجود أحد الضّعفاء في سندها يبطلها.

وأمّا الرّواية الثّالثة فهي مسندة -عند ابن قتيبة-[٢] إلى الهيثم بن عديّ (ت ٢٠٩هـ)، وهو من الضّعفاء ومتّهم بالشّعوبيّة عند كثيرين[٣]، وروايته تختلف كثيراً عن سابقاتها.

وقد اكتفى ابن أبي الحديد في شرحه بنقل الرّواية عن المدائنيّ[٤]، وهو من المختلف فيهم عند أهل الجرح والتّعديل[٥].

ب- الرّوايات غير المسندة :

وردت عند الأخباريّين أربع روايات مختلفة الطّول وغير مسندة؛ إذ أورد المبرّد في "الكامل" جزءاً من الخطبة في معرض حديثه عن مرداس بن أديّة الخارجيّ[٦]، كما أورد ابن كثير نصّاً قصيراً للخطبة تفرّد عن سائر الرّوايات بأنّه عكس صورة إيجابيّة لزياد.

أما ابن أعثم والقلقشنديّ فقد جاءت روايتاهما وكأنّهما أداء بالمعنى لما ذكره الجاحظ والطّبريّ وابن عبد ربّه[٧].

ويخلص الأمر إلى افتقار الخطبة إلى سند موثوق به، وهو أمر يدعو للشّكّ في صحّة نسبتها لزياد.

---

(١) ابن حبّان : أبو حاتم محمّد بن حبان، كتاب الثّقات، الطّبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، الهند، ١٩٨١، حـ٧، ص٤٩٠.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٦٣.

(٣) البخاريّ، الضّعفاء الصّغير، تحقيق : محمود إبراهيم زايد، دار العربيّ، حلب، ١٩٧٥، ص١١٧. وابن قتيبة، المعارف، ص٢٩٩. والذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، حـ٤، ص٣٢٤-٣٢٥.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١٦، ص٢٠٠-٢٠٣.

(٥) انظر العرض التّفصيليّ لرأي العلماء فيه :
محمّد جاسم المشهداني، موارد البلاذريّ عن الأسرة الأمويّة في أنساب الأشراف، مكتبة الطّالب الجامعيّ، مكّة المكرّمة، ١٩٨٦، حـ١، ص١٦٣-١٩٦.

(٦) المبرّد، الكامل، حـ٣، ص١١٣٦.

(٧) ابن أعثم، الفتوح، حـ٢، ص٢١-٢٢. والقلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ١، ص٢٦٠-٢٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً - المتن :

جاء في "النّوادر" :

قدم زياد والمهلّب بن أبي صفرة البصرة، فجاء إلى الجمعة، وقد لبس قميصاً مرحّضاً، وملاءة ممصّرة، فصعد المنبر، فقال : ربّ فرح بإمارتي لن تنفعه، وربّ مبتئس بها لن تضرّه، ثمّ حمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال :

"أيّها النّاس، إنّ معاوية قد قال ما بلغكم وشهد الشّهود بما قد سمعتم، وإنّي امرؤ قد رفع اللّه منّي ما وضعوا، وحفظ منّي ما ضيّعوا، وإنّ عبيداً لم يألُ أن يكون كافلاً مبروراً وأباً مشكوراً، وإنّا قد سسنا وساسنا السّائسون، فلم نجد لهذا الأمر خيراً من لين في غير وهن، ولا من شدّة في غير جبريّة. ألا وإنّها ليست كذبة أكثر عليها شاهداً من اللّه ومن المسلمين من كذبة إمام على المنبر، فإذا سمعتموها منّي فاختبروها فيّ، واعلموا أنّ لها عندي أخوات، وإذا رأيتموني أجري الأمور فيكم على أذلالها، وأمضيها لسبلها، فلتستقم لي قناتكم.

واللّه لآخذنّ المقبل بالمدبر، والمحسن بالمسيء، والمطيع بالعاصي، حتّى يلقى الرّجل منكم أخاه فيقول : يا سعد، انج، فإنّ سعيداً قد قتل"[1].

وجملة المآخذ على هذه الخطبة ما يلي :

١- أنّ زياداً -في هذه الرّواية- حمد اللّه وأثنى عليه، ولم يشكّك الرّواة أو المؤلّف في إسقاطه التّحميد كما في سائر الرّوايات.

والسّؤال الّذي ينشأ هنا :

إذا كانت الرّواية الأقدم قد نفت إسقاطه التّحميد، فلم سمّيت الخطبة البتراء ؟

دأب الباحثون على إطلاق مصطلح (الخطبة البتراء) على الخطبة الخالية من التّحميد، في حين يذكر ابن منظور في "لسان العرب" أنّ البتراء -كذلك-

(١) القالي، النّوادر، ص ١٨٥-١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

درع كانت لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- سمّيت بذلك لقصرها[1]، فلم لا يكون المقصود بالبتراء (القصيرة) ؟ ولا سيّما أنّ نصّ الخطبة عند ابن كثير هو :

"أيّها النّاس، كأنّكم لم تسمعوا ما أعدّ الله من الثّواب لأهل الطّاعة والعذاب لأهل المعصية، تكونون كمن طرقت جبينه الدّنيا، وفسدت مسامعه الشّهوات، فاختار الفانية على الباقية"[2].

ومن معاني البتراء -عند ابن منظور- النّافذة[3]، فربما تكون سمّيت بذلك لنفاذها.

وما يبعد احتمال ترك التّحميد هو تسميتها بالبتراء أنّ مكانة زياد المشهود لها بين الخطباء لا توقعه في مثل هذا الأمر الّذي ينتقص من شأن خطبته.

٢- تشير بعض الرّوايات إلى أنّ قوله :

"أيّها النّاس، إنّ معاوية قد قال ما بلغكم وشهد الشّهود بما قد سمعتم، وإنّي امرؤ قد رفع الله منّي ما وضعوا، وحفظ منّي ما ضيّعوا، وإنّ عبيداً لم يألُ أن يكون كافلاً مبروراً وأبا مشكوراً" قد قاله في مجلس معاوية لمّا استلحقه[4]، وهي بذلك المقام أليق بها من مقام قدومه العراق، بدليل قوله "وشهد الشّهود بما قد سمعتم" فكيف يسمع أهل العراق ويشهدوا على أمر وقع في الشّام ؟

٣- تناقض قوله : "فلم نجد لهذا الأمر خيراً من لين في غير وهن، ولا من شدّة في غير جبريّة" مع قوله : "والله لآخذنّ المقبل بالمدبر، والمحسن بالمسيء، والمطيع بالعاصي"، فكيف يؤمن زياد بسياسة وينفّذ غيرها في موقف واحد ؟

---

(١) ابن منظور : أبو الفضل محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت، د.ت، ١٩٥٥، مج٤، ص٣٧-٣٨، مادّة (ب ت ر).

(٢) ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص٢٨.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مج٤، ص٣٨، مادة (ب ت ر).

(٤) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٢١٤-٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأين منه قول معاوية موصياً :

"يا زياد ليكن حبّك وبغضك قصداً، فإنّ العثرة فيهما كامنة، واجعل للنّزوع والرّجوع بقيّة من قبلك، واحذر صولة الانهماك، فإنّها تؤدي للهلاك"[١].

أمّا سائر الرّوايات فيكثر فيها التّزوير والكذب والخطل، وجملة المآخذ عليها ما يلي :

١- تذكر بعض الرّوايات أنّ الفسق في البصرة كان كثيراً فاشياً ظاهراً، وأنّ الضّعيف كان مسلوب المال، وأنّ الضّعيفة كانت مسلوبة في النّهار المبصر، وأنّ المواخير كانت منصوبة[٢]، وهو أمر لم تشر إليه الرّوايات الأولى.

وهذا أمر مردود؛ إذ كانت البصرة ثغراً من ثغور الجهاد في بداية العصر الأمويّ ولم يكن فيها مجالس للهو[٣]. وقد ناقش عبد الله بن سالم الخلف عدداً من الرّوايات الّتي كانت تزعم أنّ المجتمع الأمويّ مجتمع لهو وغناء وفنّدها مثبتاً كذبها وتهافتها[٤].

٢- ظهور الصّنعة اللفظيّة المبالغ فيها؛ من ذلك قوله :

"فإنّ الجهالة الجهلاء، والضّلالة العمياء، والغيّ الموفي بأهله على النّار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم" وقوله : "ألم يكن منكم نهاة، تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النّهار".

٣- ظهور آثار المذهب الكلاميّ من وضع المقدّمة ثمّ النّتيجة، مثل قوله :

"ما أنتم بالحلماء، ولقد اتّبعتم السّفهاء".

فهذه مقدّمة نتيجتها :

"فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتّى انتهكوا حرم الإسلام، ثمّ

---

(١) القيروانيّ، زهر الآداب، حـ٣، ص٦٤١.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٦١-٦٢. والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٢١٨. وابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٧٢-١٧٤.

(٣) انظر :
المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص٥٢.

(٤) انظر :
عبد الله الخلف، مجتمع الحجاز في العصر الأمويّ بين الآثار الأدبيّة والمصادر التاريخيّة، رسالة دكتوراة، جامعة الإمام محمّد بن سعود، الرياض، ١٤٠٧، حـ١، ص٢٨-١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أطرقوا وراءكم، كنوساً في مكانس الرّيب".

٤- قوله : "الزّمن السّرمديّ الذّي لا يزول" أوّل من قال به بعض أصحاب الكلام في العصر العباسيّ[١].

٥- قوله "وإيّاي ودلج الليل، فإنّي لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه" يتناقض وقوله : "لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل".

٦- ظهرت في الخطبة بعض المصطلحات الّتي لا تمتّ بصلة للعصر الأمويّ، مثل: سلطان اللّه، وفيء اللّه، والأئمّة، وقد سبقت الإشارة إليها في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة.

٧- تشير بعض الرّوايات إلى أنّ مرداس بن أديّة عارض زياداً في خطبته، وأنّ زياداً ردّ عليه قائلاً :

"يا هذا، إنّا لن نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتّى نخوض إليكم الباطل خوضاً" [٢].

ويشير المبرّد إلى أنّ مرداس قد خرج في أيّام عبيد اللّه بن زياد، وليس قبل ذلك [٣].

ثمّ إنّ هذه السّياسة الّتي ترسمها هذه الخطبة لزياد تناقض ما رواه الجاحظ عن عمرو بن عبيد أنّه قال :

"كتب عبد الملك بن مروان وصيّة زياد بيده، وأمر النّاس بحفظها وتدبّر معانيها، وهي :

إنّ اللّه -عزّ وجلّ- جعل لعباده عقولاً، عاقبهم بها على معصيته، وأثابهم بها على طاعته، فالنّاس بين محسن بنعمة اللّه عليه، ومسيء بخذلان اللّه إياه، وللّه

---

(١) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، تحقيق : محمّد إبراهيم وعبد الرّحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥، حـ١، ص٧٤.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٦٥.
قابل بـ :
الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٢٢١.

(٣) المبرّد، الكامل، حـ٣، ص١١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النّعمة على المحسن والحجّة على المسيء، فما أولى من تمّت عليه النّعمة في نفسه، ورأى العبرة في غيره بأن يضع الدّنيا بحيث وضعها اللّه، فيعطي ما عليه منها، ولا يتكثّر بما ليس له فيها، فإنّ الدّنيا دار فناء ولا سبيل إلى بقائها، ولا بدّ من لقاء اللّه الّذي حذّركم نفسه، وأوصيكم بتعجيل ما أخّرته العجزة قبل أن تصيروا إلى الدّار الّتي صاروا إليها، فلا تقدرون على توبة، وليس منها أوبة، وأنا أستخلف اللّه عليكم، وأستخلفه لكم" [1].

وهذه الوصيّة يطمئنّ لصحّة نسبتها لزياد وعصره، لأسباب هي :

١- إظهارها لأخلاق الوالي المسلم في أوج الإسلام ومنعته.

٢- خلوّها من الصّنعة البديعيّة.

٣- ابتعادها عن أسلوب المذهب الكلاميّ.

٤- استمدّت معانيها من القرآن الكريم،ومن الفلسفة الإسلاميّةالصافية الواضحة، البعيدة عن متاهات وتعقيدات فلسفات الفرق الإسلاميّة فيما بعد.

٢- خطبة الحجاج في الكوفة :

تعدّ هذه الخطبة أشهر ما نسب للحجّاج بن يوسف، وقد وصلت إلينا في مصادر عديدة، بصورة تعزّز الشّكّ في نسبتها إلى قائلها وعصره.

أوّلاً - السّند :

أ- الرّوايات المسندة :

أسندت هذه الخطبة -عند الجاحظ والطّبريّ- إلى عبد اللّه بن أبي عبيدة بن عمّار بن ياسر[2]، ولم أقف على ترجمة له فيما بين يديّ من مصادر.

وأسندها ابن قتيبة إلى عبيد القاسم بن سلّام (ت ٢٣٣هـ)[3]، وفي هذا الإسناد انقطاع بين الرّواي وبين الأحداث المصاحبة للخطبة (٧٣هـ)، ممّا يجعل الباحث

---

(١) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ١، ص٢٠٦.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٣٠٧. والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٢.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متوقّفاً في قبوله.

أمّا المبرد فقد أسندها إلى عبد الملك بن عمير الليثيّ[١]، ويبدو من السّياق أنّه قد شهد قدوم الحجّاج الكوفة، ولكنّه من المختلف فيهم عند علماء الجرح والتّعديل، كما قال عنه أحمد : مضطرب الحديث جدّاً مع قلّة روايته؛ ما أرى له خمسمائة حديث وقد غلط في كثير منها[٢].

وأسندها المسعوديّ إلى ابن عائشة عن أبيه[٣]، وهو عبد اللّه بن حفص بن عمر (ت ٢٨٨هـ)، وعدّه البغداديّ في الضّعفاء[٤].

وجاءت في "الأغانيّ" مسندة إلى محمّد بن معاوية الأسديّ[٥]، ولم أقف على ترجمة له فيما بين يديّ من مصادر.

أمّا ابن عساكر فإحدى روايتي الخطبة في تاريخه مسندة إلى أبي بكر الهذليّ، وقد سبقت الإشارة إلى أنّه عدّ في الضّعفاء، والثّانية مسندة إلى عبد الملك بن عمير الليثيّ، وضمّ إسناده الثّاني ابن كامل الّذي قال إنّه يشك في سماعه[٦]، ممّا يجعل الباحث متوقّفاً في قبوله.

ب- الرّوايات غير المسندة :

ذكر هذه الخطبة -دون إسناد- اليعقوبيّ في تاريخه[٧]، وصاحب "الإمامة والسّياسة" [٨]، وابن عبد ربّه في "العقد" [٩]، وابن أبي الحديد في "شرح نهج البلاغة"[١٠]، وابن أعثم في "الفتوح" [١١].

---

(١) المبرّد، الكامل، حـ٢، ص٣٩٣.
(٢) ابن حجر، تهذيب التّهذيب، حـ٦، ص٣٦٠.
(٣) المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٣٢.
(٤) البغداديّ : أبو بكر أحمد بن عليّ، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د.ت، حـ٩، ص٤٤٩.
(٥) الأصفهانيّ، الأغاني، حـ١٤، ص٢٣٧.
(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، حـ١٢، ص١٢٩.
(٧) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢٧٣.
(٨) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٥٦.
(٩) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٨٠.
(١٠) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١، ص٣٤٣.
(١١) ابن أعثم، الفتوح، حـ٧، ص٤-١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويخلص الأمر إلى افتقار الخطبة إلى سند موثوق به، وهو أمر يدعو إلى الشّكّ في صحّة نسبتها للحجّاج.

ثانياً - المتن :

عند المقابلة بين سائر ما بين أيدينا من نصوص لهذه الخطبة، يلاحظ التّناقض بينها، وجملة المآخذ عليها ما يلي :

١- طول الخطبة عند المبرّد والجاحظ والطّبريّ وابن عبد ربّه والمسعوديّ[١]، وقصرها عند ابن قتيبة واليعقوبيّ والأصفهانيّ وابن أبي الحديد[٢].

٢- اختلاف النّصّ عند صاحب "الإمامة والسّياسة" اختلافاً بيّناً عن سائر النّصوص[٣].

٣- اختلاف الرّوايات في مناسبة الخطبة؛ إذ أشارت أغلب الرّوايات إلى أنّه خطبها لمّا تولّى العراق، ما عدا ابن أبي الحديد الّذي قال إنّه خطبها عقب سماعة تكبيراً منكراً في شوارع الكوفة[٤].

٤- أشار الجاحظ والطّبريّ وابن عبد ربّه إلى أنّ بشر بن مروان بعث المهلّب بن أبي صفرة إلى الحروريّة[٥]، أمّا المسعوديّ فيذكر أنّ عبد الملك بن مروان هو الّذي بعثه[٦].

٥- تصوّر الرّوايات قدوم الحجّاج بصورة مسرحيّة مفتعلة، وحتّى هذه الصّورة اختلف في تحديد معالمها؛ من ذلك :

أ- أشار الجاحظ والطّبريّ إلى أنّ الحجاج قد قدم معه اثنا عشر راكباً على

---

(١) المبرّد، الكامل، حـ٢، ص٤٩٣-٤٩٥. والجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٢، ص٣٠٧-٣١٠. والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٢-٢٠٤. وابن عبد ربه، العقد، حـ٤، ص١٨٠-١٨١.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٦٥-٢٦٦. واليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢٧٣. والأصفهانيّ، الأغاني، حـ١٤، ص٢٣٧، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٣) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٥٦.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١، ص٢٤٣.

(٥) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٢، ص٣٠٨. والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٢، وابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٨٠.

(٦) المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النّجائب[1]، فيما ذكر صاحب "الإمامة والسّياسة" أنّه قد خرج معه ألف رجل من مقاتلة الشّام وحماتهم، وأربعة آلاف من أخلاط النّاس[2]، وسكتت سائر الرّوايات عن الإشارة إلى ذلك.

ويبدو صاحب "الإمامة والسّياسة" مبالغاً في العدد الّذي ذكره، ولا يعقل أن يحضر معه ستّة آلاف ليقتلوا سبعين ألفاً من أهل العراق، كما تشير الرّواية!

ب- ذكر المبرد أنّ النّاس قد بلغهم أنّ الحجّاج قد قدم أميراً على العراق[3]، فيما ظنّوه -في روايات الجاحظ والطّبريّ وابن عبد ربّه- خارجيّاً[4]، وأشار المسعوديّ إلى أنّ النّاس عرفوه والياً.

جـ- ذكر الجاحظ والطّبريّ وابن عبد ربّه أنّ الحجّاج، دخل المسجد متلثّماً متنكّباً قوساً متقلّداً سيفاً، فيما أغفل ابن قتيبة الإشارة إلى تلثّمه، ولم تشر سائر الرّوايات إلى هذا الأمر.

إنّ تصوير دخول الحجّاج بهذا التّشويق، ثمّ كشفه عن لثامه فجأة يرجّح افتعال القصّة، ويشكّك في صحّتها، وإلّا فماذا قصد من تلثّمه ؟

د- ذكر المبرّد أنّ عمير بن ضابئ البرجميّ حاول حصب الحجّاج، فيما ذكر الطّبريّ والمسعوديّ أن محمّد بن عمير الدّارمي هو الّذي حاول حصبه، ولم يشر الجاحظ -الّذي روى الخطبة بنفس إسناد الطّبريّ- إلى هذا الأمر.

وهذان الرّجلان مجهولان لم أقف على ترجمة لهما إلّا ما ذكره المبرّد من أنّ البرجميّ جاء الحجّاج بعد نزوله عن المنبر يسأله أن يقبل ابنه بدلاً عنه لأنّه ضعيف لا يقوى على السّفر، "فقال له الحجّاج : نفعل أيّها الشيخ. فلمّا ولّى قال له قائل : أتدري من هذا أيّها الأمير؟ قال : لا . قال : هذا عمير بن

---

(١) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٣٠٨. والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٢.

(٢) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٥٦.

(٣) المبرّد، الكامل، حـ٢، ص٤٩٣.

(٤) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٣٠٨، والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٢، ص٢٠٢، وابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضابئ البرجميّ الذّي يقول أبوه :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولاً، فوطئ بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه. فقال : رده، فلما رد قال له الحجاج : أيها الشيخ، هلا بعثت إلى أمير المؤمنين بدلاً يوم الدار! إن في قتلك، أيها الشيخ، لصلاحاً للمسلمين، يا حرسي اضربن عنقه" [١].

وقد خالف المسعوديّ المبرّد في أمرين لمّا ذكر هذه الحادثة :

الأوّل : أنّ الرّجل مرّ بالحجّاج بعد ثلاثة أيّام من خطبته.

والثّاني : أنّ عنبسة بن سعيد ومالك بن أسماء هما اللذان كشفا هويّة البرجميّ[٢].

هذه هي جملة المآخذ على الأحداث المتّصلة بالخطبة، أمّا النّصّ نفسه فجملة المآخذ عليه ما يلي :

١- أنّ الرّوايات لم تشر إلى أنّ الحجّاج حمد اللّه وأثنى عليه في خطبته، إلا المسعوديّ الّذي قال :

"فو اللّه ما حمد اللّه ولا أثنى عليه، ولا صلّى على نبيّه" [٣]. فإذا كان الحجّاج لم يبدأ خطبته بالتّحميد، فلماذا لم يطلق عليها (خطبة بتراء) كما قيل عن الخطبة المنسوبة لزياد ؟ والحجّاج وزياد ندّان من أنداد الخطابة الأمويّة.

أمّا صاحب "الإمامة والسّياسة" فيذكر أنّ الحجّاج حمد اللّه وأثنى عليه، ولكنّه ساق خطبة تختلف اختلافاً بيّناً عن سائر النّصوص الّتي بين أيدينا، إذ جاء فيها :

"أيّها النّاس، إنّ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أمير استخلفه اللّه -عزّ وجلّ- في بلاده، وارتضاه إماماً على عباده، وقد ولّاني مصركم، وقسمة فيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإمضاء الحكم على ظالمكم، وصرف

---

(١) المبرّد، الكامل، حـ٢، ص٤٩٦.

(٢) المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٣٦-١٣٧.

(٣) المصدر نفسه، حـ٣، ص١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثّواب إلى المحسن البريء والعقاب إلى العاصي المسيء، وأنا متّبع فيكم أمره، ومنفّذ عليكم عهده، وأرجو بذلك من اللّه -عزّ وجلّ- المجازاة، ومن خليفته المكافأة، وأخبركم أنّه قد قلّدني بسيفين حين توليته إيّاي عليكم، سيف رحمة وسيف نقمة؛ فأمّا سيف الرّحمة فسقط منّي في الطّريق، وأمّا سيف النّقمة فهو هذا الّذي هو عليّ" [١].

ويلاحظ في الخطبة صنعة بديعيّة واضحة ترجّح الشّكّ في صحّة نسبة هذه الخطبة للحجاج.

أمّا الخطبة الّتي بين أيدينا فيشير إلى أنّه خطبها لمّا قدم البصرة، إذ قال عن أبي معشر :

"لمّا قدم الحجّاج البصرة، صعد المنبر وهو معتمّ بعمامته، فتقلّد سيفه وقوسه. قال : فنعس وهو على المنبر وكان قد أحيا الليل، ثمّ تكلّم بكلام فحصبوه، فرفع رأسه، ثمّ قال: إنّي أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها. فهابوه، وكفّوا" [٢].

ويستغرب في هذه الرّواية أمران :

الأوّل : كيف يحصب خطيب مفوّه كالحجّاج.

والثّاني : كيف يحيي رجل ليله، ويمضي نهاره في سفك دماء الأبرياء.

٢- اختلاف الرّوايات في بداية الخطبة، فالرّوايات الّتي أشارت إلى دخوله المسجد بصورة مفتعلة ذكرت أنّه بدأ خطبته قائلاً:

أنا ابن جلا وطلّاع الثّنايا متى أضع العمامة تعرفوني[٣].

فإذا كان الافتعال -في طريقة دخوله المسجد- واضحاً فلا معنى لأن يبدأ خطبته بهذا البيت من الشّعر. هذا وقد أورد صاحب "العقد" خمسة أبيات في

---

(١) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٦.

(٣) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٢، ص٣٠٨. وابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٦٥. والمبرّد، الكامل، حـ٢، ص٤٩٤. والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٢. وابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٨٠. والمسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بداية الخطبة[١].

أمّا الرّوايات الّتي لم تشر إلى دخوله متلثّماً، فإنّ بداية الخطبة فيها وردت على النّحو التّالي :

"يا أهل العراق، يا أهل الشّقاق والنّفاق" [٢].

وانفرد اليعقوبيّ بذكر دخول الحجّاج متلثّماً، ثمّ قوله :

"يا أهل العراق، يا أهل الشّقاق والنّفاق والمراق، ومساوئ الأخلاق" [٣].

٣- اختلاف المصادر المتقاربة زمانيّاً في مضمون الخطبة، فعند المقابلة بين مصادر القرن الثّالث -مثلاً- نلاحظ تشابه مضمونها عند الجاحظ (٢٥٥هـ) والمبرّد (٢٨٥هـ)، فيما جاءت مقتضبة عند ابن قتيبة (٢٧٦هـ) واليعقوبيّ (٢٨٤هـ)، وخالفت رواية صاحب "الإمامة والسّياسة" سائر الرّوايات مخالفة بيّنة كما سبقت الإشارة إليها.

٤- ظهور الصّنعة البديعيّة بصورة واضحة، ممّا يرجّح الشّكّ في صحّة نسبتها للحجّاج وعصره؛ من ذلك قوله :

"أما واللّه لألحونّكم لحو العود، ولأعصبنّكم عصب السّلمة، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل. إنّي واللّه لا أعد إلا وفيت، ولا أخلق إلا فريت، فإيّاي وهذه الجماعات، وقيلا وقالا، وما يقول، وفيم أنت وذاك ؟ واللّه لتستقيمنّ على سبل الحقّ أو لأدعنّ لكلّ رجل منكم شغلاً في جسده" [٤].

٥- ينسب ابن قتيبة إلى الحجّاج قوله :

"ولألحونّكم لحو العود، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل حتّى تستقيم لي قناتكم، وحتّى يقول القائل : انج سعد، فقد قتل سعيد" [٥].

ويلاحظ أنّ هذا القول قد نسب إلى زياد في الخطبة البتراء ممّا يرجّح

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٨٠.

(٢) الأصفهانيّ، الأغاني، حـ١٤، ص٢٣٧. وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١، ص٣٤٣.

(٣) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، حـ٢، ص٢٧٣.

(٤) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٣٠٩-٣١٠. والطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٣-٢٠٤.

(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٢٦٥-٢٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يكون الّذي وضع الخطبة على لسان زياد قد وضع هذا النّصّ على لسان الحجّاج.

٦- في الخطبة تقعّر وتشدّق واضحان، وهذان أمران ينتقصان من شأن الخطيب؛ من ذلك قوله :

"والهبر وما الهبر! أو لأهبرنّكم بالسّيف هبراً، يدع النّساء أيامى، والولدان يتامى، وحتّى تمشوا السّهمى، وتقلعوا عن هاوها" (١).

٧- أشار المبرّد والمسعوديّ وابن أعثم إلى كتاب بعثه عبد الملك بن مروان مع الحجّاج، وأنّ الغلام لمّا قرأه لم يردّ النّاس سلام الخليفة عليهم، فقرّعهم الحجّاج حتّى ردّوا السّلام، ومع ذلك فلم تشر الرّوايات إلى مضمون الكتاب(٢). وموقف النّاس من كتاب الخليفة مشكوك فيه، إذ لا يعقل أن يطرح السّلام عليهم، فلا يردّ أحد سلامه.

هذه هي الصّورة الّتي رسمتها سواد النّصوص الخطابيّة الّتي وصلت إلينا للولاة الأمويّين في إدارة شؤون الدّولة وكأنّ الولاة لا عمل لهم سوى التّهديد والتّقريع، وسفك دماء الأبرياء على امتداد الدّولة الأمويّة!

وفي مقابل هذه السّياسة القمعيّة، حفظت لنا المصادر عدداً قليلاً من الخطب والوصايا الّتي تكشف عن النّقيض، وتعالج أموراً تمسّ صلب الشّؤون الإداريّة للدّولة الأمويّة، منها :

ا- وصيّة مروان بن الحكم لإبنه عبد العزيز :

روى صاحب "العقد" أنّ مروان بن الحكم لمّا استعمل ابنه عبد العزيز على مصر، أوصاه قائلاً :

"أرسل حكيماً ولا توصه، أي بنيّ، انظر إلى عمّالك فإن كان لهم عندك حقّ غدوة فلا تؤخّره إلى عشيّة، وإن كان لهم عشيّة فلا تؤخّره إلى غدوة، وأعطهم

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٤.

(٢) المبرّد، الكامل، حـ٢، ص٤٩٥. والمسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٣٥-١٣٦. وابن أعثم، الفتوح، حـ٧، ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حقوقهم عند محلّها، تستوجب بذلك الطّاعة منهم. وإيّاك أن يظهر لرعيّتك منك كذب، فإنّهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدّقوك في الحقّ، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إليّ يأتك رأيي فيه إن شاء اللّه تعالى، وإن كان بك غضب على أحد من رعيّتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتّى يسكن غضبك، ثمّ يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب، منطفئ الجمرة، فإنّ أوّل من جعل السّجن كان حليماً ذا أناة، ثمّ انظر إلى أهل الحسب والدّين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثمّ اعرف منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف اللّه عليك" [1].

وهذه الوصيّة ممّا يطمئنّ لصحّة نسبته للعصر الأمويّ -وإن كانت غير مسندة- للأسباب التّالية :

١- اشتمالها على وصايا ومواعظ تكشف عن التّعامل الإسلاميّ المقبول بين الولاة والرّعيّة.

٢- خلوّها من الصّنعة اللفظيّة، ومن آثار المذهب الكلاميّ.

٣- فيها إشارة إلى ما اشتهرت به الدّولة الأمويّة من حلم وأناتهم خلفائها وولاتها، وهو أمر لا يتّفق مع محاولة إظهارهم بصورة سافكي الدّماء ومستبيحي الحرمات.

٤- ختمت هذه الوصيّة بقوله : "وأستخلف اللّه عليك"، وهو ما كان مأثوراً عن الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- عند سفره.

٣- خطبة عمر بن عبد العزيز بعد تولّيه الخلافة :

روى ابن الجوزيّ أنّ عمر بن عبد العزيز لمّا ولي الخلافة صعد المنبر، وكانت أوّل خطبة خطبها ، حمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال :

"أيّها النّاس، من صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلّا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلّنا من الخير على ما لا

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد، حـ١، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نهتدي إليه، ولا يفتابنّ عندنا الرّعيّة، ولا يعترض فيما لا يعنيه" [1].

أمّا إشارته إلى أنّها أوّل خطبة خطبها لمّا ولي الخلافة، فقد سبقت الإشارة إلى خطبته الأولى في الفصل الأوّل من هذه الدّراسة وتلك خطبة تناسب الموقف أكثر من هذه الخطبة الّتي بين أيدينا، ولكن لا يمنع أن تكون هذه الخطبة من أوائل الخطب الّتي خطبها، إذ لا بدّ لكلّ خليفة من بيان سياسة حكمه في رعيّته.

ويلاحظ أنّ الخطبة لم تخرج عن مقتضى الحال، وفيها يوصي الرّعيّة بوصايا مستمدّة من أخلاق الإسلام، وقابلة للتّنفيذ، وخالية من التّعريض بمن سبقه من خلفاء وولاة، كما يلاحظ في بعض ما نسب له من خطب.

وهذه الخطبة ممّا يطمئنّ لصحّة نسبته لعمر ولعصره للأسباب التّالية :

١- استفتاح الخطبة بحمد الله تعالى.

٢- خلوّها من الصّنعة البديعيّة، ومن آثار المذهب الكلاميّ.

٣- قربها من خطابة الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم- والخلفاء الرّاشدين من بعده، وهذا أمر بدهيّ، ما دامت فلسفة الحكم ودستوره واحداً في العصرين.

ب- الخطب الماليّة :

لم يصل إلينا إلا النّزر اليسير من الخطب المنسوبة للعصر الأمويّ في شؤون الدّولة الماليّة، مع أنّ البرديّات الأمويّة ضمّت الكثير من القضايا الماليّة من خلال الرّسائل المنسوبة للخلفاء والولاة الأمويّين، ولا سيّما قرّة بن شريك[2]، الّذي لم تحفظ لنا المصادر نصّاً خطابيّاً واحداً منسوباً له.

وكان عمر بن عبد العزيز الخليفة الأمويّ الوحيد الّذي نسبت له خطبة ماليّة

---

(١) ابن الجوزيّ: أبو الفرج، سيرة عمر بن عبد العزيز، مطبعة الإمام، القاهرة، د.ت.، ص١٩٦.

(٢) انظر :

Jaser Abu Safieh, Umayyad Epirstolography, with special Reference to the compositions Ascribed to "Abdal-Hamid- al - Katib. PH.D. Dissertation, School of Oriental and African Studies, London, 1982, pp. 46-61.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في أمر فدك[١].

أما الولاة فقد نسبت إلى عدد منهم خطب مالية، وهم : عتبة بن أبي سفيان[٢]، والحجّاج[٣]، وإياس بن معاوية[٤]، ونصر بن سيّار[٥].

وستعرض هذه الدّراسة لنصّين، هما :

١- الخطبة المنسوبة لعمر في أرض فدك.

٢- خطبة إياس بن معاوية في تجّار واسط.

ا - خطبة عمر بن عبد العزيز في أرض فدك :

جاء في " فتوح البلدان" :

"حدّثني عمرو النّاقد، قال : حدّثني الحجّاج بن أبي منيع الرّصافيّ عن أبيه، عن أبي برقان أنّ عمر بن عبد العزيز لمّا ولي الخلافة خطب فقال :

إنّ فدك كانت ممّا أفاء اللّه على رسوله، ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فسألته إيّاها فاطمة -رضي اللّه عنها- فقال : ما كان لك أن تسأليني، وما كان لي أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السّبيل، ثمّ ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ -رضي اللّه عنهم- فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، ثمّ ولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك، فصارت لي وللوليد وسليمان، فلمّا ولي الوليد سألته حصّته منها، فوهبها لي، وسألت سليمان حصّته منها فوهبها لي، فاستجمعتها، وما كان لي من مال أحبّ إليّ منها، فاشهدوا أنّي قد رددتها إلى ما كانت عليه"[٦].

---

(١) البلاذريّ، فتوح البلدان، تحقيق : عبد اللّه وعمر أنيس الطّبّاع، دار النّشر للجامعيّين، ١٩٥٧، ص٤٥. وقدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح : محمّد الزّبيدي، دار الرّشيد، بغداد، ١٩٨١، ص٢٥٩-٢٦٠. والسّيوطيّ، تاريخ الخلفاء، تحقيق : محمّد محي الدّين، الطّبعة الثّانية، المكتبة التّجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٩، ص١٥٤. والذّهبيّ، سير أعلام النّبلاء، حـ٥، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص٢٦١.

(٣) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢١١.

(٤) وكيع، أخبار القضاة، حـ٢، ص٣٥١.

(٥) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص١٧٣.

(٦) البلاذريّ، فتوح البلدان، ص٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه هي الرّواية الوحيدة الّتي وصلت إلينا مسندة، وينتهي سندها إلى أبي برقان، ولم أقف على ترجمة له.

أمّا مضمون الخطبة، فيشكّك في صحّة نسبتها لعمر للأسباب التّالية :

١- تشير رواية البلاذريّ إلى أنّ فاطمة سألت الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- فدك في حياته، فرفض ذلك وردّها.

ويذكر البخاريّ -في مرويّاته- عدّة أحاديث تؤكّد عدم إلحاح فاطمة على أخذ نصيبها من أرض فدك[١]، إذ لا حقّ لها فيها. لأنّ اللّه تعالى "صان الأنبياء أن يورّثوا دنيا لئلّا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوّتهم بأنّهم طلبوا الدّنيا وورّثوها لورثتهم" [٢].

أمّا قدامة فقد أشار قبل روايته للخطبة إلى أنّ فاطمة قالت لأبي بكر : "[إنّ] رسول اللّه جعل لي فدكاً فأعطني إيّاها، وشهد لها عليّ بن أبي طالب -رضوان اللّه عليه- فسألها شاهداً آخر، فشهدت لها أمّ أيمن؛ مولاة النّبي -صلّى اللّه عليه وسلّم- فقال: قد علمت يا بنت رسول اللّه أنّه لا يجوز إلّا شهادة رجل وامرأتين"[٣].

وهذا الموقف يناقض ما جاء في الأخبار الثّقات عند البخاريّ، فهل يعقل أن تكذب فاطمة بنت محمّد -صلّى اللّه عليه وسلّم- على أبي بكر وتدّعي ما ليس لها، ثمّ يردّها أبو بكر لأنّها لم تستوف شروط الشّهادة، دون أن يضع في الاعتبار مسألة عدم وراثة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم؟ [٤]

وقد ضخّم الشّيعة حادثة فدك، وكيف أنها غصبت من فاطمة غصباً، ونسوا -أو تناسوا- أنّه لو كان لفاطمة حق في أن ترث أباها لشاركتها عائشة وحفصة -ابنتا أبي بكر وعمر- وسائر زوجاته، ولكنّ ذلك لم يحدث، ولو كان أبو بكر وعمر منعاها -كما يزعم الشّيعة- لهوى في نفسيهما لخصّا ابنتيهما بنصيب

---

(١) البخاريّ، صحيح البخاريّ، حـ٨، ص٢١٢، حديث رقم ٦٧٢٥ و ٦٧٢٦.

(٢) ابن تيمية، منهاج السّنّة النّبويّة، حـ٤، ص١٩٥.

(٣) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٥٩.

(٤) أورد ابن تيمية هذه الرّوايات، وأبان عن وضعها وكذبها.
انظر :
ابن تيمية، منهاج السّنّة النّبويّة، حـ٤، ص١٩٣-٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منها. ثم لِم لَم يطالب العبّاس عمّ الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- بنصيبه منها؟

إنّ فاطمة -رضي اللّه عنها- ما كانت لتطالب بفدك بعد أبيها، وهي تعلم يقيناً أنّ ما تركه الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- صدقة، ولو كان لها حق فيها لأعاده عليّ لأبنائها عند تولّيه الخلافة، ولكنّه "لم يعط لأولاد فاطمة، ولا زوجات النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- ولا ولد العبّاس شيئاً من ميراثه" [1]، فلم ينتظر التّاريخ عمر بن عبد العزيز ليعيد الحقّ إلى أصحابه الشّرعيّين، في زعم الشّيعة؟ أهو أقدر على ردّ حقّ ضائع من الخلفاء الرّاشدين رضي اللّه عنهم ؟

٢- تشير رواية السّيوطيّ إلى أنّ الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- كان ينفق من أرض فدك، ويعول منها على صغير بني هاشم ويزوّج منها أيّمهم[2]، في حين يذكر القرطبيّ أنّ الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- قسّم نصيبه بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً، وفي موضع آخر يقول :

"كانت أموال بني النّضير ممّا أفاء اللّه على رسوله ممّا لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- خاصّة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة، وما بقي يجعله في الكراع والسّلاح عدّة في سبيل اللّه تعالى " [3].

وهكذا فإنّ نصيب الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- لم يكن لبني هاشم دون سائر المسلمين.

٣- قوله : "ثمّ ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ -رضي اللّه عنهم - فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم" يتجاهل ما طرأ في عهد عمر بن الخطّاب، وفي ذلك يقول الفرّاء :

"كان رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- لمّا افتتح خيبر خافه أهل فدك، فصالحوه بسفارة محيصة بن مسعود على أنّ له نصف أرضهم ونخيلهم، يعاملهم عليه، ولهم النّصف الآخر، فصار النّصف منها من صدقاته معاملة مع أهلها

---

(١) المصدر نفسه، حـ٤، ص١٩٥.

(٢) السّيوطيّ، تاريخ الخلفاء، ص١٥٤.

(٣) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، حـ١٨، ص١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنّصف من ثمرها، والنّصف خالص لهم، إلى أن أجلاهم عمر فيمن أجلاه من أهل الذّمّة عن الحجاز، فقوّم فدك، ودفع إليهم نصف القيمة، فبلغ ذلك ستّين ألف درهم، وكان الّذين قوّمها : مالك بن التّيهان، وسهل بن أبي حثمة، وزيد بن ثابت، فصار نصفها من صدقات رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- ونصفها لكافّة المسلمين، ومصرف النّصفين الآن سواء" [١].

٤- قوله : "ثمّ ولي معاوية فاقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك، فصارت لي وللوليد وسليمان" فيه طعن وقذف في الخلفاء الأمويّين، فمعاوية لم يسلب أحداً أرض فدك، لأنّه خليفة المسلمين، ولا بدّ أن تكون -كغيرها من موارد الدّولة- تحت إشرافه مثل من سبقه من الخلفاء، وهو لم يهبها لمروان، وغاية الأمر أنّ مروان كان عاملاً لمعاوية على المدينة، ولمّا كانت فدك ضمن حدوده الإداريّة[٢]، فكان لا بد له من الإشراف عليها.

ويذكر ابن سعد في طبقاته حادثة تبيّن حرص مروان على ضبط أموال الدّولة ضبطاً دقيقاً وفق معايير الشّريعة الإسلاميّة، إذ يقول :

"وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول اللّه، يستشيرهم، ويعمل بما يجمعون عليه، وجمع الصّيعان، فعاير بينها حتّى أخذ أعدلها، فأمر أن يكال به، فقيل صاع مروان، وهي ليست بصاع مروان، إنّما هي صاع رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، ولكنّ مروان عاير بينها حتّى أقام الكيل على أعدلها" [٣].

فهل يعقل في من كانت هذه سيرته أن يغصب حقّاً عامّاً للمسلمين؟

وهكذا فقد كان من المفروض أن يشرف عبد الملك هو الآخر على فدك شأن سائر الخلفاء، أمّا عبد العزيز، الّذي كان والياً لعبد الملك على مصر حتّى وفاته،

---

(١) الفرّاء، الأحكام السّلطانيّة، ص٢٠١.

(٢) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان.
ياقوت، معجم البلدان، حـ٤، ص٢٣٨.
وفدك : واد ذو نخيل وعيون يعرف الآن باسم (الحائط)، تابع لإمارة حائل.
حمد الجاسر، المعجم الجغرافيّ للبلاد العربيّة السّعوديّة، منشورات دار اليمامة للبحث والتّرجمة والنّشر، الرّياض، د.ت، مج٣، ص١٠٢٣.

(٣) ابن سعد، الطّبقات، حـ٥، ص٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيبدو أنّ إقحامه هنا لتسويغ وصول فدك إلى ابنه عمر، ولو كان عبد العزيز وعبد الملك قد وهبا فدك لأبنائهما -كما تزعم الخطبة- فلماذا خصّ بها سليمان والوليد وعمر دون غيرهم؟ لأنّهم لم يرثوها، وإنّما هم خلفاء شرعيّون، كان لا بدّ لهم من الإشراف على جميع مواردها الماليّة بما فيها أرض فدك.

٥- موقف عمر من أرض فدك - كما تصوّره الخطبة- يثير الدّهشة والاستغراب؛ إذ بدا كأنّه كان مسلّماً بميراثه في بادئ الأمر، ثمّ استنزل الوليد وسليمان عنها بعد ذلك، وانتظر إلى تولّيه الخلافة ليعيدها إلى ما كانت عليه.

والسّؤال الّذي ينشأ هنا :

كيف يرضى عمر -مع عدله وورعه- بقبول ما يعتقد بأنّه حقّ مغصوب منذ البداية؟ وهو الّذي كانت تصوّره الرّوايات شجاعاً جريئاً في إبداء رأيه منذ صغره!

٦- تضيف رواية السّيوطيّ للخطبة قوله:-"وإنّي أشهدكم أنّي قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم"[١]، وكيف ذلك ونصفها حسب هو الّذي كان للرّسول عليه الصّلاة والسّلام؟ وأين يذهب بالنّصف الآخر الّذي صرفه عمر للمسلمين كافّة ؟

٧- لماذا تصرّ الرّوايات على أنّ بني أميّة اغتصبوا حقّ المسلمين في فدك دون سائر الأراضي المفتوحة ؟ أليس ذلك لأنّ فاطمة -رضي اللّه عنها- لها ذكر في بداية أمر فدك، فنسج الشّيعة حولها قصصاً وروايات كاذبة للطّعن على كلّ ما هو أمويّ؟ [٢].

هذه جملة مآخذ تجعل الباحث متوقّفاً في قبول نسبة هذه الخطبة لعمر بن عبد العزيز.

---

(١) السّيوطيّ، تاريخ الخلفاء، ص١٥٤.

(٢) انظر :

إحسان إلهي ظهير، الشّيعة وأهل البيت، قضية فدك، ص٨٤-٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- خطبة إياس بن معاوية في تجّار واسط :

قال وكيع :

"أخبرني محمّد بن موسى القيسي، قال : حدّثنا سليمان بن أبي شيخ، قال : حدّثنا صالح بن سليمان، قال : خرج قوم من أهل واسط من التّجار إلى عبدسي، فقالوا: نأتي إياس بن معاوية، فنسلّم عليه، فأتوه، فقال لهم :

يا معشر التّجار، احفظوا عنّي خصالاً ثلاثاً تنتفعون في تجارتكم. لا يشتري الرّجل بأكثر من ماله؛ فإن كانت وضيعة أتت على رأس ماله كلّه. ولا يشارك إلّا شريكاً، فإن أكثر فاثنين، فإنّ الشّركاء إذا تكاثروا تواكلوا. ولا يشتري من رجل له بضاعة ليس له غيرها؛ فإن التوى أمر أو أصابته نكبة لم يعذره، وألحّ عليه، وحرف به. اشتروا من أهل السّعة واليسار، فإنّهم يؤخّرون ويحتملون"[١].

وهذه الخطبة ممّا يطمئنّ لصحّة نسبته لإياس وعصره -وإن لم أقف على ترجمة لصالح بن سليمان- للأسباب التّالية :

١- خلوّ الخطبة من الصّنعة اللفظيّة، ومن آثار المذهب الكلاميّ.

٢- مناسبة الخطبة للحقائق التّاريخيّة، إذ ولي إياس قضاء البصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز[٢]، فمن المرجّح أن تكون هذه الخطبة قد قيلت في عام (٩٩هـ) أو بعده.

٣- موافقة مضمون الخطبة للنّظام الماليّ المتّبع في ذلك العصر من حفاظ على رأس المال، ومشاركة التّجار، واحتمال التّجار بعضهم بعضاً في سداد الدّيون.

٤- تكشف الخطبة عن حصافة رأي إياس، وهي صورة رسمتها له العديد من المصادر[٣].

---

(١) وكيع، أخبار القضاة، حـ٢، ص٣٥١.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٥٥٤.

(٣) انظر مثلاً :

وكيع: محمّد بن خلف، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠، حـ١، ص٣٤٣-٣٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً - خطب الجهاد :

يفاجأ الباحث في خطابة العصر الأمويّ أنّ ما وصل إلينا من خطب الجهاد لا يتناسب وعظم حركة الفتوحات الإسلاميّة شرقاً وغرباً، وأهمّيتها في بثّ العزم في نفوس الجند، وحثّهم على الجهاد في سبيل اللّه.

ومن العجيب أن تحفظ لنا المصادر خطباً فيها قذف وسبّ وتشهير، ولا تحفظ لنا خطباً فيها تقوية عزائم وإيمان صادق باللّه تعالى، وبحتميّة نشر الإسلام في بقاع الأرض، وكأنّما تعرّض هذا اللون من الخطب لتضييع متعمّد.

ومن نماذج خطب الجهاد الّتي ستعرض لها هذه الدّراسة : خطبة قتيبة بن مسلم عند غزو آخرون وشومان شرقاً، وخطبة منسوبة لطارق بن زياد عند فتح الأندلس.

أ - خطبة قتيبة بن مسلم :

جاء في الطّبريّ عن سليمان بن كثير العمي، قال :

"أخبرني عمّي قال : رأيت قتيبة بن مسلم حين قدم خراسان في سنة ستّ وثمانين، فقدم والمفضّل يعرض الجند، وهو يريد أن يغزو آخرون وشومان، فخطب النّاس قتيبة، وحثّهم على الجهاد، وقال :

إنّ اللّه أحلّكم هذا المحلّ ليعزّ دينه، ويذبّ بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقماً، ووعد نبيّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- النّصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال : ﴿هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون﴾ [1].

ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثّواب، وأعظم الذّخر عنده، فقال : ﴿ذلك بأنّهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل اللّه﴾ إلى قوله : ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾[2]. ثمّ أخبر عمّن قتل في سبيل اللّه أنّه حيّ مرزوق، فقال: ﴿ولا

---

(١) الصّف/٩.

(٢) التّوبة/١٢٠-١٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[١]، فتنجّزوا موعد ربّكم، ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإيّاي والهوينى" [٢].

وهذه الخطبة ممّا يطمئنّ لصحّة نسبته لقائله وعصره -مع وجود المدائني المختلف فيه عند علماء الجرح والتّعديل في سلسلة السّند- ولكن كما أنّ صحّة السّند لا تستدعي صحّة المتن فالعكس صحيح.

ولترجيح صحّة هذا النّصّ الخطابيّ أسباب هي :

١- تناسقها ومجريات الأحداث التّاريخيّة في فتح السّند وبلاد ما وراء النّهر.

٢- مراعاتها لمقتضى الحال، فلا بدّ للقائد من عرض الجند، ورفع معنويّاتهم -قبل لقاء العدوّ- بأقصر العبارات وأقواها.

٣- وافق مضمون الخطبة هدف الجهاد السّامي؛ وهو نشر الدّين الإسلاميّ، والحفاظ على الحرمات، وبيّن خاتمة المجاهد؛ النّصر أو الشّهادة.

٤- استشهاد قتيبة بالقرآن الكريم لتعزيز ثقة الجيش بنفسه.

٥- خلوّها من الصّنعة اللفظيّة الّتي صبغت جلّ الخطب المنسوبة لهذا العصر.

٦- قربها من خطب الجهاد في عصر صدر الإسلام[٣].

٢- خطبة طارق عند فتح الأندلس :

ينسب صاحب "الإمامة والسّياسة" لطارق بن زياد خطبة يحثّ فيها المسلمين على الجهاد، جاء فيها :

"أيّها النّاس، أين المفرّ ؟ البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، فليس ثمّ واللّه إلّا الصّدق والصّبر، فإنّهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضرّ معهما قلّة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة.

---

(١) آل عمران/١٦٩.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٤٢٤.

(٣) انظر :

جاسر أبو صفيّة، الخطابة وتطوّرها في عصر الخلفاء الراشدين، ص١٣٨-١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيّها النّاس، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإنّي عامد إلى طاغيتهم؛ لا أتهيّبه حتّى أخالطه أو أقتل دونه، فإن قتلت فلا تهنوا، ولا تحزنوا، ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولّوا الأدبار لعدوّكم فتتبدّدوا بين قتيل ومأسور، وإيّاكم إيّاكم أن ترضوا بالدّنيّة، ولا تعطوا بأيديكم ما قد عجل لكم من الكرامة، والرّاحة من المهانة والذّلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشّهادة، فإنكم إن تفعلوا -والله معيذكم- تبؤوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل فاحملوا، وأنا غير مقصّر دونه حتّى أغشاه، فاحملوا بحملتي"[1].

ومع اقتراب نفس هذه الخطبة من العصر الأمويّ، فإنّها مدعاة للاستغراب من عدّة وجوه هي :

١- أنّها -مع أهميّة فتح الأندلس- لم ترد قبل القرن الثّالث الهجريّ، وأنّ هذا النّصّ للخطبة لم يرد إلّا في "الإمامة والسّياسة".

٢- أنّها وصلت إلينا دون إسناد.

٣- أنّ هذه الخطبة في الجهاد خلت من الاستشهاد بالقرآن الكريم أو الحديث الشّريف لتقوية عزائم المسلمين كما فعل قتيبة في خطبته السّالفة الذّكر.

٤- أنّ طارقاً مع حداثة عهده بالإسلام، ونزوعه إلى أصول بربريّة، تحدّث بلسان عربيّ طلق.

ويستبعد أن يكون طارق قد قالها باللسان البربريّ، ثمّ نقلت إلى العربيّة، لأنّ "القرون الثّلاثة الأولى لم يكن يخطب فيها بغير اللسان العربيّ" [2]، والدّولة الموحديّة هي الّتي كان خطباؤها يخطبون باللسان البربريّ[3].

وتروي المصادر المتأخّرة نصّاً يختلف اختلافاً بيّناً عن النّصّ السّالف

---

(١) مؤلّف مجهول، الإمامة والسّياسة، ص٢٠٨-٢٠٩.

(٢) عبد الحيّ الكتانيّ، التّراتيب الإداريّة، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ت، ج١، ص٢١٩.

(٣) المرجع نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذّكر، ومما ينسب له قوله :

"واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدب اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلّا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدّت بكم الأيّام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطّاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصّنة، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت، وإنّي لم أحذّركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولأحملنّكم على خطّة أرخص متاع فيها النّفوس، أبدأ فيها بنفسي، واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأرفة الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظّكم فيه أوفر من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرّافلات في الدّرّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعيقان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التّيجان" [1].

ويلاحظ مدى الاختلاف بين النّصّين، والزّيادات والمبالغات الّتي تضمّنها النّصّ المتأخّر، وهو نصّ مشكوك في صحّة نسبته لطارق بن زياد لأسباب هي :

١- تأخّر هذه المصادر عن زمن الفتح بحوالي ستّة قرون.

٢- أنّها غير مسندة.

٣- أنّ طارقاً كان حديث عهد بالإسلام، ومع ذلك جاءت الخطبة وكأنّما جادت بها قريحة عربيّة إسلاميّة متمرّسة.

٤- أنّ مضمون الخطبة خلا من التّذكير بالشّهادة، وما أعدّ الله لهم من إحدى الحسنيين، وركّزت على التّرغيب بالمتع الزّائلة الّتي لا تتناسب وأهداف الجهاد السّامية.

٥- ظهور الصّنعة البديعيّة الّتي تتناقض وخصائص خطابة العصر الأمويّ.

---

(١) انظر النّصّ كاملاً في :

ابن خلّكان، وفيات الأعيان، حـ٥، ص٣٢١-٣٢٢. والمقريّ : أحمد بن محمّد، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق : محمّد محي الدّين، الطّبعة الأولى، مطبعة السّعادة، القاهرة، ١٩٤٩، حـ١، ص٢٢٥-٢٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦- قوله : "ولا وزر لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلّا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم" يعني أنّه يودي بجيشه إلى التّهلكة، ويتناقض مع الاستعدادات الضّخمة في إعداد الأسلحة والمؤن قبل قيام أيّة حملة عسكريّة ليس في العصر الأمويّ حسب، بل وفي كلّ زمان ومكان[١].

٧- قوله : "وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرّافلات في الدّرّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التّيجان"، يعزّز الشّكّ في صحّة نسبة هذه الخطبة لطارق وعصره لأسباب ثلاثة هي :

أ- ظهور الصّنعة اللفظيّة بشكل واضح.

ب- يظهر هذا الجزء من الخطبة وكأنّ غرض المسلمين من الجهاد والفتوحات هو التّمتّع بالنّساء، وهذا يتنافى مع أهداف الجهاد السّامية الّتي برزت في خطبة قتيبة السّالفة الذّكر.

جـ- يشير هذا الجزء إلى أنّ أهل الأندلس كانوا من أصول يونانيّة، فيما كان يحكم الأندلس زمن الفتح العربيّ القوط[٢]، ولم يذكر النّويريّ الذّي ذكر السّلالات الّتي تعاقبت على حكم الأندلس أنّ اليونان قد دخلوها قطّ[٣].

٨- قوله : "وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك بين الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً" يتناقض والحقائق التّاريخيّة من وجهين :

الأوّل : أنّ المصادر ذكرت أنّ جلّ الجيش المشارك في فتح الأندلس كان من البربر الحديثي العهد بالإسلام، فمتى رآهم الوليد حتّى ينتخبهم؟ وهل يقصد بقوله هذا أنّ الوليد كان واثقاً من فتح الأندلس، وبأنّ المسلمين

---

(١) انظر :

عبد العزيز السّلوميّ، ديوان الجند؛ نشأته وتطوّره في الدّولة الإسلاميّة حتّى عصر المأمون، الطّبعة الأولى، مكتبة الطّالب الجامعيّ - مكّة المكرّمة، ١٩٨٦، ص٣٧٢-٣٨٣.

(٢) اليعقوبيّ، تاريخ اليعقوبيّ، جـ٢، ص٢٨٥.

(٣) النّويري، نهاية الأرب، جـ٢٤، ص٤١-٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيتوطّنون فيها، وسيصاهرون أهلها، لذلك قام بانتقائهم ليتشرّفوا بمصاهرة ملوك الجزيرة ؟

والثّاني : أنّه من المعروف أنّ البدو ما كانوا يشاركون في الفتوحات إلّا ما ندر[١].

٩- قوله "ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم" يتناقض وأحكام الشّريعة الإسلاميّة في تقسيم غنائم الحرب، لأنّ أربعة أخماسها للمقاتلين، والخمس الأخير ينقسم ثلاثة أقسام[٢]:

أ- قسم منه يكون من حقوق بيت المال وهو سهم الرّسول المصروف في المصالح العامّة الموقوف مصرفه على رأي الإمام واجتهاده.

ب- وقسم منه لا يكون من حقوق بيت المال وهو سهم ذوي القربى، لأنّه مستحقّ لجماعتهم، فتعيّن مالكوه، وخرج عن حقوق بيت المال بخروجه عن اجتهاد الإمام.

جـ- وقسم منه يكون بيت المال فيه حافظاً له على أهله. وهو سهم اليتامى والمساكين وابن السّبيل. إن وجدوا دفع إليهم، وإن فقدوا أحرز لهم.

وعليه فلا يحق للوليد ولا لطارق ولا لغيرهما التّصرّف في حقّ من حقوق المسلمين، كما أنّ أيّاً من المصادر لم يشر إلى صرف غنائم فتح الأندلس كلّها إلى المجاهدين[٣].

ثالثاً - خطب الفتن والثّورات :

يندرج السّواد الأعظم ممّا وصل إلينا من خطابة العصر الأمويّ تحت هذا اللون الخطابيّ، ولا يكاد يخرج مضمونها عن الأمور الّتي عرضت لها هذه الدّراسة، ورجّحت الشّكّ في صّحة نسبتها للعصر الأمويّ، لذا اكتفي هنا بنقد ما

---

(١) أبو عبيد: القاسم بن سلّام، الأموال، تحقيق: محمّد خليل، الطّبعة الأولى، مكتبة الكليّات الأزهريّة، ١٩٦٨، ص٣٢٤-٣٢٦.

(٢) الفرّاء، الأحكام السّلطانيّة، ص٢٥١-٢٥٢.

(٣) انظر :

غيداء كابتي، الخراج منذ الفتح الإسلاميّ حتّى أواسط القرن الثّالث الهجريّ، الفصل السّادس، ص٢٣٣-٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بين أيدينا من الخطب المتعلّقة بوقعة دير الجماجم مثالاً على ما وصل إلينا من هذه النّصوص الّتي ينبغي التّعامل معها بحذر شديد، والتّأكّد من صحّة نسبتها للعصر الأمويّ[١].

- **وقعة دير الجماجم :**

نقل الأخباريّون -لمّا أرّخوا لهذه الوقعة- عدداً من الخطب المنسوبة للمشاركين فيها، وهي :

١- خطبة منسوبة لابن الأشعث لمّا نزل بدير الجماجم[٢].

٢- خطب لعدد من القرّاء الّذين قيل إنّهم شاركوا في هذه الفتنة[٣]، وهم :

أ- ابن أبي ليلى الفقيه.

ب- أبو البحتريّ.

حـ- الشعبيّ.

د- سعيد بن جبير

٣- خطبة منسوبة للحجّاج بن يوسف بعد الوقعة[٤].

ا- خطبة ابن الأشعث :

جاء في الطّبريّ -برواية أبي مخنف- أنّ ابن الأشعث لمّا نزل بدير الجماجم، حمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال :

---

(١) للمزيد عن الثّورات والفتن في عهد الحجّاج، انظر :
عبد الواحد ذنّون طه، العراق في عهد الحجّاج بن يوسف الثّقفي، الطّبعة الأولى، مطابع جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٥، ص٧٥-١١٣.

(٢) الطّبري، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه، حـ٦، ص٣٥٧-٣٥٨.
انظر حول هذا الموضوع :
حسين عطوان، الفقهاء والخلافة في العصر الأمويّ، الطّبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.

(٤) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٢، ص١٣٨-١٤٠. وابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٧٦-١٧٧. والمسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٣٩-١٤١. وابن عساكر : أبو القاسم عليّ بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق : محبّ الدّين أبي سعيد، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، حـ١٢، ص١٢٧. وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ١، ص٣٤٤-٣٤٥. وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أمّا بعد، فقد أعطيتم أمراً انتهازكم اليوم إيّاه فرصة، ولا آمن أن يكون على ذي الرّأي غداً حسرة، وإنّكم اليوم على النّصف، وإن كانوا اعتدوا بالزّاوية، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فاقبلوا ما عرضوا عليكم، وأنتم أعزّاء أقوياء، والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون. فلا واللّه لا زلتم عليهم جراء، ولا زلتم عندهم أعزّاء، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم" [1].

وجملة المآخذ على هذه الخطبة ما يلي :

١- أنّ راويها أبو مخنف، وهو من الرّواة الكذّابين.

٢- أنّها لم ترد في المصادر قبل القرن الرّابع الهجريّ، ولم ترد -فيما بين يدي من مصادر- إلّا عند الطّبريّ.

٣- يذكر الطّبريّ أنّ ابن الأشعث خطب هذه الخطبة لمّا أبلغ عبد اللّه بن عبد الملك ومحمّد بن مروان أهل العراق أنّ عبد الملك يعرض عليهم "نزع الحجّاج عنهم، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشّام، وأنّ ينزل ابن محمّد أيّ بلد من عراق شاء، يكون عليه والياً ما دام حيّاً، وكان عبد الملك والياً، فإن هم قبلوا ذلك عزل عنهم الحجّاج" [2] وتظهر هذه الرّواية ابن الأشعث حريصاً على مصالحه الدّنيويّة، ممّا يثير الاستغراب من أمر اشتراك القرّاء معه في محاربة الحجّاج! ولو كان ابن الأشعث يقاتل لحقّ مغتصب، أو ثأر مرتقب لما انضمّ أخوته للحجّاج في دير الجماجم[3].

فمحاولة إظهار ثورة ابن الأشعث بأنّها ثورة دينيّة غير مقبولة عند التّدقيق والمقابلة بين ما وصل إلينا من روايات عن هذه الفتنة.

وينسب ابن أعثم في الفتوح خطبة غير هذه الّتي بين أيّدينا، يظهر فيها الأشعث مصرّحاً بطمعه في الخلافة، وفيها يقول بعد حمد اللّه :

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه، حـ٦، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٣) البلاذريّ، أنساب الأشراف، مخطوط مصوّر، نسخ : عبد الأمير دكسن، المكتبة السّليمانيّة، اسطنبول، رقم (٥٩٨)، ص٣٢٧-٣٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أيّها النّاس، إنّ الحرب سجال تهلك فيها أنفس الرّجال، فإنّ رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- ما ظفر يوماً قطّ حتّى ينال منه ومن أصحابه، فإن كان هذا الأمر في قريش فقد فقأتم بيضة قريش، وإن يكن في غيركم من العرب فأنا عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب.

أيّها النّاس، إنّكم لتعيّرون آل مروان بأمّهم الزّرقاء، ولا واللّه ما كان لهم نسب قطّ أشرف من الزّرقاء ! وإنّكم تعلمون أنّ مروان هو الطّريد ابن طريد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم" (١).

ويلاحظ في الجزء الأول من الخطبة التزام الخطيب بحمد اللّه والثّناء عليه، وخلوّ الخطبة من الصّنعة اللفظيّة ومن آثار المذهب الكلاميّ، ولم يكن من أصحاب الخوارج، ولم تظهر الخطبة ذلك ممّا يعزّز صحّة نسبة هذه الخطبة له، وأنّ خروجه عن الجماعة سبب كاف لمقاتلته.

أمّا الجزء الثّاني فيلاحظ أنّه لم يخرج عن التّهم والمثالب الموجّهة للخلفاء الأمويّين الّتي سادت سائر النّصوص الخطابيّة، وهي إمّا تهم جزاف ألقاها في محاولة كسب تأييد النّاس، أو من زيادات المتأخّرين، ولا سيّما أنّه لم يثبت أنّ معاوية أو والده كانا طريديّ رسول اللّه-عليه الصّلاة والسّلام-كما تزعم هذه الخطبة.

وبين أيدينا إشارة تكشف عن مطامع ابن الأشعث، رواها أحد الأخباريّين المتشيّعين هو ابن رسته في قوله :

"أعرق العرب في الغدر عبد الرّحمن بن محمّد بن الأشعث بن معدي كرب غدر بالحجّاج فقتل غادراً، وغدر محمّد أبوه بمسلم بن عقيل، وغدر الأشعث بن قيس ببني الحارث بن كعب فغزاهم، فأسروه، ففدى نفسه بمائتيّ قلوص، فأعطاهم مائة، وبقيت عليه مائة فلم يؤدّها؛ حتّى جاء الإسلام فهدم ما كان في الجاهليّة، وغدر محمّد بن الأشعث أيضاً بأهل طبرستان، وكان ابن مرجانة ولاه إيّاها

---

(١) ابن أعثم، الفتوح، حـ٨، ص١٣٩-١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فصالحهم، وعقد لهم، ثمّ غزاهم غادراً فأخذوا عليه الشّعاب، فقتلوا ابنه أبا بكر وفضحوه" (١).

وجاء في كتاب "الحيوان" على لسان ابن الأشعث يصوّر وسيلته في التّقرّب إلى الحجّاج :

"ثمّ قدم الحجّاج، وكان يدني على القرآن، فحفظته في سنة" (٢).

٢- موقف القرّاء من الفتنة :

روى الطّبريّ -بطريق أبي مخنف- أنّ عبد الرّحمن بن أبي ليلى الفقيه خطب في القرّاء، فقال :

"يا معشر القرّاء، إنّ الفرار ليس بأحد من النّاس بأقبح منه بكم. إنّي سمعت عليّاً -رفع اللّه درجته في الصّالحين، وأثابه أحسن ثواب الشّهداء والصّدّيقين- يقول يوم لقينا أهل الشّام : أيّها المؤمنون، إنّه من رأى عدوانا يعمل به، ومنكراً يدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسّيف لتكون كلمة اللّه العليا وكلمة الظّالمين السّفلى، فذلك الّذي أصاب سبيل الهدى، ونوّر في قلبه اليقين، فقاتلوا هؤلاء المحلّين المحدثين المبتدعين الّذين قد جهلوا الحقّ فلا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه" (٣).

وجملة المآخذ على هذه الخطبة :

١- أنّ راويها أبو مخنف الكذاب.

٢- أنّ ابن أبي ليلى الفقيه استدلّ بقول منسوب لعليّ بن أبي طالب، رضي اللّه عنه، وكان من الأجدر به أن يستشهد بحديث الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- ولا سيّما أنّه ثبت في الصّحاح قول الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- :

"من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع

---

(١) ابن رسته : أبو عليّ أحمد بن عمر، الأعلاق النّفيسة، مطبع بريل، ليدن، ١٨٩١، مج٧، ص٢٢٩.

(٢) الجاحظ، الحيوان، تحقيق : عبد السّلام هارون، الطّبعة الثّالثة، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٩٦٩، حـ٥، ص١٩٥.

(٣) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٣٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان"[١].

ولكن يبدو أنّ نزعة أبي مخنف الشّيعيّة كان لها دور في إقحام اسم عليّ في الخطبة .

٣- قوله : "إنّي سمعت عليّاً -رفع اللّه درجته في الصّالحين، وأثابه أحسن ثواب الشّهداء والصّدّيقين يقول يوم لقينا أهل الشّام" يتوقّف في قبوله لسببين :

الأوّل : أنّ ما بين أيدينا من مصادر لم تشر إلى مشاركته في صفّين الّتي تحتاج إلى تمحيص ونقد لرواياتها [٢].

والثّاني : أنّ ابن حجر ذكر أنّ ابن أبي ليلى ولد لستّ بقين من خلافة عمر بن الخطاب، ولو صحّت هذه الرّواية فإنّه لم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من عمره آنذاك، ولم يشر أحد إلى اشتراك الغلمان في صفّين.

وينسب الطّبريّ -برواية أبي مخنف- لأبي البحتريّ قوله :

"أيّها النّاس، قاتلوهم على دينكم ودنياكم، فواللّه لئن ظهروا عليكم ليفسدنّ عليكم دينكم، وليغلبنّ على دنياكم" [٣].

وقال الشعبيّ :

"يا أهل الإسلام، قاتلوهم ولايأخذكم حرج من قتالهم، فواللّه ما أعلم قوماً على بسيط الأرض أعمل بظلم، ولا أجور منهم في الحكم، فليكن بهم البدار" [٤].

وقال سعيد بن جبير :

"قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنيّة ويقين، وعلى آثامهم، قاتلوهم على جورهم في الحكم، وتجبّرهم في الدّين، واستذلالهم الضّعفاء، وإماتتهم الصّلاة" [٥].

ويبدو القرّاء -في هذه الخطب- متمسّكين بمبادئهم مقتنعين بمحاربتهم

---

(١) ابن حنبل، المسند، حـ٤، ص٩٨، حديث رقم ١١٤٦٠.

(٢) للمزيد عن الأباطيل الّتي أحاطت بهذه الحادثة، انظر :
ابن مهران : أبو نعيم أحمد بن عبد اللّه، تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة، تحقيق:إبراهيم عليّ، الطّبعة الأولى، دار الإمام مسلم للنّشر والتّوزيع، ١٩٨٦، ص٢٠١-٢١٠. وإبراهيم شعوط، أباطيل يجب أن تمحى من التّاريخ، ص١٣٩-١٩١.

(٣) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٣٥٧.

(٤) المصدر نفسه، حـ٦، ص٣٥٧-٣٥٨.

(٥) المصدر نفسه، حـ٦، ص٣٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجور والمنكر، وهذا قول لا يقبل من راوية كذّاب، كأبي مخنف، ويتناقض مع الكثير من الرّوايات الّتي تصوّر موقفاً مخالفاً لعدد من القرّاء من هذه الفتنة، من ذلك قول الشّعبيّ نفسه :

"فتنة لم تكن فيها برزة أتقياء، ولا فجرة أقوياء" (١).

وقول الحسن البصريّ :

"أرى أنّها فتنة صمّاء، وذلك أنّكم لم تختلفوا في ربّ ولا نبيّ ولا كتاب ولا قبلة، فرحم اللّه عبداً اتّقى ربّه، ونظر ليوم معاده" (٢).

ولمّا سئل مالك بن دينار : أعلى الكفر قوتل الحجّاج ؟ قال : ليتنا لم نشهد، وليت من قتل منّا نجوا" (٣).

وأبدى طلحة بن مصرّف ندمه قائلاً : "وددت أن يدي قطعت، ولم أشهد دير الجماجم" (٤).

إنّ تناقض الرّوايات على هذا النّحو، يرجّح أنّ القراء لم يشاركوا في (دير الجماجم)، وإنّما اقحموا على الثّورة لإضفاء الطّابع الدّينيّ عليها، ولا سيّما أنّ جلّ المصادر اتّفقت على أنّ ابن الأشعث خرج لمطامع دنيويّة خالصة.

أمّا التّهمة الموجّهة للأمويّين -على لسان ابن جبير- من إماتتهم للصّلاة، فهي تهمة باطلة، ردّها ابن خلدون بقوله :

"وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصّلاة، وترصّدهم لذلك في أوقاتها، يشهد ذلك بمباشرتهم لها، وأنّهم لم يكونوا يستخلفون فيها. وكذا كان رجال الدّولة الأمويّة من بعدهم استئثاراً بها واستعظاماً لرتبتها" (٥).

ثمّ يسوق دليلاً على ذلك قول عبد الملك بن مروان لحاجبه :

---

(١) خليفة، تاريخ خليفة، حـ١، ص٢٨٨. والجاحظ، المحاسن والأضداد، تقديم: عصام عيثاني، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٣.

(٢) ابن أعثم، الفتوح، مخطوط مصور عن الأصل الموجود في مكتبة أحمد الثالث، اسطنبول، رقم (٢٩٥٦)، حيدر أباد، الباكستان، ١٩٦٨، حـ٢، ورقة ١٠٩ أ.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، مخطوط مصور، حـ١١، ورقة ٣٧ ب.

(٤) خليفة، تاريخ خليفة، حـ١، ص٢٨٧.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص١٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قد جعلت لك حجابة بابي إلّا عن ثلاثة : صاحب الطّعام فإنّه يفسد بالتّأخير، والآذان بالصّلاة فإنّه داع إلى اللّه، والبريد فإنّ في تأخيره فساد القاصية" [١].

٣- خطبة الحجّاج بعد دير الجماجم :

تعدّ رواية المسعوديّ للخطبة المنسوبة للحجّاج بعد دير الجماجم النّصّ الوحيد -فيما بين أيدينا من مصادر- المسند[٢]؛ رواه عاصم بن أبي النّجود، وهو من الثّقات، ولكن مأخوذ عليه ضعف حفظه[٣].

وتمتاز هذه الرّواية بقربها من الأحداث، إذ توفي عاصم في عام (١٢٨هـ)، ولكنّ المسعوديّ لم يذكر نقلتها عن عاصم ممّا يجعل الباحث متوقفاً في قبول هذا السّند.

وجملة المآخذ على نصّ هذه الخطبة ما يلي :

١- لم تشر المصادر إلى أنّ الحجّاج حمد اللّه وأثنى عليه، وهذا شأن سائر الخطب المنسوبة للحجّاج الّتي تصوّره ظالماً مهدّداً متوعّداً.

٢- قيام الخطبة من بدايتها إلى نهايتها على الصّنعة البديعيّة الّتي لم يعرفها العصر الأمويّ، من ذلك قوله :

"ثمّ يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله. يا أهل العراق، والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الختارات، والنّزوات بعد النزوات، إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم" [٤].

٣- المقابلة بين أهل العراق وأهل الشّام -في نصّ الخطبة- يوحي بأنّ الخلفاء الأمويّين وولاتهم يفضّلون أهل الشّام على أهل العراق، ومع ذلك جاء قوله "يا

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص١٣٩.

(٣) ابن حجر، تهذيب التّهذيب، حـ٥، ص٢٧.

(٤) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهل الشّام، أنتم الجنّة والرّداء، وأنتم العدّة والحذاء" [١]، فيه إهانة صريحة لهم لمّا جعلهم كالحذاء !

وخلاص الأمر أنّ الباحث ينبغي أن يتوخى الحذر في قبول الخطب المصنّفة تحت باب "خطب الفتن والثّورات"، والّتي تصوّر الفتن وكأنّها تحوّلات جذريّة عادلة في وجه ثبات السّلطة الأمويّة الجائرة، ولكنّها في حقيقتها تكشف عن أهواء ونزعات عرقيّة ومذهبيّة متعصّبة تكاد تخفى معالم الحقيقة [٢].

(١) المصدر نفسه، حـ٢، ص١٤٠.

(٢) انظر :

علي حسني الخربوطلي، تاريخ العراق في ظلّ الحكم الأمويّ، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩. ونبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أميّة، الطّبعة الثّالثة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٥. و أنونيس، الثّابت والمتحوّل، الطّبعة الرّابعة، دون مكان نشر، ١٩٨٣. وحسين محمّد سلمان، رجال الإدارة في الدّولة الإسلاميّة العربيّة، دار الإصلاح للطّبع والنّشر، الدّمام، ١٩٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرّابع

سائر الخطابة الأمويّة

أوّلاً - الخطب العقديّة.
ثانيـاً - الخطب الوعظيّة.
ثالثـاً - الخطب الفقهيّة.
رابعـاً - خطب الوفود.
خامساً - خطب النّساء.
سادساً - خطب التّأبين.
سابعـاً - خطب النّكاح.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوّلاً - الخطب العقديّة :

يلاحظ الباحث في خطابه العصر الأمويّ ندرة الخطب العقديّة المنسوبة له، ولم أستطع الحصول إلّا على ثلاثة نصوص خطابيّة، فيما بين يدي من مصادر؛ نسب اثنان منها للخوارج، والثّالث لواصل بن عطاء.

وستعرض هذ الدّراسة للنّصوص الثّلاثة تباعاً.

١- خطب الخوارج :

لم أقع فيما بين يدي من مصادر على خطب تكشف حقيقة فكر الخوارج إلّا ما نسب لعبد اللّه بن يحيى إثر استيلائه على اليمن.

أمّا الخطبة المنسوبة لأبي حمزة فلا تكاد تظهر عقيدتهم على وجهها، وإنّما ذكر شيعة آل أبي طالب قائلاً :

"وأمّا أخواننا من الشّيعة، وليسوا بأخواننا في الدّين، لكنّي سمعت اللّه يقول ﴿يأيّها النّاس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[1] فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله، وأثرت الفرقة على اللّه، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن، ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الثّواب، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم، وجعلوا دينهم العصبيّة لحزب لزموه، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم غيّاً كان أو رشداً، ضلالة كان أو هدى، ينتظرون الدّول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل السّاعة، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما في بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه، أو يحويه جسمه، ينقمون المعاصي على أهلها، ويعملون بها، ولا يعلمون المخرج منها. جفاة في دينهم، قليلة عقولهم، قد قلّدوا أهل بيت من العرب دينهم، وزعموا أنّ موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصّالحة، وتنجيهم من عقاب الأعمال السّيّئة. قاتلهم اللّه، أنّى يؤفكون"[2].

---

(١) الحجرات/١٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي هذا الجزء من الخطبة أمران يثيران الاستغراب :

الأوّل : كيف يدوّن ابن أبي الحديد ذو النّزعة الشّيعيّة المتعصّبة خطبة فيها قدح وذمّ في الشّيعة ! هذا وإنّ الطّبري لم يأت على ذكر هذا الجزء من الخطبة في النّصّ الّذي أورده في تاريخه[١].

والثّاني : ماذا يعني بقوله "سمعت اللّه يقول"؟ أهو موسى، عليه السّلام، حتّى يكلّم اللّه تكليما؟! ومثل هذا الكلام لا يصدر عن عاقل يدرك حقائق الأشياء حتى لو كان مجازاً.

إنّ ما ورد من أمر الشّيعة في هذه الخطبة يضاف إلى جملة الأسباب المشار إليها في الفصل الثّاني من هذه الدّراسة للشّكّ في نسبة هذه الخطبة لأبي حمزة، لأسباب هي :

١- أنّ الشّيعة باعتبارها فرقة إسلاميّة ذات عقيدة تميّزها عن غيرها لم يكن لها وجود في العصر الأمويّ.

٢- قوله "ينتظرون الدّول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة" يشير إلى معتقدات الغالية من الشّيعة، ولم يكن لهم وجود في العصر الأمويّ[٢].

٣- قوله "يدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم واحدهم ما في بيته إلخ..." قالت به غير فرقة كالكيسانيّة والهاشميّة، وهي فرق ظهرت في العصر العباسيّ[٣].

٤- قوله "وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصّالحة، وتنجيهم من الأعمال السّيّئة"، لم تصرّح به أيّ من المصادر الشّيعيّة .

أمّا الخطبة الثّانية المنسوبة للخوارج فهي خطبة عبد اللّه بن يحيى إثر استيلائه على اليمن، وجاء فيها :

"إنّا ندعوكم -أيّها النّاس- إلى كتاب اللّه وسنّة نبيه وإجابة من دعا إليهما. الإسلام ديننا، ومحمّد نبيّنا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٣٩٥-٣٩٦.

(٢) الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص١٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ق١، ص١٣١ و ١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حلالاً لا نبتغي به بدلاً، ولا نشتري به ثمناً، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوّة إلا باللّه، وإلى اللّه المشتكى، وعليه المعوّل.

من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكّ في أنّه كافر فهو كافر.

ندعوكم إلى فرائض بيّنات وآيات محكمات وآثار نقتدي بها، ونشهد أنّ اللّه صادق فيما وعد، وعدل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرّبّ، واليقين بالوعد والوعيد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية اللّه، والعداوة لأعداء اللّه.

أيّها النّاس :

إنّ من رحمة اللّه أن جعل في كلّ فترة بقايا من أهل العلم؛ يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم في جنب اللّه، ويقتلون على الحقّ في سالف الأيّام، شهداء فما نسيهم اللّه ﴿وما كان ربّك نسيا﴾ [1].

أوصيكم بتقوى اللّه وحسن القيام على ما وكّلتم بالقيام عليه، وقابلوا اللّه حسناً في أمره وزجره أقول قولي هذا، وأستغفر اللّه لي ولكم" [2].

وجملة المآخذ على هذه الخطبة ما يلي :

١- يشير عدد من المصادر إلى أنّ عبد اللّه بن يحيى كان إباضيّاً، وكانت دعوة الإباضيّين سريّة، ولم تعلن عن مبادئها حتّى عام ١٣٦هـ[3].

فكيف أعلن عبد اللّه مبادئ الإباضيّين في هذه الخطبة أمام النّاس ؟

٢- قوله "من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكّ في أنّه كافر فهو كافر" نسبه الطّبريّ لأبي حمزة[4]، ولا يظهر هذا القول المقصود بالكفر عند أيّ منهما، في حين أجمع الإباضيّون على أنّ من

---

(١) مريم/٦٤

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٥، ص١٠٧-١٠٨.

(٣) عبد الرّزّاق محمّد أسود، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، مج٢، ص٢٣١.

(٤) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٣٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ارتكب كبيرة من الكبائر كَفر كُفر النّعمة لا كفر الملّة[1].

٣- في الخطبة إشارة إلى أربعة من الأصول الخمسة الّتي قام عليها الفكر الاعتزاليّ، وهي : العدل، والتّوحيد، واليقين بالوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ولم تشر أيّ من المصادر الّتي تناولت عقائد الإباضيّين إلى أنّهم قالوا بهذا [2].

٤- قوله "إنّ من رحمة اللّه أن جعل في كلّ فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضلّ إلى الهدى". يثير قضيّة ذات أبعاد خطرة. فماذا يقصد من قوله (فترة)؟

يقول صاحب الصّحاح :

"الفترة الانكسار والضّعف ... والفترة ما بين الرّسولين من رسل اللّه عزّ وجلّ" [3].

فهل يقصد أنّ الحركة الخارجيّة كانت تمر بمرحلة ضعف؟ أو هي الفترة ما بين الرّسولين ؟

وعند مقابلة دلالة هذه الكلمة مع الحقائق التّاريخيّة، يتبيّن أنّ الخوارج لم يكونوا يؤمنون برسول منتظر، بل إنّ الحركة الخارجيّة بدأت تتحرك مع قرب زوال الدّولة الأمويّة.

ثمّ إنّ هذا الرّأي نادى به أصحاب الطّاعة من الخوارج في العصر العبّاسيّ، إذ قالوا :

---

(١) الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص١٢١.

(٢) انظر :

الشّهرستانيّ، الملل والنحل، ق١، ص١٢١-١٢٢. والبغداديّ، الفرق بين الفرق، ص٧٠-٧١. والعوتبيّ : سلمة، كتاب الضّياء، وزارة التّراث القوميّ والثّقافة، عمان، ١٩٩٠، الجزء الثّالث. وعوض خليفات، نشأة الحركة الإباضيّة، مطابع دار الشّعب، عمان، ١٩٨٧.

Marie Bernard, Annals, Isla Mologiques, Le kitabe Al- Radd ALA L-Bida, DAbu Mutl Makhul Al- Nasafi

(كتاب الرّدّ على أهل البدع والأهواء الضّالة المضلّة لأبي مطيع مكحول النّسفيّ).

Institute Francais D Archeolocie orientale Du caire, 1980, Tome XVI, p 69-71.

(٣) الجوهريّ، الصّحاح، حـ٢، ص٧٧٧، مادة (ف ت ر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"إنّ العالم يفنى كلّه إذا أفنى الله أهل التّكليف، ولا يجوز إلّا ذلك لأنّه إنّما خلقه لهم" [١].

٢- خطبة واصل المنزوعة الرّاء :

من الغريب أن تشير بعض المصادر كالبيان والتّبيين[٢] وغيره إلى خطبة واصل المنزوعة الرّاء دون أن توردها نصّاً، مع أنّها كما يبدو من إشارات الأخباريّين كانت مشهودة.

وأقدم نصّ -فيما بين يديّ من مصادر- ذكره ابن زولاق (ت ٣٧٨هـ) في مؤلّفه "كتاب أخبار سيبويه المصريّ" [٣] دون إسناد.

ويضمّ كتاب "نوادر المخطوطات" لعبد السّلام هارون نصّ خطبة واصل[٤]، وأشار المحقق في مقدّمتها إلى أنّ تاريخها يعود إلى سنة ٥٨٧هـ. نسخها محمّد ابن يوسف اللخميّ، وقرأها على شيخه أبي ذرّ الخشنيّ[٥]، وهو نصّ يفتقر إلى الإسناد.

وأبو ذرّ الخشنيّ من علماء الأندلس في اللغة والنّحو، واكتفت المصادر بإشارات متفرّقة عنه[٦].

وعند المقابلة بين النّصّ المشرقيّ والنّصّ المغربيّ يلاحظ التّطابق بينهما.

أمّا المآخذ على هذه الخطبة -ضمن سياقها التّاريخيّ- فهي :

---

(١) البغداديّ، الفرق بين الفرق، ص٧٣.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ١، ص١٤.

(٣) ابن زولاق : الحسن، كتاب أخبار سيبويه المصريّ، نشره محمّد إبراهيم، وحسن الدّيب، الطّبعة الثّانية، مكتبة الأبحاث العلميّة لنشر علوم العربيّة، القاهرة، ١٩٨٠، ص٨١-٨٢.

(٤) عبد السّلام هارون، نوادر المخطوطات، الطّبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، حـ١، ص١٤٧-١٤٩.
قابل بـ
أحمد مفتاح، مفتاح الأفكار، جريدة الإسلام، القاهرة، ١٨٩٦، ص٢٧٠.

(٥) عبد السّلام هارون، نوادر المخطوطات، حـ١، ص١٤٣.

(٦) انظر ترجمته في :
ابن الأبّار : أبو عبد الله محمّد بن عبد الله، التّكملة لكتاب الصّلة، مجريط، ١٨٨٦، السّفر الأول، ص٣٨٥. وابن سعيد : عليّ بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق : شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٦٤، حـ٢، ص٥٥ والخشنيّ : أبو ذر مصعب بن أبي بكر، الإملاء المختصر في شرح غريب السّير، تحقيق: عبد الكريم خليفة، الطّبعة الأولى، دار البشير، عمّان، ١٩٩١، مقدّمة التّحقيق، ص١١-٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١- أنّها لا تتناسب والموقف الّذي ألقيت فيه، إذ يروى أنّه خطبها في حفل جامع حشد له أبرز الخطباء عند عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز والي العراق آنذاك[١]، أي ما بين عامي (١٢٦-١٢٩هـ)، ويرجّح عبد السّلام هارون أنّه ألقاها في بداية تولّي عبد اللّه إمرة العراق[٢]، ومع ذلك فلم يحفل فيها بخليفة ولا والٍ، وخرجت عن مقتضى الحال إلى الوعظ والإرشاد.

٢- أنّ أيّاً من المصادر لم تحفظ لنا خطب خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الّذين شاركوا في هذا المحفل الخطابيّ، مع ما تذكره المصادر عنهم -ولا سيّما خالداً- من قدرة وبراعة خطابيّة.

٣- أنّها وصلت إلينا دون إسناد.

ولمّا كانت الملاحظات السّابقة تلقي ظلالاً من الشّكّ على نسبة هذه الخطبة لواصل، فإنّ مضمون هذه الخطبة يكاد ينفيها، وذلك للأسباب التّالية :

١- طول التّحميد، وهو أمر لم يكن مألوفاً في الخطابة الأمويّة، ولم تشر إليه كتب الإنشاء.

٢- تأثّر هذه الخطبة بالمذهب الكلاميّ؛ من ذلك قوله : "ولا تلهينّكم الحياة الدّنيا بزينتها وخدعها، وفواتن لذّاتها، وشهوات آمالها، فإنّها متاع قليل، ومدّة إلى حين، وكلّ شيء منها يزول. فكم عانيتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حبائلها، وأهلكت من جنح إليها واعتمد عليها، أذاقتهم حلواً، ومزجت لهم سمّاً" [٣].

٣- بعدها عن القواعد الأربعة الّتي نادى بها الواصليّة وهي[٤] :

أ- نفي صفات الباري.

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٧، ص٢٨٤. وابن زولاق، كتاب أخبار سيبويه، ص٨٠.

(٢) عبد السّلام هارون، نوادر المخطوطات، حـ١، ص١٤١-١٤٢.

(٣) ابن زولاق، كتاب أخبار سيبوية، ص٨١-٨٢.
وعبد السّلام هارون، نوادر المخطوطات، حـ١، ص١٤٨.

(٤) الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- القول في القدر.

حـ- القول بالمنزلة بين المنزلتين.

د- القول في أصحاب الجمل وصفّين.

٤- اعتناء هذه الخطبة بصفات الباري -عزّ وجلّ- مثل : وهو السّميع العليم...علا عن صفات كلّ مخلوق، وتنزّه عن شبه كلّ مصنوع.. أعوذ باللّه القويّ .. إنّ اللّه هو السّميع العليم.. بسم اللّه الفتّاح المنّان[١]، والقاعدة الأولى عند واصل : "نفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة" [٢]. بل إنّ واصلاً قرر قاعدة القول بالقدر أكثر مما كان يقرّر قاعدة الصّفات[٣]، ومع ذلك فإنّه لا يربط هذا المفهوم بمضمون خطبته، ولم يمزجه بوعظه.

٥- قوله (الحمد للّه القديم بلا غاية) يثير قضيّة جدليّة كانت ما تزال في بدايتها، "وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليّين. قال : ومن أثبت معنى وصفة قديمة، فقد أثبت إلهين. وإنّما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة" [٤].

وينسب أبو الحسن الأشعريّ هذا الرّأي مرّة إلى المتكلّمين دون تحديد في قوله :

"واختلف المتكلّمون في معنى القول في اللّه إنّه قديم: [فقال بعضهم : معنى القول إنّ اللّه قديم] أنّه لم يزل كائناً لا إلى أوّل، وأنّه المتقدّم لجميع المحدثات لا إلى غاية" [٥]. فقوله (المتكلّمون) يؤكّد أنّ الخلاف عبّاسيّ النّشأة، ثمّ يكرّر الأشعريّ العبارات السّابقة في موضع آخر من

---

(١) عبد السّلام هارون، نوادر المخطوطات، حـ١، ص١٤٧.

(٢) الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص٥١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الأشعريّ : أبو الحسن، مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلّين، تحقيق: محي الدّين عبد الحميد، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، د.ت، حـ١، ص٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكتاب، ويضيف : "وهذا قول الجبائيّ" [١]، والجبائيّ هذا توفّي في عام (٣٠٣هـ) [٢].

٦- قوله "الباقي بلا نهاية" رأي لمتأخرين من المعتزله منهم الإسكافيّ (ت ٢٤٠ هـ) فالله عندهم "لم يزل باقياً على الأوقات والأزمان" [٣].

٧- قوله "فلا يحويه زمان" يناقض قوله في قدم الله وبقائه اللذين هما زمان أصلاً، ثمّ إنّ معمر بن عبّاد هو صاحب هذا الرّأي، فالشّهرستانيّ قال إنّ المعمريّة يقولون "ووجود الباري تعالى ليس بزمانيّ" [٤].

٨- قوله "ولا يحيط به مكان" قال به هشام الفوَطيّ، وعبّاد بن سليمان، وأبو زُفر وغيرهم من المعتزلة من أعلام القرن الثّالث [٥].

٩- قوله "ولا يؤدّه حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعاً، وعدّله اصطناعاً" متأثّر بنظريّةالمحاكاة عند أرسطو، قال به أبو الهذيل: "خلق الشّيء [الّذي] هو تكوينه بعد أن لم يكن هو غيره" [٦].

١٠- قوله "وأوضح حكمته فدلّ على ألوهيته" يتعلّق بمسألة علّة خلق الخلق، فأبو الهذيل والنّظّام قالا بعلّة المنفعة، على اختلاف قصدها عند كل منهما، ومعمر قال: "خلق الخلق لعلّة، والعلّة لعلّة، وليس للعلل غاية ولا كلّ". وعبّاد قال: خلق الخلق لا لعلّة [٧].

١١- قوله "وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا مثيل له، إلهاً تقدّست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كلّ مخلوق، وتنزّه عن شبه كلّ مصنوع، فلا

---

(١) المصدر نفسه، الطّبعة الأولى، مطبعة السّعادة، مصر، ١٩٥٤، حـ٢، ص١٧٩.

(٢) السّمعانيّ: عبد الكريم بن محمّد، الأنساب، تقديم وتعليق: عبد الله البارودي، الطّبعة الأولى، دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨، حـ٢، ص١٤.

(٣) الأشعريّ، مقالات الإسلاميّين، حـ٢، ص٥٢.

(٤) الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص٦٦-٦٧.

(٥) الأشعريّ، مقالات الإسلاميّين، حـ٢، ص٤٨.

(٦) المصدر نفسه، حـ١، ص٢١٨.

(٧) المصدر نفسه، حـ١، ص٢٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول" [١]، فيه ردّ على المشبّهة والمجسّمة الّذين خرجوا بأفكارهم وآرائهم بعد القرن الثّالث الهجريّ[٢].

١٢- قوله "ولا دافع لقضائه" هي الإشارة الوحيدة لمسألة القدر، ولو كانت الخطبة لواصل فعلاً لشرع في بيان رأيه فيها، وإلّا فلماذا تخطب الخطب ؟

١٣- تكاد الخطبة تنقسم إلى قسمين لا علاقة لأحدهما بالآخر، ففي حين اعتمد التّحميد المذهب الكلاميّ، اعتمد غرض الخطبة (الوعظ) التّزويق اللفظيّ المتعمّد من سجع وجناس وطباق، يظهر فيه أثر الصّنعة واضحاً، في حين أنّ المصادر تذكر أنّه ارتجلها ارتجالاً ممّا عزّز مكانتها، وأعلى من شأنها.

وخلاصة القول :

إنّ واصل بن عطاء له خطبة منزوعة الرّاء أشادت بها المصادر، ولكن لا يمكن الإطمئنان إلى أنّها الخطبة الّتي بين أيدينا للأسباب السّالفة الذّكر، وقمّة الغبن لهذا العصر ولرجاله، ألّا نقع على خطب تظهر آراءهم ومعتقداتهم في ظلّ نشوء فرقتين من أكبر الفرق هما الخوارج والمعتزلة[٣]، وليس أنسب من الخطابة ساحة للمبارزة.

ثانياً - الخطب الوعظيّة :

يلاحظ في هذا اللون من الخطب تقارب نصوصه شكلاً ومضموناً مهما تباينت مستويات قائليها، حتّى ليشعر القارئ أن لا فرق بين أسلوب خليفة أو واعظ

---

(١) ابن زولاق، كتاب أخبار سيبويه، ص٨١ .
عبد السّلام هارون، نوادر المخطوطات، حـ١، ص١٤٧.

(٢) الأشعريّ، مقالات الإسلاميّين، حـ١، ص٢٥٧-٢٥٩.

(٣) من الغريب أن يتحدّث عبد الرّحيم زلط عن خطب المرجئة والقدريّة والمعتزلة بقوله "فخطابتهم دينيّة كلاميّة، وأسلوبهم فيه تهذيب ويبعدعن الطّعن والفحش" فأين هي هذه الخطب الّتي استند إليها في قوله؟ انظر :
عبد الرّحيم زلط، الفنون الأدبيّة وأثرها في الحياة، فن الخطابة، مكتبة الشّباب، القاهرة، ١٩٧٧-١٩٧٨، ق١، ص١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كبير، وبين أسلوب رجل مغمور من الأعراب، وخير مثال على ذلك اختلاف المصادر في نسبه نصّ خطابيّ في الوعظ، جاء فيه :

"أيّها النّاس، إنّما الدّنيا دار ممرّ، والآخرة دار مقرّ، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم" (١).

ففي حين ينسبه صاحب النّهج لعليّ بن أبي طالب، رضي اللّه عنه، يذكر المبرّد وابن عبد ربّه-على لسان الأصمعي-وغيرهما أنّ رجلاً من الأعراب قاله في البادية، أمّا ابن نباتة فينسبه لسحبان بن زفر، ممّا يبيّن الصّعوبة الّتي كان يواجهها القدماء في تمييز خصائص أسلوب خطيب من آخر.

وينطبق هذا الأمر على النّصوص الخطابيّة المنسوبة للعصر الأمويّ، وهذا اللون من الخطب لا يسهل كشف صحيحه من زائفه إلّا في نصوص قليلة، تعرض هذه الدّراسة لنماذج منها :

الأوّل : منسوب لمعاوية بن أبي سفيان في مرض موته.

والثّاني : منسوب لقطريّ بن الفجاءة في التّحذير من الدّنيا.

والثّالث : ليزيد بن معاوية في الوعظ.

١- خطبة معاوية في مرض موته :

جاء في "البيان والتّبيين" أنّ معاوية خطب حين دنا أجله، فقال :

"أيّها النّاس، إنّا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن شديد، يعدّ فيه المحسن مسيئاً، ويزداد فيه الظّالم عتوّاً، ولا ننتفع بما علمناه، ولا نسأل عمّا جهلناه، ولا نتخوف قارعة حتّى تحلّ بنا، فالنّاس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلّا مهانة نفسه، وكلال حدّه، ونضيض وفره. ومنهم المصلت لسيفه، المجلب بخيله ورجله، المعلن بسرّه، قد أشرط لذلك نفسه، وأوبق دينه، ولبئس المتجر أن تراها لنفسك ثمناً، وممّالك عند اللّه عوضاً، ومنهم من يطلب

---

(١) المبرّد، الكامل، حـ٣، ص١٤٧٩. وابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص٢٣٥. والشّريف الرضيّ، نهج البلاغة، ص٢٣٤. وابن نباتة : جمال الدّين محمّد بن محمّد، سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، القاهرة، ١٩٥٧، ص١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدّنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدّنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمّر من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتّخذ ستر اللّه ذريعة للمعصية، ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع من سببه، فقصرت به الحال عن أمله..." (١).

وقد شكّكَ الجاحظ في نسبة هذه الخطبة لمعاوية، لأسباب منها (٢):

١- أنّ هذا الكلام لا يشبه السّبب الّذي من أجله دعاهم معاوية.

٢- أنّه لم يجد معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزّهّاد، ولا يذهب مذاهب العبّاد. وأمّا قوله: "ومنها أنّ هذا المذهب في تصنيف النّاس وفي الإخبار عنهم وعمّا هم عليه من القهر والإذلال، ومن التّقية والخوف أشبه بكلام عليّ -رضي اللّه عنه- ومعانيه" (٣)، فغير دقيق، لأنّ التّقية لم تكن معروفة في عصر الخلفاء الرّاشدين، إذ يذكر الشّهرستانيّ أنّها ظهرت على يد السّليمانيّة من الرّافضة في العصر العباسيّ(٤).

ومن أسباب الشّكّ في صحّة نسبتها لمعاوية :

١- ظهور الصّنعة اللفظيّة الّتي لم يعرفها العصر الأمويّ.

٢- ظهور أثر المذهب الكلاميّ من وضع المقدّمات والنّتائج في الخطبة بشكل واضح.

وهذا ممّا يعزّز الشّكّ في صحّة نسبتها لعليّ كذلك (٥).

٣- قوله " إنّا أصبحنا في دهر عنود، وزمن شديد، يعدّ فيه المحسن مسيئاً، ويزداد فيه الظّالم عتوّاً إلخ ..." لا يصف حقيقة هذا العصر؛ عصر الجهاد

---

(١) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٥٩-٦٠.
قابل بـ
ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٢، والشّريف الرّضي، نهج البلاغة، ص٣٦.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص٦١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الشّهرستانيّ، الملل والنّحل، ق١، ص١٤٢.

(٥) للمزيد عن خصائص خطب عليّ، انظر :
جاسر أبو صفية، الخطابة وتطوّرها في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص١٥٥-١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعلم، بل هو وصف لعصر انتشر فيه الفساد والتّرف، وبعد الناس فيه عن الدّين، وهو مالم يكن قائماً في تلك الحقبة الّتي عاش فيها كبار الصّحابة؛ حملة لواء الإسلام.

٢- خطبة قطريّ بن الفجاءة :

جاء في "البيان والتّبيين" أنّ قطريّ بن الفجاءة خطب فقال :

"أمّا بعد، فإنّي أحذّركم الدّنيا، فإنّها حلوة خضرة، حفّت بالشّهوات، وراقت بالقليل، وتحبّبت العاجلة وجليت بالآمال، وتزيّنت بالغرور، لا تدوم جبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرّارة ضرّارة، خوّانة غدّارة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، أكّالة غوّالة، بتّالة نقّالة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرّغبة فيها، والرّضا عنها، أن تكون كما قال الله ﴿ كماء أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرّياح وكان الله على كلّ شيء مقتدرا ﴾ [١] مع أنّ امرأ لم يكن منها في حبره إلّا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرّائها ظهراً، ولم تطله غبطة رخاء إلّا هطلت عليه مزنة بلاء، وحريّ إذا أخنحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متنكّرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمرّ عليه منها جانب وأوبى، وإن أتت أمراً من غضارتها ورفاهتها نعماً، أرهقته من نوائبها نقماً..." [٢].

وهذه الخطبة تنسبها بعض المصادر لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[٣].

وجملة المآخذ على هذه الخطبة :

١- أنّها لا تتناسب والأحداث المصاحبة لها، إذ كان الخوارج يعانون من حصار

---

(١) الكهف/٤٥.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٢، ص١٢٦-١٢٩.
قابل ب
ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٩٧-١٩٩.

(٣) الشّريف الرضيّ، نهج البلاغة، ص١١٥-١١٨. والقضاعيّ: أبو عبد الله محمّد بن سلامة، دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشّيم، مطبعة اليرموك، بغداد، ١٩٨٩، ص ، وابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، حـ٧، ص٢٢٦-٢٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمويّين[١]، فكان من الأولى أن يلجأ الخطيب إلى تثبيت أقدام الجند، وإغرائهم بما أعدّ لهم من جزاء عظيم، أمّا مضمون الخطبة الّتي بين أيدينا فيكشف عن شديد اعتناء بالوعظ والإرشاد الّذي يناسب حال السّلم لا الحرب.

٢- ظهور الصّنعة اللفظيّة فيها، حتّى لا تكاد تخلو على طولها من مختلف ألوانها.

٣- طولها -دون مسوّغ- ممّا ينافي مقتضى الحال من جهة، وخصائص الخطابة الأمويّة من جهة أخرى.

٤- اقتصرت الخطبة على عنصر واحد جعل الخطيب يطنب ويكرّر فيها، وهذا أمر ينتقص من شأن الخطيب، ولا تخفى سيّئاته على خطيب مفوّه كابن الفجاءة.

٥- لا تشير هذه الخطبة -على طولها- إلى آراء الخوارج ومعتقداتهم.

٣- خطبة يزيد بن معاوية :

ومن الخطب الوعظيّة الّتي يطمئنّ إلى صحّة نسبتها لقائلها وعصره الخطبة المنسوبة ليزيد، وفيها يقول[٢]:

"الحمد للّه، أحمده، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكّل عليه، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، فمن يهد اللّه فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، اصطفاه لوحيه، واختاره لرسالته بكتاب فصّله وفضّله، وأعزّه وأكرمه، ونصره وحفظه، ضرب فيه الأمثال، وحلّل فيه الحلال، وحرّم فيه الحرام، وشرع فيه الدّين إعذاراً وإنذاراً، لئلّا يكون للنّاس على اللّه حجّة بعد الرّسل، ويكون بلاغاً لقوم عابدين.

أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه العظيم الّذي ابتدأ الأمور بعلمه، وإليه يصير

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص١٦٨-١٧٣.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معادها، وانقطاع مدّتها، وتصرّم دارها، ثمّ إنّي أحذّركم الدنيا، فإنّها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وأينعت بالفاني، وتحبّبت بالعاجل، لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجيعتها، أكّالة غوّالة غرّارة، لا تبقى على حال، ولا يبقى لها حال. لن تعدو الدّنيا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرّغبة فيها والرّضى بها أن تكون كما قال اللّه -عزّ وجلّ- : ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرّياح وكان اللّه على كلّ شيء مقتدراً ﴾[1].

نسأل اللّه ربّنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين. إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب اللّه، يقول اللّه : ﴿وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[2]. أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم، بسم اللّه الرّحمن الرّحيم : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبي اللّه لا إله إلا هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم ﴾[3].

هذه الخطبة -وإن كانت غير مسندة- إلّا أنّها تعدّ أنموذجاً للخطب الوعظيّة يمكن الاطمئنان إلى صحّته للأسباب التّالية :

١- قربها من خطابة الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- والخلفاء الرّاشدين.

٢- مراعاتها لمقتضى الحال وعدم مزجها بقضايا دنيويّة صرفة.

٣- استشهاد الخطيب بالقرآن الكريم، وبعض المعاني المستمدّة من الحديث الشّريف في قوله : "إنّي أحذّركم الدّنيا فإنّها حلوة خضرة إلخ....."

٤- خلوّها من مظاهر الصّنعة اللفظيّة.

٥- بعدها عن آثار المذهب الكلاميّ.

٦- خلوها من القذف أو التّشهير بأحد، كما في جلّ الخطب المنسوبة لهذا العصر وخطبائه.

---

(١) الكهف/٤٥.

(٢) الأعراف/٢٠٤.

(٣) التّوبة/١٢٨-١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً - الخطب الفقهيّة :

حفظ لنا كتاب "المسند" عدداً من الخطب الفقهيّة لمعاوية بن أبي سفيان لاشتمالها على أحاديث نبويّة سمعها معاوية عن الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- وهي :

١- عن حميد بن عبد الرّحمن أنّه رأى معاوية يخطب على المنبر -وفي يده قصّة من شعر- قال : سمعته يقول : أين علماؤكم يا أهل المدينة ؟ سمعت رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- ينهى عن مثل هذا، وقال : "إنّما عذّب بنو إسرائيل حين اتّخذت هذه نساؤهم" (١).

٢- عن عليّ بن عبد اللّه بن عليّ، أخبره أنّ أباه أخبره، قال : سمعت معاوية على المنبر بمكّة يقول : نهى رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- عن لبس الذّهب والحرير(٢).

٣- يوسف عن معاوية : أنّه صلّى أمامهم، فقام في الصّلاة، وغيره جلوس، فسبّح النّاس، فتمّ على قيامه، ثمّ سجدنا سجدتين، وهو جالس بعد أن أتمّ الصّلاة، ثمّ قعد على المنبر، فقال : سمعت رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- يقول : "من نسي من صلاته شيئاً فليسجد مثل هاتين السّجدتين" (٣).

٤- عن أبي حريز مولى معاوية، قال : خطب النّاس معاوية بحمص، فذكر في خطبته أنّ رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- حرّم سبعة أشياء، وإنّي أبلّغكم ذلك وأنهاكم عنه منهن : النّوح، والشّعر، والتّصاوير، والتّبرّج، وجلود السّباع، والذّهب، والحرير(٤).

وهذه الخطب صحيحة الإسناد، ومتأثّرة بخطابة الرّسول، صلّى اللّه عليه وسلّم، وبعيدة عن الصّنعة والتّزويق، ممّا يرجّح صحّة نسبتها لمعاوية.

---

(١) ابن حنبل، المسند، حـ٦، ص٢٠، حديث رقم ١٦٨٦٥.
(٢) المصدر نفسه، حـ٦، ص٢٢، حديث رقم ١٦٨٧٣.
(٣) المصدر نفسه، حـ٦، ص٢٩، حديث رقم ١٦٩١٥.
(٤) المصدر نفسه، حـ٦، ص٣٢ - ٣٣، حديث رقم ١٦٩٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أنّ مصادر الأدب لم تحفل بهذا النّوع من الخطب، ولولا اشتمالها على أحاديث نبويّة شريفة لضاعت وفاتت علينا فرصة الاطّلاع على هذا النّوع من الخطب الّذي يكشف عن دورٍ من الأدوار المفروضة للخليفة في هذا العصر من بيان أحكام الشّريعة الإسلاميّة باعتماد القرآن والسّنّة وإحيائهما، والأغلب أنّ هذا النّمط من الخطب قد قاله معاوية في أيّام الجمع وهو الأصل، لا ما تطالعنا به مصادر الأدب ممّا يتنافى وأخلاق المجتمع الإسلاميّ في تلك الحقبة.

رابعاً - خطب الوفود :

انحصرت خطب الوفود الّتي وصلت إلينا منسوبة للعصر الأمويّ في موضوعات ثلاثة : فهي إمّا تهنئة بخلافة، أو طلب حاجة، أو مفاخرة بقبيلة.

ويلاحظ في هذا اللون من الخطب المنسوبة للعصر الأمويّ كثرتها في عهديّ معاوية وعبد الملك دون سائر الخلفاء الأمويّين[1].

وقد أصاب هذا اللون من الخطابة ما أصاب غيره من تزوير وتحريف يتناقض مع ما تذكره المصادر حول حادثة ما، أو موقف خليفة، أو غير ذلك. ولا يكاد يُعثر على نصّ واحدٍ صحيح النّسبة لهذا العصر، إذ لا تكاد ما بين أيدينا من الرّوايات تخلو من قذفٍ وتشهيرٍ بالصّحابة أو إثارة نعراتٍ جاهليّة بين القبائل.

وستعرض هذه الدّراسة لمثالين من خطب الوفود :

الأوّل : وفود رجل من أهل الكتاب على معاوية.

والثّاني : وفود الحجّاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان.

أ - وفود رجل من أهل الكتاب على معاوية :

من خطب الوفود الّتي وصلت إلينا، ما ذكره المبرّد في قوله :

"وتزعم الرّواة أنّ رجلاً من أهل الكتاب وفد على معاوية، وكان موصوفاً

---

(١) انظر مثلاً :

ابن بكّار : العبّاس، أخبار الوافدين من الرّجال على معاوية، تحقيق سكينة الشّهابي، الطّبعة الأولى، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٣،وابن عبد ربّه، العقد، جـ١، ص٢٦٨-٢٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بقراءة الكتب، فقال له معاوية، أتجد نعتي في شيء من كتب اللّه؟ قال : إي واللّه، لو كنت في أمّة لوضعت يدي عليك من بينهم! قال: فكيف تجدني؟ قال: أجدك أوّل من يحوّل الخلافة ملكاً، والخشفة ليناً، ثمّ إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم. قال معاوية: فسري عنّي، ثمّ قال : لا تقبل هذا منّي، ولكن من نفسك، فاجتنب هذا الخبر.

قال : ثمّ يكون ماذا؟ قال: ثمّ يكون منك رجل شرّاب للخمر، سفّاك للدّماء، يحتجن الأموال، ويصطنع الرّجال، ويجنب الخيول، ويبيح حرمة الرّسول. قال : ثمّ ماذا؟ قال: ثمّ تكون فتنة تتشعّب بأقوام حتّى يفضي الأمر بها إلى رجل أعرف نعته؛ يبيع الآخرة الدّائمة بحظّ من الدّنيا قليل، فيجتمع عليه من آلك وليس منك، ولا يزال لعدوّه قاهراً، وعلى من ناواه ظاهراً، ويكون له قرين مبير لعين! قال: أفتعرفه إن رأيته؟ قال: شدّ ما، فأراه من بالشّام من بني أميّة، فقال: ما أراه هاهنا، فوجّه به إلى المدينة مع ثقات من رسله، فإذا بعبد الملك بن مروان يسعى مؤتزراً في يده طائر، فقال للرّسل : هاهوذا. ثمّ صاح به : إليّ أبو من؟ قال: أبو الوليد. قال: يا أبا الوليد، إن بشّرتك ببشارة تسرّك ما تجعل لي؟ قال: وما مقدارها من السّرور حتّى نعلم مقدارها من الجعل؟ قال: أن تملك الأرض. قال: مالي من مال، ولكن أرأيت إن تكفّلت لك جعلاً أأنال ذلك قبل وقته؟ قال: لا قال: فإن حرمتك أتؤخّره عن وقته؟ قال : لا. قال: حسبك ما سمعت.

فذكروا أنّ معاوية كان يكرم عبد الملك ليجعلها يداً عنده يجازيه بها في مخلفته في وقته[1].

وجملة المآخذ على هذه الوفادة ما يلي :

١- أن المبرّد بدأ روايته بقوله "وتزعم الرّواة" ممّا يبيّن أنّ المؤلّف نفسه يشكّ في صحّتها.

٢- أنّ الرّواية لم تذكر اسم هذا الرّجل، فلو كان -كما تقول الرّواية- موصوفاً

(١) المبرّد، الكامل، حـ٣، ص١١٥٧-١١٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بقراءة الكتب فلماذا يظلّ اسمه مجهولاً ؟

٣- أنّها تعرّض بمعاوية ويزيد وعبد الملك والحجّاج، وقد سبقت الإشارة إلى التّشويه المتعمّد الذي أصاب هؤلاء الخلفاء وولاتهم في غير موضع، ولا سيّما أنّها لا تخرج عن سائر التّهم الّتي وجّهها المتحاملون على الدّولة الأمويّة إلى رجالاتها.

٤- موقف معاوية من القذف بولده، دون اعتراض أو دفاع أو محاججة، وكأنّه مسلّم بكلّ ما يقوله الكتابيّ.

٥- تقول الرّواية "ثمّ تكون فتنة تتشعّب حتّي يفضي الأمر بها إلى رجل أعرف نعته"، وهذا يخالف الأحداث التّاريخيّة، إذ آل الأمر بعد خلاف المسلمين إلى مروان لا إلى ابنه.

٦- قوله "فإذا بعبد الملك يسعى مؤتزراً في يده طائر" يثير الدّهشة والاستغراب لأنّ سعيه بإزار يفترض أن يكون آنذاك في مكة لا في المدينة كما تذكر الرّواية.

٧- فيها صنعة لفظيّة واضحة في قوله : "شرّاب للخمر، سفّاك للدّماء يحتجن الأموال، ويصطنع الرّجال، ويجنب الخيول، ويستبيح حرمة الرّسول".

وخلاص الأمر :

أنّ هذه القصّة أشبه ما تكون بنبوءة من النّبوءات ولا نعرف كتاباً سماويّاً جاء على ذكر أحد من الصّحابة أو التّابعين كما تزعم هذه الرّواية، ويرجح افتعالها بعد زوال دولة بني أميّة للأسباب السّالفة الذّكر، ولا سيّما أن عهد معاوية شهد علاقة متميزة بين المسلمين والنّصارى[1].

٢- وفود الحجّاج بإبراهيم بن محمّد على عبد الملك :

ذكر صاحب "العقد" [2] أنّ الحجّاج لمّا وفد بإبراهيم بن محمّد بن طلحة على

---

(١) انظر :
فؤاد البستانيّ، مجلّة المشرق، دور النّصارى في إقرار الخلافة الأمويّة، ص٧١-٩١.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ١، ص٢٧٥-٢٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبد الملك بن مروان، مدحه وأعلى شأنه عند الخليفة، ثمّ طلب له الإذن بالدّخول، فلمّا دخل إبراهيم طلب الاختلاء بعبد الملك فأجابه، ثمّ شرع إبراهيم في قدح الحجّاج وذمّه، فغضب عبد الملك وطرده من مجلسه، ثمّ طلب من الحاجب أن يعيده عند دخول الحجّاج، ويفاجأ إبراهيم أنّ عبد الملك لم يفش للحجّاج أمره، ويكتشف بأنّ عبد الملك ادّعى أن إبراهيم قد طلب من الخليفة إقالة الحجّاج عن ولاية الحرمين استقلالاً لهما، وأن يوليه العراقين، فخرج الحجّاج وقد زاد تكريمه لإبراهيم بن محمّد.

وجملة المآخذ على هذه الرّواية ما يلي :

١- أنها وصلت إلينا دون إسناد.

٢- بدأ ابن عبد ربّه الرّواية بقوله : "لمّا ولي الحجّاج بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزّبير" [١]، ويفهم من هذا أن العراق كانت مكافأة الحجّاج لقتله ابن الزّبير، فيما يذكر الطّبريّ أنّ الحجّاج سنة مقتل ابن الزّبير (٧٣هـ) كان والياً على مكّة واليمامة واليمن[٢]، أمّا والي المدينة فكان طارق مولى عثمان[٣]، ولم يتولّها الحجّاج إلّا في سنة (٧٤هـ) [٤].

٣- يرسم إبراهيم بن محمّد -فيما ينسب له- صورة قاتمة لسياسة الحجّاج : "يا للّه يا أمير المؤمنين، لقد عهدت إلى الحجّاج في تغطرسه وتعجرفه، وبعده عن الحقّ، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما، وبهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار، يسومهم الخسف، ويحكم فيهم بغير السّنّة، بعد الّذي كان من سفك دمائهم، وما انتهك من حرمهم، ويطؤهم بطغام أهل الشّام، ورعاع لارويّة لهم في إقامة حقّ، ولا في إزاحة باطل" [٥].

---

(١) المصدر نفسه، حـ١، ص٢٧٥.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص١٩٤.

(٣) المصدر نفسه، حـ٦، ص١٩٣.

(٤) المصدر نفسه، حـ٦، ص١٩٥.

(٥) ابن عبد ربّه، العقد، حـ١، ص٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد ارتبطت سياسة الحجّاج بتهمة الظّلم الموجّهة إليه، وأجهد الرّواة أنفسهم في رسم صورة مظلمة لسياسته تجاه رعيّته. وقد ناقش جاسر أبو صفيّة عدداً من هذه الرّوايات وفنّدها، ورسم معالم سياسة الحجّاج العادلة تجاه رعيته فكفانا مؤونة ذلك [١].

أمّا قوله "وهما ماهما، وبهما من المهاجرين والأنصار" فمن هؤلاء المهاجرين والأنصار الّذين عناهم في قوله، القادرون على تحمّل أعباء الولاية؟ وهل تكفي ميزة الهجرة أو النّصرة وحدها للقيام بأعباء الولاية؟ ولا سيّما أنّ من ظلّ على قيد الحياة من المهاجرين والأنصار إلى زمن عبد الملك كانوا قد بلغوا أرذل العمر.

وأمّا قوله "والموالي الأخيار" فيشير قضية اتّهمت بها الدّولة الأمويّة العربيّة وهي اضطهاد الموالي.

وهذه التّهمة لا أساس لها من الصّحّة، واستندت إلى رواية مفردة شاذّة، وبين أيدينا عدد من الرّوايات الّتي تشير إلى إشراك الأمويّين للموالي في سائر وظائف ونشاطات الدّولة[٢]، منها على سبيل المثال لا الحصر :

١- تولية العديد من الموالي منصب القضاء كالحسن البصريّ وعبد اللّه بن يزيد وغيرهما [٣].

٢- تولية عبد الملك نفسه طارقاً مولى عثمان المدينة في سنة (٧٣هـ) [٤].

٣- تولية الخلفاء مسؤولية جباية الضّرائب من البلاد المفتوحة لأمرائها المحلّيين والدّهاقين، وتسليم المقدار المتّفق عليه للوالي[٥] وأمّا إقصاء الخلفاء للموالي عن تولّي ديوان الخراج فقد كان لأسباب فقهيّة منصوص

---

(١) جاسر أبو صفيّة، مجلّة دراسات، صورة الحجّاج في الرّوايات الأدبيّة : دراسة نقديّة، المجلّد الثّامن عشر (أ)، العدد الثّالث، ١٩٩١، ص٢٨٣-٣٣٣.

(٢) صالح أحمد العلي، مجلة أبحاث، موظفو بلاد الشّام في العهد الأمويّ، الجامعة الأمريكيّة، بيروت، ١٩٦٦، عدد (١٩)، ص٤٤-٧١.

(٣) وكيع، أخبار القضاة، حـ٢، ص٣-١٥ و ٤١-٤٢.

(٤) الطبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص١٩٣.

(٥) الجهشياريّ : محمّد بن عبدوس، الوزراء والكتّاب، تحقيق: مصطفى السّقّا وإبراهيم الأبياريّ وعبد الحفيظ الشّلبيّ، مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ، القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٤-٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليها[١].

٤- انضمام فئات من الموالي إلى الجيش، ومنحهم العطاء[٢].

إنّ الموالي لم يكونوا مضطهدين في العصر الأمويّ، كما تزعم الرّوايات، إذ استغلّوا الحركات المناهضة للأمويّين، وانضموا إليها، وتبنّوا شعاراتها، فيما كان هدفهم الحقيقيّ إضعاف العرب وهدم الدّولة وإعادة سلطان الفرس[٣].

وأمّا قوله "ويطؤهم بطغام أهل الشّام، ورعاع لا رويّة لهم في إقامة حق" فيتعلّق باتّهام المجتمع العربيّ في العصر الأمويّ بالبداوة، وهي تهمة روّج لها الشعوبيّون طويلاً، وهذا القول "يعود انتشاره إلي كثرة تكراره لا إلى أساس تاريخيّ، فالعصر الأمويّ كان عصر حركة ثقافيّة نشيطة، فيه بدأت العلوم الأجنبيّة تنقل إلى العرب.. أمّا العلوم الدّينية من فقه وتفسير وما يتّصل بها كالتّاريخ فقد نهض بها العرب" [٤].

٥- يبدو موقف عبد الملك بعيداً عن هيبة الخليفة، فكيف يرضى -على ورعه وفقهه- بالكذب لإنقاذ إبراهيم من غضب الحجّاج.

٦- تبيّن هذه الرّواية أنّ هذا الموقف بين عبد الملك وإبراهيم كان السّبب في عزل الحجّاج عن الحرمين، وتولّيه العراقين، وهذا يناقض ما ذكره الطّبريّ عن سبب تولية الحجّاج العراقين، إذ قال :

"خرج الحجّاج بن يوسف من المدينة حين أتاه كتاب عبد الملك بن مروان بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مروان" [٥].

هذه مآخذ تعزّز الشّكّ في صحّة نسبة هذه الوفادة إلى العصر الأمويّ، ولو تتبّعنا سائر الوفادات، لظهرت مآخذ كثيرة على هذا اللون الخطابيّ، وما في هاتين الوفادتين إلّا القليل.

---

(١) جاسر أبو صفيّة، مجلّة العقيق، تعريب الدّواوين في العصر الأمويّ : دراسة نقديّة، نادي المدينة المنوّرة الأدبيّ، السّعودية، كانون الثّاني -حزيران، ١٩٩٣، مج٢، ع ٣+٤، ص٥٤-٥٥.

(٢) انظر :
خالد الجنابي، تنظيمات الجيش العربيّ الإسلاميّ، ص٤٦-٥٤.

(٣) انظر :
فاروق عمر، وقائع النّدوة القوميّة لمواجهة الدّسّ الشّعوبيّ، مشكلة الموالي : ورقة خاسرة بيد الشّعوبيّة، حـ٢، ص٥١-١٠٠.

(٤) عبد العزيز الدّوري، مقدّمة في تاريخ الإسلام، الطّبعة الثّالثة، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤، ص٧٤.

(٥) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٢٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامساً - خطب النّساء :

تنسب المصادر خطباً لعدد من أعلام النّساء في العصر الأمويّ، يكاد جلّها يدور حول مسألة الخلاف بين عليّ ومعاوية. وممّا يثير الدّهشة والاستغراب أن تقتصر صورة المرأة في خطابة هذا العصر على مثل هذا الدّور الّذي لا يلبث أن يتلاشى هو الآخر بعد الدّرس والنّقد والتّمحيص. والسّؤال الّذي ينشأ هنا : لماذا لا نجد للمرأة -في خطابة العصر الأمويّ- دوراً أبرز، ومنهن العالمات والشّاعرات وربات الفصاحة ؟ إنّ ما وصل إلينا من خطب النّساء في ذلك العصر يمكن إجماله فيما يلي :

١- وفادة عدد من النّساء على معاوية [١].

٢- وفادات ليلي الأخيليّة على معاوية ومروان والحجّاج[٢].

٣- خطب لعدد من أخوات وبنات الحسين بعد مقتله[٣].

٤- خطبة لامرأة في رثاء الأحنف بن قيس[٤].

واكتفي هنا بعرض عام لخطب الوافدات على معاوية، ومناقشة الخطبة المنسوبة لزينب بنت عليّ بين يدي يزيد، أمثلة على ما وصل إلينا من خطب

---

(١) انظر مثلاً :

ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النّساء، مطبعة مدرسة والدة عبّاس الأوّل، القاهرة، ١٩٠٨، ص٤٤و٦٦ - ٧٨. وابن عبد ربّه، العقد، حـ١، ص١٢٠-١٣١ و ٢٩٦-٣٤٠. وابن بكّار، أخبار الوافدات من النّساء على معاوية، تحقيق : سكينة الشّهابيّ، الطّبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣. وابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تراجم النّساء، تحقيق : سكينة الشّهابيّ، الطّبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٢، تراجم النّساء، ص١٠٩-١١١ و ١٧٨-١٨٠ و ٥١٣-٥١٦ و ٥٣٠-٥٣٢ و ٥٧٠-٥٧٢. وابن أعثم : أحمد الكوفيّ، الفتوح، تحقيق : د. سهيل زكّار، الطّبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢، حـ١، ص٢٨٠-٢٩٥.

(٢) انظر مثلاً :

المرزباني : محمّد بن عمران، أشعار النّساء، تحقيق : سامي مكّي العاني وهلال ناجي، دار الرّسالة للطّباعة، بغداد، ١٩٧٦، ص٤٨-٨٤. والمبرّد : الكامل، حـ١، ص٣٩٨. والقيروانيّ : أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق : زكي مبارك، الطّبعة الرّابعة، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢، حـ٣، ص١٠٠٢-١٠٠٤.

(٣) انظر :

ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٢٥-٢٨. والسّيد محسن الأمين، أعيان الشّيعة، الطّبعة الثّالثة، مطبعة الإنصاف، بيروت، ١٩٦٠، حـ٤، ص١٤٢-١٤٣ و ١٥٠-١٥٢. وعائشة عبد الرّحمن، موسوعة آل النّبيّ، الطّبعة الأولى، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٦٧، ص٧٤٣-٧٤٤.

(٤) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٣، ص٣٠٢. وابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٥٥-٥٦. والقالي، ذيل الأمالي، الطّبعة الثّانية، دار الحديث للنّشر والتّوزيع، مكّة المكرّمة، ١٩٨٤، ص٢٧. والقيروانيّ، زهر الآداب، حـ٣، ص٧٠١-٧٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النّساء في العصر الأمويّ.

ا - الوافدات على معاوية :

تذكر المصادر أنّ عدداً من النّساء وفدن على معاوية بن أبي سفيان لطلب حاجة، أو الشّكوى من عامل، وأنّ معاوية أجابهنّ وأكرمهن، ومن هؤلاء النّساء : أروى بنت الحارث، وأمّ الخير البارقيّة، وأم سنان المذحجيّة، وعكرشة بنت الأطرش وغيرهن.

ومع تعدّد الأسماء في هذه الوفادات، فإنّ الصّورة المرسومة لهنّ في الرّوايات، تبدو وكأنّها لامرأة واحدة، إذ نجد أنّها في الغالب تتحدث عن امرأة عجوز قدمت على معاوية من العراق أو الحجاز لطلب حاجة منه، أو للشّكوى من أحد عماله، وتقوم بينهما محاورة نكتشف -من خلالها- أنّ هذه المرأة انحازت لعليّ بن أبي طالب في صفّين، أو أنّها من المؤيّدين له، وحين يعاتبها معاوية، تعتذر منه، فما يلبث أن يكرمها ويجيبها.

ويرجّح الشّكّ في صحّة هذه الوفادات للأسباب التّالية :

١- أنّ الصّورة المرسومة تكاد تكون واحدة، ممّا يرجّح أنّ شخصاً واحداً افتعلها ووضعها على لسان هؤلاء النّسوة.

٢- أنّ النّساء المذكورة أسماؤهنّ في هذه الوفادات إمّا من أقارب عليّ كأروى بنت الحارث، أو من قبائل قيل إنّها انحازت لعليّ في وقعة صفّين، فأمّ سنان المذحجيّة، مثلاً، من قبيلة مذحج الّتي حاربت مع عليّ في سنة ٣٧هـ واشتركت في حوادث سنة ٥١هـ، وحاربت مع المختار في سنة ٦٦هـ[١]، وسودة بنت عمارة من قبيلة همدان الّتي كانت متشيّعة لعليّ في صفيّن[٢]، وكذلك شأن سائر النّساء، ممّا يرجّح افتعال الشّيعة لها.

٣- ممّا يثير الدّهشة والاستغراب أن تقطع امرأة عجوز مسافة طويلة تتحمّل

---

(١) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٩، حـ٣، ص١٠٦٢-١٠٦٣.

(٢) المرجع نفسه، حـ٣، ص١٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيها مشاق السّفر من العراق أو الحجاز لتسبّ معاوية، ثمّ تذكر حاجة لها ويجيبها معاوية.

٤- يبدو معاوية في هذه الرّوايات -مسلوب الإرادة- تجاه طعن بعض هؤلاء النّساء في عمّاله، كزياد ومروان وبسر، فحين قدمت عليه أمّ سنان المذحجيّة تشكو مروان بن الحكم أمرلها براحلة وخمسة آلاف درهم، دون أن يحقّق في شكواها، أو يعدها بالنّظر فيها، وتبدو المرأة قانعة بالمال، وتنسى شكواها[١]. فهل يعقل أن تتنازل المرأة عن شكوى قطعت لأجلها مسافات طويلة؟ وهل يعقل أن يقبل معاوية اتّهامها لمروان دون طلب بيّنة؟ إنّ مثل هذا الموقف يبدو وكأنّ الغرض منه الطّعن على مروان بن الحكم، وعدم متابعة مثل هذه الشّكوى يرجّح افتعالها.

٥- تعرّض أروى بنت الحارث، فيما نسب إليها، بالصّحابة وتسبّهم[٢]، وقد عرضت هذه الدّراسة لهذا الأمر الّذي لم يكن له وجود أصلاً في غير موضع.

إنّ هذه الأسباب المجملة تعزّز الشّكّ في صحّة هذه الوفادات، وتجعل الباحث يتوقّف في قبولها.

٢- خطبة زينب بنت عليّ بين يديّ معاوية :

تعدّ حادثة مقتل الحسين أعظم فتنة وقعت في العصر الأمويّ، ويقف الباحث حائراً أمام الكمّ الهائل من الرّوايات المتناقضة الّتي وصلت إلينا، ومع ما كتب عن هذه الفتنة قديماً وحديثاً، فإنّ الأمر لم يخرج عن نطاق الاجتهادات الّتي تصيب وتخطئ.

---

(١) انظر :

ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٦٧-٦٩. وابن عبد ربّه، العقد، حـ١، ص١٣٠-١٣١. وابن بكّار: العبّاس، الوافدات على معاوية، وابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تراجم النّساء، ص٥٣٠-٥٣٢. وابن أعثم، الفتوح، حـ١، ص٢٨٩-٢٩١.

(٢) انظر:

ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٣٢-٣٥ . وابن عبد ربّه، العقد، حـ١، ص٣٠٣-٣٠٤. وابن بكّار، الوافدات على معاوية، ص٤٧-٥١. والحمويّ : ابن حجّة، ثمرات الأوراق، اختيار : يعقوب عبد النّبيّ، وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، القاهرة، د.ت، ص١٠٩-١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا تسعى هذه الدّراسة إلى إضافة اجتهاد جديد في مقتل الحسين، أو البحث عن سبب مقتله؛ فالخوض في هذه الفتنة ليس بالأمر اليسير، وكما يذكر الإمام الغزاليّ "فإنّ من كان في عصره من الأكابر والوزراء والسّلاطين لو أراد أن يعلم حقيقة من الّذي أمر بقتله أو رضي به أو كرهه لم يقدر على ذلك، وإن كان قد قتل في جواره وزمانه وهو مشاهده، فكيف لو كان في بلد بعيد وزمان بعيد وقد انقضى؟ [١] "، لذا فإنّ هذه الدّراسة لن تبعد عن مناقشة مضمون الخطبة المنسوبة لزينب بنت عليّ بين يديّ يزيد[٢]، ومقابلتها بخطبة منسوبة لها قيلت في الكوفة[٣]، وبما جاء عند كبار الأخباريّين.

وجملة المآخذ الّتي يمكن تسجيلها على هذه الخطبة ما يلي :

١- أنّها لم ترد في المصادر المتقدّمة، ولا حتّى عند الطّبريّ الّذي أولى هذه الفتنة شديد اعتنائه.

٢- أنّها جاءت دون إسناد، فيما أسندت الخطبة المنسوبة لها في الكوفة إلى خزيم بن بشر الأسدي، وهو شخص مجهول، لم تشر إليه كتب التّراجم*.

٣- تعرّض الخطبة بسبي يزيد لبنات النّبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- وهتك أستارهن، في قولها :

"أمن العدل يا ابن الطّلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوق بنات رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- سبايا، قد هتكت ستورهنّ، وأبديت وجوههنّ، تحدو بهنّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهنّ أهل المناهل والمناقل، ويتصفّح

---

(١) ابن خلّكان، وفيات الأعيان، حـ٣، ص٢٨٧.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٢٥-٢٧.

(٣) ابن أعثم، الفتوح، حـ٢، ص١٧٣-١٧٤.

* ذكر الفرناطيّ في كتابه "جنّة الرّضا" قصّة جابر عثرات الكرام؛ عكرمة الفيّاض مع رجل من بني أسد بالرقة يقال له خزيمة بن بشر، وتشير الرّواية إلى أنّ سليمان بن عبد الملك ولّاه الجزيرة على عهد عكرمة هذا.

فلو كان خزيمة هو خزيم نفسه، ووقع في اسمه تصحيف فالسّؤال الّذي ينشأ هنا : كيف يروى والٍ أموي خطبة فيها طعن وقذف بخلفاء أمويّين على النّحو الّذي جاءت به هذه الخطبة؟

انظر :

الفرناطيّ: أبو يحيى محمّد بن عاصم، جنّة الرّضا في التّسليم لما قدّر الله وقضى، تحقيق : صلاح جرّار، دار البشير، عمّان، ١٩٨٩، حـ٢، ص٢١١-٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من وجوههن القريب والبعيد، والدّنيّ والشّريف، ليس معهنّ من حماتهنّ حميّ، ولا رجالهنّ وليّ" [١].

وهذا القول يناقض جملة المواقف الّتي سجّلها الطّبريّ في بيان موقف يزيد من بنات النّبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- إذ يروي أنّ يزيد لمّا دخلت عليه بنات النّبيّ -صلّى اللّه عليه وسلّم- قال :

"قبّح اللّه ابن مرجانة! لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا" [٢].

كما ينقل حواراً بين فاطمة بنت الحسن ويزيد تقول فيه فاطمة :

"أبنات رسول اللّه سبايا يا يزيد! فقال يزيد: يا ابنة أخي، أنا لهذا كنت أكره، قالت : والله ما ترك لنا خرص، قال : يا ابنة أخي، ما آت إليك أعظم ممّا أخذ منك" [٣].

وتذكر الرّواية أنّهنّ أدخلن دار يزيد "فلم تبق امرأة من آل يزيد إلّا أتتهنّ، وأقمن المآتم، وأرسل يزيد إلى كلّ امرأة: ماذا أخذ لك؟ وليس منهنّ امرأة تدّعي شيئاً بالغاً ما بلغ إلّا قد أضعفه لها" [٤].

كما يذكر الطّبريّ أنّه أوصى النّعمان بن بشير أن يجهّزهم بما يصلحهم، ويبعث معهم رجلاً من أهل الشّام أميناً صالحاً، ويبعث معه خيلاً وأعواناً فيسير بهم إلى المدينة [٥].

وما نخرج به من هذه الرّوايات، أنّ يزيد لم يعرّض بنات النّبيّ للهتك والسّبيّ كما تزعم الخطبة.

ويعلّق ابن تيمية على هذا الادّعاء بقوله :

"وأمّا ما يرويه من لا عقل له يميّز به ما يقول، ولا له إلمام بمعرفة المنقول :

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٢٦.

(٢) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٤٦٢.

(٣) المصدر نفسه، حـ٥، ص٤٦٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، حـ٥، ص٤٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أنّ أهل البيت سبوا، وأنّهم حملوا على البخاتيّ، وأنّ البخاتي نبت لها من ذلك الوقت سنامان : فهذا الكذب الواضح الفاضح لمن يقوله، فإنّ البخاتي لا تستر امرأة، ولا سبى أهل البيت أحد، ولا سبي منهنّ أحد" (١).

٤- تعرّض الخطبة بيزيد، وتحمّله تبعة مقتل الحسين وفرحه لذلك :

"فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدّنيا لك، والأمور متّسعة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا" (٢).

وجاء في موضع آخر من الخطبة :

"وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة، واستأصلت الشّأفة، بإراقتك دماء ذريّة محمّد -صلّى اللّه عليه وسلّم- ونجوم الأرض من آل عبد المطّلب" (٣).

كما تعرّض بعبيد اللّه بن زياد :

"وكيف ترتجي مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الأزكياء، وبنت لحمه بدماء الشّهداء" (٤).

وهذا الاتّهام يتناقض والخطبة المنسوبة لها في الكوفة، إذ تحمل أهلها -أي الكوفة- تبعة قتله :

"وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النّبوّة، ومعدن الرّسالة، وسيّد شباب أهل الجنّة ... ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أيّ كبد لرسول اللّه فريتم، وأيّ كريمة له أبرزتم، وأيّ دم له سفكتم، وأيّ حرمة له انتهكتم؟" (٥).

ولم تصل رواية موثوقة تؤكد أنّ يزيد أمر ابن زياد بقتل الحسين، ممّا يشكّك بصحّة ما جاء في هذه الخطبة، بل إنّ المصادر تسجل ليزيد مواقف تؤكّد عدم رضاه عن قتل الحسين ولومه لابن زياد(٦).

---

(١) ابن تيمية، رأس الحسين، تحقيق: السّيد الجميليّ، الطّبعة الأولى، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٨٥، ص٢٠٨.
انظر أيضاً :
ابن كثير، البداية والنّهاية، حـ٨، ص١٨٥.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٢٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن أعثم، الفتوح، حـ٢، ص١٧٣-١٧٤.

(٦) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٥، ص٤٦٠ و ٤٦٣. وابن تيمية، سؤال في يزيد بن معاوية، تحقيق : صلاح الدّين المنجد، الطّبعة الثّالثة، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٦، ص١٧ وفريال هديب، صورة يزيد، ص٦٩-٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥- نلمح في الخطبة رأي الشّيعة في أحقّية الحسين بالخلافة، وبأنّ يزيد اغتصب ملكهم وسلطانهم، وهو أمر لم يكن له وجود في العصر الأمويّ.

٦- تظهر الصّنعة اللفظيّة فيها بشكل واضح متكلّف، من ذلك قولها :

"فهذي الأيدي تنظف من دمائنا،والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطّواهر الزّواكي تنتابها العواسل، وتعفرها أمّهات الفراعل، ولئن اتّخذتنا مغنما لتجدنّنا وشيكاً مغرما" (١).

ولعلّ هذه الملاحظات المسجلة تعزز الشك في صحة نسبة هذه الخطبة لزينب بنت علي رضي الله عنهما.

سادساً - خطب التّأبين :

تنقل لنا المصادر نماذج من خطب التّأبين لخلفاء وولاة أمويّين، أو لقادة مشهورين، أو للعامّة من النّاس،

ومن نماذج خطب التّأبين الّتي وصلت إلينا الخطبة المنسوبة ليزيد بن معاوية بعد موت أبيه، وجاء فيها :

"إنّ معاوية كان حبلاً من حبال اللّه مدّه ما شاء أن يمدّه، ثمّ قطعة حين أراد أن يقطعه، وكان دون من قبله، وخيراً ممّن يأتي بعده [ولا أزكّيه عند ربه، وقد صار إليه]، فإن يعف عنه فبرحمته، وإن يعاقبه فبذنبه، وقد وليت الأمر بعده، ولست أعتذر من جهل، ولا أشتغل بطلب علم، وعلى رسلكم، إذا كره اللّه أمراً غيّره" (٢).

هذه هي رواية ابن قتيبة للخطبة، وهي -كما يلاحظ- خالية من التّحميد، فيما بدئت عند المسعوديّ بقوله :

"الحمد للّه الّذي ما شاء صنع؛ من شاء أعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض، ومن شاء رفع" (٣).

---

(١) ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٢٧.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص٦٢٩.
قابل بـ :
ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٣. والمسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص٧٥.

(٣) المسعوديّ، مروج الذّهب، حـ٣، ص٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولرأيك لمتّبعين. ثمّ انصرفت" [١].

وقد اختلف في اسم هذه المرأة، إذ ينسبها (الجاحظ) إلى فرعانة بنت أوس ابن حجر[٢]، فيما اسمها عند (طيفور) صفيّة بنت هشام المنقريّة[٣]، وفي رواية (القالي): "جاءت امرأة من قومه من بني منقر" [٤]، أما (القيرواني) فينسبها لزوجته وابنة عمّه[٥].

وللشّكّ في نسبة هذه الخطبة إلى هذا العصر أسباب منها :

١- أنّها رويت دون إسناد عند الجاحظ وطيفور والقيروانيّ، فيما جاء إسنادها منقطعاً عند القالي :

"قال : وأخبرنا أبو حاتم، قال : أخبرنا أبو عبيدة، قال: مات الأحنف..." [٦].

٢- ظهور الصّنعة اللفظيّة فيها، ممّا يتنافى وأسلوب الخطابة في العصر الأمويّ كما سيتضح.

وفي المقابل تطالعنا صورة إيجابيّة في بعض الخطب المنسوبة لهذا العصر وخطبائه، منها ما نسب لعمر بن عبد العزيز لمّا دفن ابنه عبد الملك، إذ قال :

"رحمك اللّه يا بنيّ، فقد كنت براً بأبيك، واللّه ما زلت مذ وهبك اللّه لي بك مسروراً، ولا -واللّه- ما كنت قطّ أشدّ سروراً بك، ولا أرجى لحظّي من اللّه فيك، مذ وضعتك في الموضع الّذي صيّرك اللّه إليه، فغفر اللّه لك ذنبك، وجازاك بأحسن عملك، وتجاوز عن سيّئاتك، ورحم اللّه كلّ شافعٍ يشفع لك بخير من شاهد أو غائب. رضينا بقضاء اللّه، وسلّمنا لأمره، والحمد للّه ربّ العالمين" [٧].

---

(١) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٣، ص٣٠٢.
قابل بـ :
ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٥٥-٥٦. والقالي، ذيل الأمالي، ص٢٧، والقيروانيّ، زهر الآداب، حـ٣، ص٧٠١-٧٠٢.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٣، ص٣٠٢.

(٣) ابن طيفور، بلاغات النّساء، ص٥٥.

(٤) القالي، ذيل الأمالي، ص٢٧.

(٥) القيروانيّ، زهر الآداب، حـ٣، ص٧٠٢.

(٦) القالي، ذيل الأمالي، ص٢٧.

(٧) الجاحظ، البيان والتّبين، حـ٢، ص١٨٢. وابن الجوزيّ، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أن هذا النمط من الروايات -في مثل هذه الخطبة- يصعب تحديد فيما إذا كان خطبة أو قولاً مرسلاً، لأن المصادر كثيراً ما تورد الخطب دون تحميد مع أنه ضابط مهم للدلالة على الخطبة.

سابعاً - خطب النّكاح :

لم تحفظ المصادر إلا النّزر اليسير من خطب النّكاح في العصر الأمويّ، من ذلك ما رواه صاحب "العقد" عن العتبيّ، قوله :

"كان الحسن البصريّ يقول في خطبة النّكاح بعد حمد اللّه والثّناء عليه :

أمّا بعد، فإنّ اللّه جمع بهذا النّكاح الأرحام المنقطعة، والأنساب المتفرّقة، وجعل ذلك في سنّة من دينه، ومنهاج [واضح] من أمره، وقد خطب إليكم فلان، وعليه من اللّه نعمة، وهو يبذل من الصّداق كذا وكذا، فاستخيروا اللّه، وردّوا خيراً يرحمكم اللّه" (١).

والمدقّق في رواية العتبيّ يلاحظ أنّ ما بين أيدينا أنموذج خطبة وليست خطبة، بدليل قوله (خطب إليكم فلان)، وقوله (وهو يبذل من الصّداق كذا)، ولو كانت الخطبة نقلت عن الحسن لذكر اسم هذا الرّجل، ومقدار الصّداق الذي يبذله. وظاهرة وضع أنموذج خطابيّ جاهز لخطبة النّكاح عرفت فيما بعد حين عجز النّاس عن إعداد الخطب بأنفسهم فكانوا يلجأون إلى غيرهم ليصنعوها لهم، كما فعل الخطيب ابن نباتة الفارقيّ، من خطباء القرن الرّابع، فقد صنع للنّاس خطباً في النّكاح يتلونها أو ينسجون على منوالها، وجاءت فيها الكثير من الصّنعة البيانيّة الفائقة (٢).

ثمّ إنّ العرب كانوا يحبّذون أن يطيل الخاطب في خطبته لأنّه راغب، وأن يقصّر المخطوب إليه لأنّه يكتفي منه القبول(٣)، ومع ذلك فقد جاءت هذه الخطبة

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص٢٠٥.

(٢) انظر :
محمّد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥، ص٦٢-٦٣.

(٣) انظر :
ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٤، ص٧٢-٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصيرة، لا تعزّز مكانة الخاطب في نفوس القوم، ممّا يلقي ظلالاً من الشّكّ على صحة نسبتها للحسن.

وبعد ...

فإنّ كثرة الموضوعات الّتي تطرّقت لها الخطابة الأمويّة موضوعة، أو نالها بعض التّحريف والتّزوير، ولا يكاد المرء يطمئنّ إلّا لأقلّ القليل منها.

وخلاص الأمر بعد عرض ما سبق من نماذج خطابيّة منوّعة ما يلي :

١- لا يكاد يُعثر على نصّ خطابيّ واحد صحيح النّسبة للخلفاء الأمويّين -عند تسلّمهم مقاليد الخلافة- إلّا النّصّ المنسوب لعمر بن عبد العزيز كما أورده ابن سعد في طبقاته.

وعند مقابلة نصّ هذه الخطبة بأمثاله في عصر الخلفاء الرّاشدين[1]، يلاحظ التّقارب في طريقة التّناول والمضمون، ولعلّ وجود هذه الخطبة المفردة يدلّ على استمرار هذا التّقليد في العصر الأمويّ، وإن كانت هذه الخطبة لا تكشف إن كان قد طرأ تطوّر ما على هذا اللون الخطابيّ.

٢- يلاحظ زخم الخطب المنسوبة للشّيعة في بداية العصر الأمويّ، وكلّ نصّ عرض لأحقّيّة أحد أبناء عليّ بالخلافة موضوع؛ لأنّه قائم على أساس واهٍ، إذ لم يطالب أحد من أبناء عليّ بالخلافة بعد تنازل الحسن.

وممّا يثير الدّهشة والاستغراب ألّا نعثر على نصوص خطابيّة صحيحة لمّا بدأ التّحرّك الفعليّ للشّيعة بعد عام (١٠٠هـ)، ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ حركتهم كانت سريّة، وما كانوا يجرؤون على التّصريح بها على المنابر.

٣- لا يكاد يعثر على نصٍّ واحدٍ يكشف عن حقيقة موقف الخوارج من الخلافة أو تطوّره، وهي فرقة لا يمكن لباحث إنكار وجودها منذ بداية العصر الأمويّ وتطوّر أفكارها وآرائها على امتداده، وربما يكون أعداء هذه الحركة قد

---

(١) انظر :

جاسر أبو صفية، الخطابة وتطوّرها في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٧١-٧٢و٨٦و١٠٥-١٠٦و١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غيّبوا خطبها عمداً، ووضعوا على ألسنة زعمائها خطباً لا تكشف حقيقة مواقفهم لضرب الأمويّين من خلالهم.

٤- يُفتقر لنصّ خطابيّ صحيح يوضّح موقف ابن الزّبير أو أنصاره من الخلافة.

٥- قلّة النّصوص الخطابيّة الصّحيحة النّسبة للخلفاء الأمويين وولاتهم في شؤون الدّولة الإداريّة والماليّة، إذ أنّ هذا اللون الخطابيّ مرتع خصب لضرب دولة تعلن أنّ دستورها هو الإسلام.

ويلاحظ أنّ الوضع لحق الخطب أكثر ممّا لحق الوصايا السياسيّة، وهو أمر يثير الدّهشة والاستغراب، ولا سيّما أنّ المصادر الّتي أوردت نصوصاً خطابيّة موضوعة، أشارت إلى وصايا سياسيّة يرجّح صحّة نسبتها للعصر ولقائليه، ممّا يرجّح أنّ تهافت الأخباريّين وراء الرّوايات جعلتهم يضمّنون كتبهم الغثّ والسّمين في آن.

ويلاحظ أنّ الوصايا الّتي قيلت في حياة قائليها اتّسمت بالتّقوى وحسن المعاملة، فيما ارتفعت حدّة الوصايا الّتي أوصى بها الخلفاء أبناءهم عند قرب أجلهم، وفيها تكالب على الدّنيا وطمع بها، وهذا أمر يثير الدّهشة والاستغراب؛ لأنّ الأولى أن يدعو الإنسان المسلم إلى التزام الدّين وتعاليمه، وهو يعلم أنّه سينقل إلى دار الحساب.

٦- ندرة النّصوص الخطابيّة الصّحيحة في موضوع الجهاد، مع أنّ العصر الأمويّ هو عصر الذّروة في الفتوحات الّتي امتدّت من الصّين شرقاً وحتّى الأندلس غرباً، ممّا يؤكّد أنّ أعداء الإسلام وراء تغييب هذا اللون الخطابيّ الّذي لا غنى لخليفة أو قائد عسكريّ عنه.

٧- ينبغي التّعامل مع خطب الفتن والثّورات بحذر شديد، لأنّ المصادر أجمعت على حدوثها، ولا بدّ أن تحدث حتّى تسير حلقة التّطوّر التّاريخيّ بصورة منطقيّة، ولكنّ هذا لا يعني أن نطمئنّ إلى صحّة ما بين أيدينا من خطب الفتن والثّورات، فبعض الفتن مثل مقتل الحسين ووقعة الحرّة ومقتل حجر ابن عديّ قامت نصوصها الخطابيّة على أساس المطالبة بحق الشّيعة في

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلافة، وهو أمر لم يكن قائماً في هذه الحقبة المبكّرة من التّاريخ الإسلاميّ.

والقول نفسه ينطبق على سائر الفتن والثّورات على امتداد العصر الأمويّ، إذ استغلها أعداء الأمويّين ووضعوا على لسان الأطراف المشاركة فيها خطباً يناقض أغلبها الأحداث التّاريخية، أو مغرقة في الصّنعة البديعيّة. ويلاحظ أنّ خطبة ابن الأشعث -الّتي رجّحت صحّتها في الفصل الثّالث من هذه الدّراسة- لم تخرج في موضوعها أو شكلها عن النّمط المعهود في عصر الرّاشدين.

٨- عدم وجود نصّ خطابيّ صحيح يكشف عن عقائد الخوارج والمعتزلة، بل إنّ النّصوص الموضوعة كانت نادرة كذلك.

٩- وجود عدد قليل من الخطب الوعظيّة الصّحيحة، وإن كان يلاحظ أنّها لبعض الخلفاء أو الولاة الأمويّين، مع أنّ هذا اللون الخطابيّ -تحديداً- ينبغي أن يشترك فيه كلّ الخطباء لأهميته من ناحية، ولقدرة الجميع على تناوله من ناحية ثانية.

١٠- قلّة الخطب الفقهيّة، بل إنّ مصادر الأدب لم تطالعنا بخطبة فقهيّة واحدة، واستغلّت إلحاق زياد بأبي سفيان لأغراض سياسيّة محضة، فيما لا يمكن أن يمرّ هذا الحدث دون إظهار حكم الشّرع فيه.

ويلاحظ أنّ ما بين أيدينا من خطب فقهيّة لمعاوية بن أبي سفيان، ولولا أنّ كتب الحديث سجّلت له هذه الخطب الّتي ضمّنها أحاديث لرسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- ما عرفنا هذا اللون الخطابيّ.

١١- عدم الاطمئنان إلى سواد ما بين أيدينا من خطب الوفود وخطب النّساء لجملة الأسباب الواردة في الفصل الرّابع من هذه الدّراسة.

١٢- وجود عدد قليل من خطب التّائبين المرجّح صحّتها، وهي خطب اعتمدت ما جاء به القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة من فلسفة الحياة والموت.

١٣- عدم وجود نصّ خطابيّ واحد في النّكاح، مع أهميّة هذا اللون الخطابيّ الّذي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أثر في غير موضع عن الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- والخلفاء الرّاشدين من بعده.

وممّا يؤسف له أنّ قلّة النّصوص الخطابيّة المرجّح صحّتها الّتي بين أيدينا لا تمكّن الباحث من القول إنّ هناك تطوّراً في موضوعات الخطابة.

وخلاص الأمر أنّ الموضوعات الّتي تناولتها الخطابة في هذا العصر، والّتي يطمئنّ لصحّتها -مع قلّتها أو ندرتها- هي :

١- خطب تسلّم مقاليد الخلافة، وإن لم يصل إلينا غير نصّ واحد صحيح، لأنّ مثل هذا اللون الخطابيّ لا غنى عنه -لا في العصر الأمويّ حسب- بل في كلّ زمان ومكان.

٢- الخطب الإداريّة والماليّة، ويندرج تحتها ما يمكن الاطمئنان لصحّته من خطب نتجت عن الفتن والثّورات في العصر الأمويّ.

٣- خطب الجهاد.

٤- الخطب الوعظيّة .

٥- الخطب الفقهيّة.

٦- خطب التّأبين.

ولكن ليس معنى هذا أنّ الخطابة الأمويّة حصرت في فلك هذه الموضوعات حسب، فكما قال القلقشنديّ :

واعلم أنّه كان للعرب بالخطب والنّثر غاية الاعتناء حتّى قال صاحب "الرّيحان والرّيعان" : إنّ ما تكلّمت به العرب من أهل المدر والوبر، من جيّد المنثور ومزدوج الكلام، أكثر ممّا تكلّمت به من الموزون، إلّا أنّه لم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره، لأنّ الخطيب إنّما كان يخطب في المقام الّذي يقوم فيه في مشافهة الملوك، أو الحالات، أو الإصلاح بين العشائر، أو خطبة النّكاح، فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه" [١].

(١) القلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ١، ص٢٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

السّمات الفنيّة للخطابة في العصر الأمويّ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتلخّص السّمات الفنيّة لخطابة العصر الأمويّ -في ضوء ما يمكن الرّكون إلى صحّته من نصوص- فيما يلي :

ا - بناء الخطبة :

أ- المقدّمة :

بدأت الخطب بحمد اللّه والثّناء عليه، والصّلاة على رسوله منتهجة نهج الخطابة في عصر صدر الإسلام.

وقد يتبع التّحميد -ولا سيّما في الخطب الوعظيّة- الاستغفار والتّشهّد؛ من ذلك خطبة يزيد -أنفة الذّكر- في الوعظ[1]، وما روي عن عمر بن عبد العزيز أنّه كان يستفتح خطبه بكلمات هي :

"الحمد للّه، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده اللّه فلا مضلّ له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، من يطع اللّه ورسوله فقد رشد، ومن يعص اللّه ورسوله فقد غوى" [2].

وتكرار هذا القول في غير نصّ خطابيّ مرجّح صحّته، يردّ رأي القلقشنديّ فيما ذهب إليه من "أنّ الخطب الموجودة في مكاتبات المتقدّمين لا تشهّد فيها" [3] ولا سيّما أنّ خطابة الرّسول -عليه الصّلاة والسّلام- تضمّنت التّشهّد والاستغفار[4]، وأهل قرنه أولى بالاقتداء به من المتأخّرين.

ب- الخاتمة :

حفل عدد من النّصوص الخطابيّة بأنماط مختلفة من خواتم الخطب، فيما خلت بعض من الخطب المرجّح صحّتها من الخاتمة، ولكنّ ذلك لا يعني إهمال

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذه الدّراسة، ص١٣٠.

(٢) السّيوطيّ، تاريخ الخلفاء، ص٢٤١.

(٣) القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج٦، ص٢١٧.

(٤) جاسر أبو صفيّة، الخطابة وتطوّرها في عصر الخلفاء الرّاشدين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخواتيم، بل ربّما أسقطها الرّواة أو الأخباريّون أو النّاسخون.

ومن نماذج خواتم الخطب :

١- أستغفر اللّه العظيم لي ولكم.

ومن ذلك خطبة عمر لمّا ولي الخلافة[١]، وخطبة لخالد بن عبد اللّه القسريّ في الحثّ على مكارم الأخلاق[٢].

٢- التّحميد :

من ذلك ما ختم به عمر بن العزيز خطبته في تأبينه لابنه عبد الملك؛ إذ قال : "الحمد للّه ربّ العالمين" [٣].

٣- يرحمكم اللّه :

من ذلك قول معاوية لمّا طلب البيعة لابنه قال :

"ردّوا على أمير المؤمنين يرحمكم اللّه" [٤].

٤- القرآن الكريم :

كثرت الخطب الّتي ختمت بآيات من القرآن الكريم، ويروي عبد اللّه بن العلاء أنّ عمر كان يختم خطبته الأخيرة بهؤلاء الآيات ﴿يا عبادي الّذين أسرفوا﴾ [٥] إلى تمامها[٦]، ولكنّ المصادر حفظت لنا خطبة -يطمئن لصحتها- [٧]ختمها بقوله تعالى: ﴿والّذين إذا فعلوا فاحشة﴾إلى قوله ﴿ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [٨].

٣- استعمال (أمّا بعد) :

---

(١) انظر الفصل الأوّل من هذه الدّراسة، ص٣٥.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٢، ص٢٦٩. وابن نباتة، سرح العيون، ص٢٩٦. والقلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ١، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٣) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ٢، ص١٨٢، وابن الجوزيّ، سيرة عمر، ص٢٦٤.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، حـ٢، ص١٥٧.

(٥) الزّمر/ ٥٣.

(٦) السّيوطيّ، تاريخ الخلفاء، ص٢٤١.

(٧) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٣.

(٨) آل عمران/ ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال أبو هلال العسكريّ :

"وكان النّاس فيما مضى يستعملون في أوّل فصول الرّسائل أمّا بعد، وقد تركها اليوم جماعة من الكتّاب، فلا يكادون يستعملونها في شيء من كتبهم. وأظنّهم ألمّوا بقول ابن القرية وقد سأله الحجّاج عمّا ينكره من خطابته، فقال : إنّك تكثر الرّدّ، وتشير باليد، وتستعين بأمّا بعد. فتحاموه لهذه الجهة مع أنهم رووا في التفسير أن قول الله تعالى ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ [1] هو قوله أما بعد. فإن استعملته اتباعاً للأسلاف، ورغبة فيما جاء فيه من التّأويل فهو حسن، وإن تركته توخّياً لمطابقة أهل عصرك وكراهة للخروج عمّا أصّلوه لم يكن ضائراً" [2].

يفهم من قول أبي هلال هذا أنّ الأصل في الخطب والرّسائل استعمال "أمّا بعد"، وأنّها لم تترك إلّا في عصره.

وعند تتبّع ما يطمئن لصحّته من نصوص خطابيّة يلاحظ أنّ عدداً منها لم يشتمل على قول الخطيب "أمّا بعد"، ولكنّ هذا لا يعني أنّ الخطباء أسقطوه، بل ربّما أهمله الرّواة أو المؤلّفون أو النّاسخون.

وممّا يثير الدّهشة والاستغراب -في هذا الموضع- أن يأخذ ابن القرية على الحجّاج استعانته بأمّا بعد لسببين هما :

١- كيف يعيب ابن القرية على الحجّاج أصلاً متّبعاً في عصره، فالأصل هو انتقاد الخروج عليه !

٢- أنّ كثرة الخطب الموضوعة على لسان الحجّاج، والخطب المرجّح صحّتها قد خلت من قوله أمّا بعد، مثل الخطبة المنسوبة له عند قدومه العراق، والخطبة المنسوبة له بعد وقعة دير الجماجم، ومن خطبه المرجّح صحّتها، وتخلو من قوله أمّا بعد، ما رواه الجاحظ من أنّه خطب يوماً فقال :

---

(١) ص/٢٠.

(٢) العسكريّ: أبو هلال، الصّناعتين، تحقيق : عليّ البجاويّ ومحمّد أبو الفضل، الطّبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ١٩٥٢، ص١٥٩ وابن أبي عون، الأجوبة المسكتة، تحقيق: محمّد عبد القادر، مكتبة النّهضة العربيّة، مصر، د.ت، ص٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أيّها النّاس، اقدعوا هذه الأنفس، فإنّها أسأل شيء إذا أعطيت، وأعطى شيء إذا سئلت، فرحم الله امرأ جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وعطفها بزمامها عن معصية الله، فإنّي رأيت الصّبر على محارم الله أيسر من الصّبر على عذاب الله" (١).

٣- لغة الخطبة :

يلاحظ أنّ لغة الخطابة في العصر الأمويّ قد سارت على نمط لغة الخطابة في عصر صدر الإسلام، فحفلت بألفاظ ومعان مستمدّة من القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة الشّريفة، وحافظت على نقائها، فلم يدخلها لحن أو غريب أو مولّد، ودليل ذلك قول أبي داود :

"تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتّشادق في غير أهل البادية نقص" (٢). كما قال عن الخطبة : "وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر اللفظ" (٣).

ومن المعلوم أنّ النّقاد في العصر العباسيّ كانوا يدلون بآرائهم في ضوء ما بين أيديهم من خطب المتقدّمين.

أمّا ما نسب للوليد بن عبد الملك من أنّه كان يلحن ، فمردود لسببين :

الأوّل : أنّ الوليد تربّى في بيئة عربيّة خالصة لأب وأمّ عربيّين، فمن أين يأتيه اللحن.

الثّاني : أن المصادر الّتي أشارت إلى لحنه لم تذكر نصّاً خطابيّاً أو حتّى قولاً لحن فيه.

وهذه تهمة من جملة التّهم الّتي وجّهت للدّولة الأمويّة لا لشيء إلا لقيامها على أكتاف العرب الخلّص.

وقد استحدثت بعض المعاني في خطابة العصر الأمويّ، من ذلك ما نسب

---

(١) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ١، ص٢٠٦.

(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٢٣.

(٣) المصدر نفسه. والقيروانيّ، زهر الآداب، حـ١، ص١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لخالد القسريّ أنّه قال :

"ولو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسرّ النّاظرين، ولو رأيتم البخل رجلاً رأيتموه مشوّهاً قبيحاً تنفر عنه القلوب، وتغضي عنه الأبصار" (١).

وخلت الخطب من ألفاظ السّبّ والتّشهير والقذف، والتزمت الأدب الإسلاميّ في عرض وجهات النّظر كما نلمس في خطبة الحجّاج بعد قتل ابن الزّبير.

٤- الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشّريف :

تضمّنت أغلب الخطب -المرجّح صحّة نسبتها للعصر الأمويّ- القرآن الكريم، اقتداء بالرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- والخلفاء الرّاشدين من بعده، وقد مرّ غير نصّ استشهد فيه بالقرآن الكريم، بل إنّ عمر بن عبد العزيز خطب، فكانت جلّ خطبته قرآناً (٢)، إذ قال :

"أيّها النّاس، لا تستصغروا الذّنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتّوبة منها ﴿إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات ذلك ذكرى للذّاكرين﴾ (٣) وقال عزّ وجلّ : ﴿والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلّا اللّه، ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾" (٤).

كما تضمّنت بعض الخطب الاستشهاد بالحديث النّبويّ الشّريف مثل خطب معاوية الفقهيّة، إذ استند في تشريعاته إلى ما سمعه عن الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- ورآه، وقال معبد الجهنيّ :

"سمعت معاوية، كان قليل الحديث عن النّبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، وكان قلّما خطب إلّا ذكر هذا الحديث في خطبته :

سمعت رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- يقول : إنّ هذا المال حلو خضر، فمن أخذه بحقّه بارك اللّه -عزّ وجلّ- له فيه، ومن يرد اللّه به خيراً يفقّهه في

---

(١) ابن نباتة، سرح العيون، ص٢٩٦-٢٩٧. والقلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ١، ص٢٦٧.
(٢) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٣.
(٣) هود/١١٤.
(٤) آل عمران/ ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدّين، وإيّاكم والمدح فإنّه الذّبح" [١].

ولكنّ أيّاً من المصادر لم تحفظ لنا خطبة استشهد فيها معاوية بهذا الحديث النّبويّ الشّريف، ممّا يعزّز رأي هشام بأنّ أكثر كلامه كان مصنوعاً.

٥- ندرة التّمثّل بالشّعر والأمثال السّائرة :

قال قدامة بن جعفر :

"ولا يتمثّل في الخطب الطّوال الّتي يقام بها في المحافل بشيء من الشّعر، فإن أحبّ أن يستعمل ذلك في الخطب القصار والمواعظ والرّسائل فليفعل" [٢].

ومثل هذا الرّأي لا يصدر إلّا بعد النّظر في خطابة المتقدّمين، ويلاحظ في النّصوص الخطابيّة المنسوبة لهذا العصر -على علّاتها- قلّة الاستشهاد بالشّعر، وأنّ ما يرجّح صحّته منها خلا من الاستشهاد بالشّعر والأمثال، ويبدو أنّهم شعروا أنّ في القرآن والحديث ما يغنيهم عن الشّعر والأمثال؛ من ذلك أنّ النّعمان بن بشير لمّا أراد أن يحذّر النّاس من الفتنة ضرب لهم مثلاً حديث رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- فقال :

"أيّها النّاس، خذوا على أيدي سفهائكم، فإنّي سمعت رسول اللّه -صلّى اللّه عليه وسلّم- يقول : إنّ قوماً ركبوا في سفينة فاقتسموها، وأخذ كلّ رجل مكاناً، فأخذ بعضهم الفأس، فنقر مكانه، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال: مكاني أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يده نجوا، وإن تركوه هلكوا" [٣].

أمّا الخطبة المنسوبة لعبد الملك بن مروان بعد مقتل الزّبير[٤] فلا يكاد يخلو من نزعات مذهبيّة وعرقيّة واضحة، ثمّ إنّ هذه الخطبة رويت مستشهدة بالشّعر مرّة وبالأمثال ثانية، ممّا يرجّح الشّكّ في أنّ عبد الملك قد قالها.

---

(١) ابن حنبل، المسند، حـ٦، ص٢٧، حديث رقم ١٦٩٠٣.

(٢) قدامة بن جعفر، نقد النّثر، تحقيق : طه حسين وعبد الحميد القبادي، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٩، ص٩٥-٩٦.

(٣) التّوحيديّ: أبو حيّان، البصائروالذّخائر، تحقيق : وداد القاضي، الطّبعة الأولى، دار صادر، بيروت، د.ت.، حـ٥، ص٢٠٢.

(٤) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنّ هذا لا يمنع من أن يكون هناك غير خطيب استشهد بالشّعر أو الأمثال ولكن لم يصل إلينا خطبهم لسبب ما، بدليل أنّ قدامة أشار إلى ألفة استعماله في الخطب القصار والمواعظ.

٦- الخلوّ من السّجع :

فجّر موقف الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- في قوله "أسجعاً كسجع الكهّان" [١] قضيّة جدليّة بين أهل صناعة الأدب، فمنهم من دعا إلى تحاميه اقتداء بالرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- ومنهم من نفى أن يكون الرّسول -صلّى اللّه عليه وسلّم- قد قصد السّجع على إطلاقه ودعوا إلى استعماله في النّثر، وبين هؤلاء وهؤلاء وقف قوم يدعون إلى الاعتدال في استخدامه، وكذا حال الباحثين المعاصرين[٢].

ويلاحظ أنّ كتب النّقد والبلاغة خلت من الإشارة إلى أنّ العرب استخدموا السّجع في خطبهم، وأنّ الدّعوة إلى التزام السّجع في فنّ الخطابة تحديداً، قد ظهر بعد القرن الرّابع الهجريّ، من ذلك قول العسكريّ :

"واعلم أنّ الّذي يلزمك في تأليف الرّسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السّجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد، وكثر ما يقع ذلك في السّجع، وقلّ ما يسلم -إذا طال- من استكراه وتنافر" [٣].

---

(١) أبو داود : سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، إعداد وتعليق : عزّت عبيد و عادل السّيد، الطّبعة الأولى، دار الحديث للنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٩٧٤، حـ٤، ص٦٩٦-٧٠٠، حديث رقم ٤٥٦٨ و ٤٥٧٤. و ابن حسام الهنديّ : علاء الدّين، كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩، حـ١٥، حديث رقم ٤٠٣٨٤ و ٤٠٤٢٤.

(٢) انظر مثلاً :
شوقي ضيف، الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ، الطّبعة الرّابعة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥. وعبد الحكيم بلبع، النّثر الفنيّ وأثر الجاحظ فيه، الطّبعة الثّالثة، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٥. وأنيس المقدسيّ، تطوّر الأساليب النّثريّة في الأدب العربيّ، الطّبعة السّادسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩. وزكي مبارك، النّثر الفنيّ في القرن الرّابع، الطّبعة الثّانية، المكتبة التّجاريّة الكبرى، مصر، د.ت.

(٣) العسكريّ، الصّناعتين، ص١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول عبد القاهر الجرجانيّ[١] :

"والخطب من شأنها أن يعتمد فيها الأوزان والأسجاع، فإنّها تروى وتتناقل تناقل الأشعار، ومحلّها محلّ النّسيب والتّشبيب من الشّعر الّذي هو كأنّه لا يراد منه إلّا الاحتفال في الصّنعة، والدّلالة على مقدار شوط القريحة، والإخبار عن فضل القوّة والاقتدار على التفنّن في الصّفة".

وقيّد ابن الأثير السّجع بقيود هي : الاعتدال في مقاطع الكلام، وأن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادّة، طنّانة رنّانة، لا غثّة ولا باردة، وأن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ[٢].

ولمّا كانت المصادر -قبل القرن الرّابع- قد صمتت عن الإشارة إلى استخدام السّجع في الخطب من ناحية، وخلت الخطابة في عصر صدر الإسلام[٣] والرّسائل في العصر الأمويّ منه[٤]، فالأرجح أنّ خطابة العصر الأمويّ لم تحفل بالسّجع "إذ الخطيب الّذي لديه زاد من الأفكار الجديدة يعمد مباشرة إلى عرض أفكاره، ويصرف همّه إلى إيضاحها فينصرف عن الاحتفال بالسّجع والاهتمام بأمره، إلّا أن يجيء من غير تعمّد ولا تكلّف، وليس كما كان يصنع الكهّان قبل الإسلام" [٥].

وعند استعراض النّصوص الخطابيّة الّتي يطمئنّ إلى صحّة نسبتها إلى قائلها وعصره يلاحظ خلوّها من السّجع إلّا ما جاء عفو الخاطر.

٧- خلوّها من الصّنعة اللفظيّة :

كانت طبيعة الموضوعات الّتي تناولتها الخطابة الأمويّة تغني الخطبة، وتشغل الخطيب عن الاعتناء بزخرفة الألفاظ، والقصد إليها قصداً، لذا جاءت الخطب -الّتي يطمئن لصحّة نسبتها للعصر الأمويّ- خالية خلوّاً تامّاً من الصّنعة

---

(١) الجرجانيّ : عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق : محمّد رشيد رضا، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.، ص٥-٦.

(٢) ابن الأثير : ضياء الدّين، المثل السّائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق : محمّد محي الدّين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبيّ وأولاده، القاهرة، د.ت.، ج١، ص١٩٦-١٩٧.

(٣) جاسر أبو صفيّة، الخطابة وتطوّرها في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٤٦ و ١٥٩-١٦٠.

(٤) Jaser Abu Safieh, Umagyed Epirstolography, pp.132-134.

(٥) إبراهيم عوضين، أثر الإسلام في الخطابة العربيّة، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة، القاهرة، د.ت.، ص٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البديعيّة، ولكنّ بعض الخطب عنيت بجمال الصّور البيانيّة -دون تكلّف- اقتداء بأسلوب القرآن والحديث النّبويّ.

٨- الطّبع والتّكلّف :

كان ذوق العرب -حتّى أوائل العصر العباسيّ- قائماً على تفضيل كلّ ما هو مطبوع، إذ أنّه يكشف عن قدرة الخطيب وبراعته، وقد قال أبو داود :

"رأس الخطابة الطّبع، وعمودها الدّربة" (١).

ويلاحظ أنّ ما بين أيدينا من نصوص خطابيّة صحيحة، لا يظهر فيها تكلّف أو تحبير، وإنما جاءت وليدة الموقف الّذي قيلت فيه، ودليل ذلك :

١- لم يخرج الاستهلال بالتّحميد عن المألوف في خطابة عصر صدر الإسلام.

٢- خلوّها من الصّنعة البديعيّة الّتي تتولّد عن إطالة النّظر في الخطبة، وإحكام صنعتها.

٣- خلوّها من آثار المذهب الكلاميّ من وضع المقدّمات والنّتائج، وهو أمر يحتاج إلى إعمال الفكر والتّأنّي في إعداد الخطبة.

٤- خلوّها من الاستعارات والتّشبيهات إلّا ما جاء عفو الخاطر.

وقد وردت في عدد من المصادر بعض الإشارات، خلص منها بعض الباحثين إلى أنّ التّكلّف كان سمة لخطابة العصر الأمويّ، من ذلك ما رواه الجاحظ عن الكميت :

"إنّ للخطبة صعداء، وهي علي ذي اللبّ أرمى" (٢).

وروي أنّ رجلاً قال لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشّيب يا أمير المؤمنين. فأجاب : وكيف لا يعجل عليّ وأنا أعرض عقلي على النّاس في كلّ جمعة مرّة أو مرّتين(٣) .

وروي عن البعيث أنّه قال : "إنّي واللّه ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً، وما

---

(١) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٢٣. والقيروانيّ، زهر الآداب، حـ١، ص١٤٨.

(٢) الجاحظ، البيان والتّبيين، حـ١، ص١٣٤.

(٣) المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أريد أن أخطب يوم الحفل إلّا بالبائت المحكّك" [١].

ويلاحظ فيما أورده الجاحظ أنّ أحداً لم يقل إنّ الصّنعة كانت سمة الخطابة في العصر الأمويّ، فالكميت -الّذي عرف شاعراً- يرى أنّ للخطبة مشقّة، وربّما يتحدّث عن نفسه وعن سبب عدم تعاطيه الخطابة، ولم يقل إن خطباء عصره كانوا أصحاب صنعة.

أمّا عبد الملك بن مروان فقوله يفسّر على أكثر من وجه، وقد يكون عني بقوله هذا مشقّة تحمّل مسؤوليّة الرّعيّة، وليس مشقة التّفكير فيما سيعرضه عليهم.

وأما البعيث فلم تحفظ لنا المصادر خطبة له للتّثبّت من صحّة نسبة هذا القول له.

ومن المواقف الّتي تكشف عن حضور ذهن خطباء هذا العصر، ماروي عن خالد القسريّ من أنّ جرادة سقطت على ثوبه -وهو يخطب- فقال :

"سبحان من الجرادة من خلقه، أدمج قوائمها، وطوّقها جناحها، ووشّى جلدها، وسلّطها على ما هو أعظم منها" [٢].

ولكنّ هذا لا يمنع من أنّ بعض الخطباء قد يلجأون إلى إعداد الخطبة في أذهانهم قبل إلقائها على النّاس، وإن كنّا نفتقر إلى خطبة يطمئنّ لصحّة نسبتها للعصر الأمويّ، ولقائلها، فيها إشارة إلى أنّها معدّة سلفاً.

٩- الإيجاز والإطناب:

قال ابن عبد ربّه :

"اعلم أنّ جميع الخطب على ضربين : منها الطّوال، ومنها القصار، ولكلّ ذلك موضع يليق به، ومكان يحسن فيه" [٣].

والخطابة الأمويّة شأنها شأن سائر الخطب أطيلت وقصّرت، ولكنّ المصادر

---

(١) المصدر نفسه، حـ١، ص٢٠٥.

(٢) ابن نباتة، سرح العيون، ص٢٩٧.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تحفظ لنا خطباً -يمكن الاطمئنان إلى صحّتها- قد خرجت عن الإطناب إلى الإطالة المبالغ فيها. أمّا ما روي من أنّ الوليد بن عبد الملك جاء الجمعة، فلم يزل يخطب، ويقرأ الكتب، حتّى ذهب وقت الجمعة والعصر[١] . فهو قول مبالغ فيه لسببين :

الأوّل : أنّ الخلفاء الأمويّين -كما سبقت الإشارة إليه- كانوا شديديّ الحرص على مواقيت الصّلاة.

والثّاني : أنّ الوليد -المتّهم باللحن والعيّ- لو كان قال مثل هذه الخطبة، لسارع الرّواة إلى تدوينها، باعتبارها سابقة ليس لها مثيل. ولكن هذا لم يحدث، لأنّ الطّاعنين على الخلفاء الأمويّين كانوا يلقون التّهم جزافاً دون أدنى تفكير، فإذا بهم يصوّرون الوليد لاحناً عيّياً تارة، وخطيباً لا يشقّ له غبار في إطالة خطبته تارة أخرى، فأسقطت مثل تلك الرّوايات بعضها بعضاً.

ويلاحظ أنّ أكثر ما يطمئنّ لصحّته من نصوص خطابيّة كان معتدل الطّول -كما مرّ في غير موضع- كخطبة يزيد في الوعظ، وخطبة إياس في تجّار واسط.

ومن الخطب الّتي قصّرت لحاجة خطبة معاوية الجمعة في يوم صائف شديد الحر، فقال بعد حمد اللّه والثّناء عليه، والصّلاة على رسوله -صلّى اللّه عليه وسلّم- :

"إنّ اللّه -عزّ وجلّ- خلقكم فلم ينسكم، ووعظكم فلم يهملكم، فقال : ﴿يأيّها الّذين آمنوا اتّقوا اللّه حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون﴾[٢]، قوموا إلى صلاتكم"[٣].

ومنها خطبة عمر بن عبد العزيز لمّا ولّاه الوليد المدينة، فصلّى الظّهر، ودعا عشرة من فقهائها، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال :

"إنّي إنّما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحقّ، ما أريد

---

(١) وكيع، أخبار القضاة، حـ٢، ص٦٧-٦٨.

(٢) البقرة/١٣٢.

(٣) ابن عبد ربّه، العقد، حـ٤، ص١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن أقطع أمراً إلّا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً بلغه ذلك إلّا بلّغني" (١).

ومن المواضع الّتي يستحسن فيها الإطناب، خطب الوعظ والإرشاد، من ذلك قول خالد القسريّ على المنبر بواسط بعد حمد اللّه والصّلاة على نبيّه :

"أيّها النّاس، نافسوا في المكارم، وسارعوا إلى المغنم، واشتروا الحمد بالجود، ولا تكسبوا بالمطل ذمّا، ولا تعتدوا بالمعروف ما لم تعجّلوه، ومهما يكن عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها، فاللّه أحسن لها جزاء، وأجزل عليها عطاء. واعلموا أنّ حوائج النّاس إليكم نعمة من اللّه عليكم، فلا تملّوا النّعم فتحوّلوها نقماً. واعلموا أنّ أفضل المال ما أكسب أجراً، وأورث ذكراً، ولو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظرين، ولو رأيتم البخل رجلاً رأيتموه قبيحاً تنفر عنه القلوب، وتغضي عنه الأبصار.

"أيّها الناس، إن أجود النّاس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم النّاس عفواً من عفا عن قدرة، وأوصل النّاس من وصل من قطعه، ومن لم يطب حرثه، لم يزك نبته، والأصول عن مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم" (٢).

ولكن يؤخذ على هذا النص أنه لم يرد في المصادر المتقدّمة، ولم يحفل بالاستشهاد بالقرآن الكريم وهذا من أنسب المواضع الّتي يستشهد فيها به، ولكنّ مضمون هذه الخطبة وشكلها يوافقان شكل الخطابة الأمويّة ومضمونها.

٨٠١ - خلوّها من آثار المذهب الكلاميّ :

من المعروف أنّ علم الكلام نشأ باحتكاك الفلسفة العربيّة الإسلاميّة بالفلسفة اليونانيّة في العصر العباسيّ؛ لذا فإن أيّ أثر لها يظهر في النّصوص الخطابيّة -ولا سيّما في بداية العصر الأمويّ- كفيل بتعزيز الشّكّ في صحّة نسبتها للعصر

---

(١) الطّبريّ، تاريخ الرّسل والملوك، حـ٦، ص٤٢٧.

(٢) ابن نباته، سرح العيون، ص . والنّويريّ، نهاية الأرب، حـ٧، ص٢٥٥. والقلقشنديّ، صبح الأعشى، حـ١، ص٢٦٧-٢٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقائليه.

أمّا عن أواخر هذا العصر فليس بين أيدينا نصّ خطابيّ يمكن الرّكون إلى صحّته لنتبيّن فيما إذا بدأت آثار هذا المذهب بالتّسرّب الطّفيف في تلك الحقبة، أمّا النّصوص الخطابيّة المرجّح صحّتها فيلاحظ خلوّها منه.

١١- تأثّرها بخطابة عصر صدر الإسلام :

تأثّرت النّصوص الخطابيّة -الّتي يمكن الرّكون إلى صحّتها- في العصر الأمويّ بخطابة عصر صدر الإسلام في بنائها وأسلوبها وموضوعاتها، وهذا أمر بدهي مادامت فلسفة الحكم والتّفكير واحدة في العصرين.

وبعد ...

فلا يكاد يلمس في خطابة العصر الأمويّ -على امتداده- تطوّر في جانب منها، مع أنّ الفتوحات الإسلاميّة شكّلت نواة التّغيير -بصورة غير واضحة- بعد دخول عناصر جديدة في الدّين الإسلاميّ، ولا ينكر أنّ تأثير المجتمع الأمويّ عليهم أكثر بكثير من تأثّره بهم، ولكنّ هذا لا يمنع أنّ مثل هذا الاختلاط قد خلق نوعاً من التّطوّر البطيء، وأنّه لامس فنّ الخطابة بشكل ما، فالتقاء العقليّة العربيّة بغيرها في فهم هذا الدّين، والاتّفاق على الطّرق المثلى لتنفيذ تعاليمه، لا بدّ له من الاستفادة من مقوّمات الخطابة لتبادل وجهات النّظر، ولكنّ تهافت المصادر على جمع الخطب الّتي ضخّمت الأحداث السّياسيّة في العصر الأمويّ، أو افتعلت حوادث لم تكن قائمة أصلاً، وتناقلها مع مرور الزّمن، فوّت فرصة الاطّلاع على نصوص خطابيّة قد تساعد على وضوح خصائص الخطابة، وملاحظة فيما إذا أصابها تطوّر أولا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- القرآن الكريم
- إبراهيم أبو الخشب، الأدب الأموي، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧.
- إبراهيم شعوط، أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، الطبعة السادسة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله، التكملة لذيل الصلة، مجريط، ١٨٨٦.
- البلاذري : أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، نسخ: عبد الأمير دكسن، المكتبة السلمانية، اسطنبول، رقم (٥٩٨).
- ابن أبي الحديد : عز الدين أبو حامد، شرح نهج البلاغة، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٩.
- ابن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، إشراف : سمير طه المجذوب، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
- ابن أبي شيبة، ابن أبي عون الكاتب، الأجوبة المسكتة، تحقيق : محمد عبد القاهر، مكتبة النهضة العربية، مصر، د.ت.
- ابن الأثير : أبو الفتح ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، د.ت.
- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق : أبو الفداء عبد الله القاضي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- إحسان إلهي ظهير، بين الشيعة وأهل السنة، الطبعة الأولى، إدارة ترجمان السنة، لاهور، ١٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- إحسان إلهي ظهير، الشيعة وأهل البيت، الطبعة الثانية، إدارة ترجمان السنة، لاهور، ١٩٨٣.
- إحسان النص، الخطابة السياسية في عصر بني أمية، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٥.
- إحسان النص، الخطابة في عصرها الذهبي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣.
- الأشعري : أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محي الدين عبد الحميد، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- الأشعري : أبو الحسن، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محي الدين عبد الحميد، الجزء الثاني، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤.
- الأصفهاني : أبو الفرج، الأغاني، شرح : سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.
- أحمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم، بيروت، د.ت.
- أحمد الحوفي، فن الخطابة، الطبعة الرابعة، دون مكان أو تاريخ نشر.
- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٦٢.
- أدونيس، الثابت والمتحول، الطبعة الرابعة، دون مكان نشر، ١٩٨٣.
- ابن أعثم : أبو محمد أحمد الكوفي، الفتوح، مخطوط مصور عن الأصل الموجود في مكتبة أحمد الثالث، اسطنبول، رقم (٢٩٥٦)، حيدر أباد، الباكستان، ١٩٦٨.
- ابن أعثم : أبو محمد أحمد الكوفي، الفتوح، تحقيق : سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢.
- ابن أنس : مالك، الموطأ (برواية محمد بن الحسن الشيباني)، تحقيق : تقي الدين الندوي، الطبعة الأولى، دار السنة والسيرة، بومباي، ودار القلم، دمشق، ١٩٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩.
- إيليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، مراقبة : محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.
- البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الضعفاء الصغير، تحقيق : محمود إبراهيم زايد، دار العربي، حلب، ١٩٧٥.
- البسوي : أبو يوسف يعقوب بن سفيان، المعرفة والتاريخ، تحقيق : أكرم العمري، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨١.
- البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- البغدادي : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق : عباس أحمد الباز، الطبعة الأولى، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.
- ابن بكار : العباس، أخبار الوافدات من النساء على معاوية، تحقيق : سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.
- ابن بكار : العباس، أخبار الوافدين من الرجال على معاوية، تحقيق : سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.
- البلاذري : أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، الجزء الثالث، تحقيق : محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٧.
- البلاذري : أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الأول، تحقيق : إحسان عباس، دار النشر فرانتس شتايز بفيسبادن، بيروت، ١٩٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- البلاذري : أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، القسم الرابع، الجزء الثاني، تحقيق : ماكس شلوزنجر، القدس، ١٩٣٨.
- البلاذري : أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق : عبد الله وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧.
- الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق : إبراهيم عطوة، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
- التوحيدي : أبو حيان، البصائر والذخائر، تحقيق : وداد القاضي، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، الخلافة والملك، تحقيق : حماد سلامة، الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٨.
- ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، رأس الحسين، تحقيق : السيد الجميلي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥.
- ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، سؤال في يزيد بن معاوية، تحقيق : صلاح الدين المنجد، الطبعة الثالثة، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٦.
- ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، الصارم المسلول في الرد على شاتم الرسول، تحقيق : محمد محي الدين، بيروت، لبنان، ١٩٧٨.
- ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، منهاج السنة النبوية، تحقيق : محمد رشيد سالم، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.
- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مكتبة الهلال، بيروت، والمكتب العربي، الكويت، ١٩٦٨.
- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق : عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩.
- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر، المحاسن والأضداد، تقديم ومراجعة: عصام عيثاني، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الجامعة الأردنية. المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثالثة، عمان القسم العربي، ١٩٨٨.
- جامعة بغداد. وقائع الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي، رقم (٢)، بغداد، ١٩٨٩.
- الجرجاني : عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق : محمد رشيد رضا، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.
- الجهشياري : محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٨٣.
- ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، سيرة عمر بن عبد العزيز، مطبعة الإمام، القاهرة، د.ت.
- الجوهري : إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق : أحمد عبد الغفور، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤.
- ابن حبان : أبو حاتم محمد، كتاب الثقات، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، ١٩٨١.
- ابن حزم : علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق : عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.
- ابن حزم : علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق : محمد إبراهيم وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥.
- حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، ١٩٥٧.
- حسين عطوان، الفقهاء والخلافة في العصر الأموي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.
- حسين عطوان، الوليد بن يزيد، عرض ونقد، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١.
- حسين محمد سلمان، رجال الإدارة في الدولة الإسلامية العربية، دار الإصلاح للطبع والنشر، الدمام، ١٩٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية، الطبعة الأولى، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥.
- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، د.ت.
- الحموي : ابن حجة، ثمرات الأوراق، اختيار : يعقوب عبد النبي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت.
- الحموي : ياقوت، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن حنبل : أحمد، المسند، تحقيق : عبد الله محمد الدرويش، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٩١.
- خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، الطبعة الثانية، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٦.
- الخشني : أبو ذر مصعب بن أبي بكر، الإملاء المختصر في شرح غريب السير، تحقيق : عبد الكريم خليفة، الطبعة الأولى، دار البشير، عمان، ١٩٩١.
- ابن خلدون : عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٨.
- ابن خلدون : عبد الرحمن، المقدمة، طبعة أرنولد تونيبي، مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.
- ابن خلكان : أبو العباس، وفيات الأعيان، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠.
- ابن خياط : خليفة العصفري، تاريخ خليفة، تحقيق : أكرم العمري، الطبعة الأولى، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٧.
- الدينوري : أبو حنيفة، الأخبار الطوال، تحقيق : عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠.
- الذهبي : شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق : عمر عبد السلام، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الذهبي : شمس الدين، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٣.
- الذهبي : شمس الدين، ميزان الاعتدال، تحقيق : عبد الله السامرائي، دار واسط للنشر، بغداد، د.ت.
- ابن رستة : أبو علي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، لندن، ١٨٩١.
- الزبيري : مصعب بن عبد الله، نسب قريش، تحقيق : ايفاريست ليفي، برونتال، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ت.
- الزمخشري : جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- الزهري : محمد بن مسلم، المغازي النبوية، تحقيق : سهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠.
- ابن زولاق : الحسن، كتاب أخبار سيبويه المصري، نشره : محمد إبراهيم وحسن الديب، الطبعة الثانية، مكتبة الأبحاث العلمية لنشر علوم العربية، القاهرة، ١٩٨٠.
- ابن سعد : محمد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ابن سعيد : علي بن موسى، المغرب في حلي المغرب، تحقيق : شوقي ضيف، القاهرة، ١٩٦٤.
- السمعاني : عبد الكريم بن محمد، الأنساب، تقديم وتعليق : عبد الله البارودي، الطبعة الأولى، دار الجنان، بيروت، ١٩٨٨.
- سميح دغيم، فلسفة القدر في فكر المعتزلة، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، الطبعة الثالثة، مطبعة الإنصاف، بيروت، ١٩٦٧.
- السيوطي : جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تحقيق : محمد محي الدين، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٥٩.
- السيوطي : جلال الدين، الدر المنثور، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣.
- السيوطي : جلال الدين، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ.
- الشريف المرتضى : علي بن الحسين، الأمالي (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤.
- الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تخريج : محمد بن فتح الله، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.
- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥.
- الطبري : أبو القاسم بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق : حمدي عبد المجيد، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- الطبري : محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.
- ابن الطقطقي : محمد، الفخري في الآداب السلطانية، مراجعة : محمد عوض وعلي الجارم، دار المعارف، مصر، د.ت.
- ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، ١٩٠٨.
- عائشة عبد الرحمن، موسوعة آل النبي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق : علي البجاوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
- ابن عبد الحكم : أبو محمد، سيرة عمر بن عبد العزيز، تصحيح، أحمد عبيد، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧.
- عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٥.
- عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- عبد الخالق أبو رابية، عمرو بن العاص بين يدي التاريخ، الطبعة الأولى، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٨.
- ابن عبد ربه : أحمد بن محمد، العقد، تحقيق : محمد سعيد العريان، دار الفكر، د.ت.
- عبد الرحيم زلط، الفنون الأدبية وأثرها في الحياة/ فن الخطابة، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٧-١٩٧٨.
- عبد الرزاق محمد أسود، المدخل إلى دراسة الأديان، الطبعة الأولى، دار المسيرة والدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٩٨٠.
- عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.
- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١.
- عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٤.
- عبد العزيز السلومي، ديوان الجند : نشأته وتطوره في الدولة الإسلامية حتى عصر المأمون، الطبعة الأولى، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد الله الخلف، مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٠٧هـ.
- عبد المتعال الجبري، حوار مع الشيعة، الطبعة الأولى، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥.
- عبد الواحد ذنون طه، العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، الطبعة الأولى، مطابع جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٥.
- أبو عبيد : القاسم بن سلام، الأموال، تحقيق : محمد خليل، الطبعة الأولى، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨.
- ابن العربي : أبو بكر، العواصم من القواصم، تحقيق : محب الدين الخطيب، الطبعة الثالثة، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٧هـ.
- ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق : محب الدين أبي سعيد، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.
- ابن عساكر ، تراجم النساء، تحقيق : سكينة الشهابي، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٢.
- العسقلاني : ابن حجر، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٢٨٦هـ.
- العسقلاني : ابن حجر، تهذيب التهذيب، تحقيق : مصطفى عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.
- العسقلاني : ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق : محب الدين الخطيب، الطبعة الأولى، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٧.
- علي حسني الخربوطلي، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩.
- عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- العوتبي : سلمة، كتاب الضياء، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ١٩٩٠.
- عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، مطابع دار الشعب، عمان، ١٩٨٧.
- الغرناطي : أبو يحيى محمد بن عاصم، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق : صلاح جرار، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.
- غيداء كاتبي، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٤.
- الفراء : أبو يعلى محمد بن الحسين، الأحكام السلطانية، تصحيح : محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.
- فريال هديب، صورة يزيد بن معاوية في الدراسات الأدبية، دراسة نقدية، الطبعة الأولى، دار أمية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٥.
- أبو الفدا : عماد الدين، المختصر في تاريخ البشر، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية، مصر، د.ت.
- القاضي الهمذاني : أبو الحسين عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق : محمد مصطفى حلمي وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٩.
- القالي : أبو علي، الأمالي، الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٣.
- القالي : أبو علي، ذيل الأمالي، الطبعة الثانية، دار الحديث للطباعة والنشر، ١٩٨٤.
- القالي : أبو علي، النوادر، الطبعة الثانية، دار الحديث للطباعة والنشر، ١٩٨٤.
- ابن قتيبة : أبو محمد الدينوري، عيون الأخبار، شرح وتعليق : مفيد قميحة ويوسف الطويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن قتيبة : أبو محمد الدينوري، المعارف، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق : أحمد عبد العليم، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ١٩٦٥.
- قدامة بن جعفر : أبو الفرج البغدادي، الخراج وصناعة الكتابة، شرح محمد الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١.
- قدامة بن جعفر : أبو الفرج البغدادي، نقد النثر، تحقيق : طه حسين وعبد الحميد العبادي، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٩.
- القضاعي : أبو عبد الله محمد بن سلامة، دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، مطبعة اليرموك، بغداد، ١٩٨٩.
- القلقشندي : أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- القلهاني: محمد بن سعيد، الفرق الإسلامية من خلال الكشف والبيان، تحقيق: محمد عبد الجليل، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨٤.
- القيرواني : أبو إسحاق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق : زكي مبارك، الطبعة الرابعة، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢.
- ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكم والتنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة : عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩.
- ابن كثير : أبو الفداء، البداية والنهاية، تحقيق : أحمد عبد الوهاب، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢.
- الكلبي : هشام بن محمد، جمهرة النسب، تحقيق : ناجي حسين، الطبعة الأولى، عالم الكتب ومكتبةالنهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦.
- الماوردي : أبو الحسين علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المبرد : أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق : محمد الدالي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.
- المحب الطبري: أبو جعفر أحمد، الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق: محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي، القاهرة، ١٩٧٠.
- محمد أبو اليسر عابدين، أغاليط المؤرخين، دار العروبة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٧٢.
- محمد جاسم المشهداني، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٦.
- محمد رواس قلعجي، موسوعة فقه إبراهيم النخعي، جامعة الملك سعود، مكة المكرمة، ١٩٧٩.
- محمد عبد الرحيم، تفسير الحسن البصري، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢.
- محمد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، دار المعارف، مصر، ١٩٥٥.
- محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في عصر بني أمية، مكتبة القاهرة، مصر، د.ت.
- محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة ودار النفائس، بيروت، ١٩٨١.
- محمود الملاح، تاريخنا القومي بين السلب والإيجاب، الطبعة الثانية، دون تاريخ أو مكان نشر.
- المرزباني : محمد بن عمران، أشعار النساء، تحقيق : سامي مكي العاني وهلال ناجي، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٧٦.
- المسعودي : علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٨.
- مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق : خليل مأمون، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المقدسي : شمس الدين، الآداب الشرعية والمنح المرعية، مؤسسة قرطبة، مصر، د.ت.
- المقري : أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق : محمد محي الدين، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٩.
- المقريزي : تقي الدين أبو محمد، النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، تصحيح : محمود عرنوس، مكتبة الأهرام، القاهرة، ١٩٣٧.
- ابن منظور : أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، د.ت. ، ١٩٥٥.
- ابن مهران : أبو نعيم أحمد بن عبد الله، تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة، تحقيق : إبراهيم علي، الطبعة الأولى، دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع، ١٩٨٦.
- موسى الموسوي، الشيعة والتصحيح، دون مكان نشر، ١٩٨٨.
- الموسويّ : أبو الحسن، نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، تحقيق : صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧.
- مؤلف مجهول من القرن الثالث، أخبار الدولة العباسية، تحقيق : عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١.
- مؤلف مجهول من القرن الثالث الهجري، الإمامة والسياسة، تحقيق : سعيد صالح خليل، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٧٨.
- ناصر النقشبندي، الدرهم الإسلامي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٩.
- نايف محمود معروف، الخوارج في العصر الأموي، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.
- ابن نباتة : جمال الدين محمد بن محمد، سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٧.
- نبيه عاقل، تاريخ خلافة بني أمية، الطبعة الثالثة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النويري : أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.
- النيسابوري : أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- الهمذاني : أبو بكر محمد بن موسى، الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، دار المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ.
- الهيتمي : ابن حجر أحمد المكي، تطهير الجنان واللسان، تقديم : عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، ج. م. ع.، ١٩٦٥.
- الهيتمي : ابن حجر أحمد المكي، الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، تقديم : عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، مكتبة القاهرة، ج. م. ع. ، ١٩٦٥.
- الهيثمي : نور الدين علي بن أبي بكر، بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق : عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤.
- النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، تهذيب خصائص الإمام علي بن أبي طالب، تحقيق : أبو إسحاق الجويني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤.
- وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨١.
- وفيق الدقدوقي، الجندية في عهد الدولة الأموية، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.
- وكيع : محمد بن خلف، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٠٨.
- اليعقوبي : أحمد بن يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، د.ت.
- يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة : محمد عبد الهادي، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* المراجع الأجنبية :

- Jaser Khalil Abusafieh, Umayyad epistolography, with special refernence to the compositions Ascribed to "Abdal- Hamid al -katib, PH.D. Dissertation, school of oriental and African studies, London, 1982.
- Raif Georges khoury, wahib B. Musabbih, Der Heidelberger Papyrus PSR Heid Arab 23, Otto Harrassowilzz, wiesbaden, Germany, 1972.

* الدوريات العربية :

- جاسر أبو صفية، مجلة دراسات، صورة الحجاج في الروايات الأدبية؛ دراسة نقدية، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد الثامن عشر (أ)، العدد الثالث، ١٩٩١.
- عبد العزيز الدوري، مجلة العقيق، تعريب الدواوين في العصر الأموي : دراسة نقدية، نادي المدينة المنورة الأدبي، السعودية، كانون الثاني -حزيران، ١٩٩٣.
- حبيب زيات، مجلة المشرق، مزاعم المؤرخين العباسيين في وصف شره الأمويين، السنة الثانية والأربعون، نيسان -حزيران، ١٩٤٨.
- رودلف زلهايم، مجلة مجمع اللغة العربية، فتنة عبد الله بن الزبير، تعريب : حسام الصفير، مجلد (٤٩)، ح٢، نيسان، ١٩٧٤.
- ش . بلاث، مجلة الموسم، رسالة الجاحظ في الحكمين، العدد (١٩)، ١٩٩٤.
- صالح أحمد العلي، مجلة أبحاث، موظفو بلاد الشام في العصر الأموي، الجامعة الأمريكية، بيروت، عدد (١٩)، ١٩٦٦.
- فؤاد البستاني، مجلة المشرق، دور النصارى في إقرار الخلافة الأموية، السنة الثانية والأربعون، نيسان-حزيران، ١٩٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد الدقس، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب (٢)، العصبية الخلدونية ووظيفتها الاجتماعية والسياسية، الرياض، مج (٢٢)، ١٩٩٠.

*** الدوريات الأجنبية :**

- Henri lammens, Melanges, S.I.LE Califat de yazid, Vol (IV), 1910.
- Marie Bernard, Annals, Isla Mologiques, Le Kitabe Al Radd AlA L-Bida, D AbuMuti Makhul AL- Nasafi, Institute Francais D Archeolocie Orientale Du caire, Tome (XVI), 1980.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

The Oratory In The Umayyad Period, A Critical Study

Firyal Abd al-Rahman al-Ali.

Supervisor : Dr. Jaser Kh. Abu Safieh .

This critical study is an attempt to throw some light on the Umayyad oratory by studying the orartorical texts according to the methodology of Hadith inorder to distinguish the authentic texts from the false ones. It also aims at showing the style and characteristics of the Umayyad oratory.

My approach to such a subject will be set out in preface and five chapters:

1- In the preface, I discussed the forgery in the Umayyad oratory and the attitudes of the ancient and modern scholars towards it.
2- The first chapter deals with the oratorical texts ascribed to the Umayyad Caliphs after their accession to the throne.
3- The second chapter discusses the oratorical texts ascribed to the opponents sects in the Umayyad period.
4- The third chapter deals with the administrative oratorical texts of the Umayyad caliphs, governors, and military leaders.
5- The fourth chapter tackles the ideological, preaching, juristical, delegations, women, marriage, and commemorative oratory.
6- The fifth chapter deals with the style and characteristics of the Umayyad oratory.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The conclusion of this study may be set out as follows :

a- With the exception of some specimens, it has been found that most of the oratorical texts are inauthentic which means that they are unreliable in studying such a subject.

b- The oratorical texts which focuses at the conflict between the Umayyads and their opponents, particulary the shi ites, where based upon unstable ground.

c- The Jihad oratorical texts together with the Kharijites' had been deliberately eliminated.

d- Comparing the authentic Umayyad oratorical texts with the texts of the Early Islamic period, one could not state that there was any kind of development in the Umayyad oratory.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit